الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بن يوسف بن خدة – الجزائر
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

حكايات كرامات الأولياء في منطقة الشلف

مذكرة لنيل شهادة الماجيستير
تخصص: الأدب الشعبي

من إعداد الطالب:
محمد دحماني

الســــنـة الــدراسية:
.2006 – 2005

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة بن يوسف بن خدة – الجزائر

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

حكايات كرامات الأولياء في منطقة الشلف

مذكرة لنيل شهادة الماجيستير

تخصص: الأدب الشعبي

من إعداد الطالب: محمد دحماني

الأستاذ المشرف: د.عبد الحميد بورايو

لجنة المناقشة

الأستاذ د. :	رئيسا
الأستاذ د. :	مقررا
الأستاذ د. :	عضوا

الســـــنـة الـــدراسية:

2006 - 2005

الإهداء:

إلى والدي الذي علمني رسم الحرف طيب الله ثراه.

إلى كل الذين ينال البحث منهم جهدا كبيرا

إلى الأخ الكريم: لحسن سوايحية الذي مدنا بمادة هذا العمل

إلى كل الأساتذة الزملاء.

إلى الأستاذ المحترم : عبد القادر مجاهد

شكر وتقدير:

أتوجه بشكري الخالص لكل من ساعدني

في إعداد هذه المذكرة، سواء بتوجيهه أو مساندته.

وأخص أستاذي المشرف د. عبد الحميد بورايو

الذي فتح لي صدره ومكتبه ومكتبته،

وتعهد هذا البحث منذ ولادته إلى ما هو عليه اليوم .

كما أوجه شكري الخاص إلى كل الذين فتحوا لنا الطريق لنتقدم

إلى الأمام ، فلم يبخلوا علينا بما يملكوه من أخبار ومعارف

ومخطوطات ووثائق نادرة.

الفصل الأول:

مفهوم الكرامة وعلاقته بالمفاهيم المجاورة

- المناقب.
- الكرامة.
- العجيب.

الفصل الثانـي:

خصائص حكايات الكرامات

- المناقب.
- الكرامة.
- العجيب

الفصل الثالث:

التحليل الموضوعاتي لحكايات الكرامات.

- التصنيف الموضوعاتي لحكايات الكرامات.
- تحليل نماذج من حكايات الكرامات.

المقدمة

تمتد ثقافتنا الشعبية عبر مساحات شاسعة لا يمكن لنا تحديد معالم الأرض التي نبتت فيها، وتعتبر الروافد التي تمد هذه الثقافة تلك الأنواع المتداخلة أحيانا والمتجانسة من شعر شعبي وحكايات وعادات وتقاليد وطقوس، ومهارات اكتسبها القوم ليعبروا بها عن قدراتهم في الحياة.

إن الأجيال والشعوب بطبيعتها تمتد بالعطاء والأخذ وتبادل الأفكار والمعارف، حتى يتأكد لنا أن الخليقة كلها واحدة من شرقها إلى غربها وأجناسها وألوانها، تنصهر في بوتقة واحدة وتعيش من هواء واحد وشمس مشرقة، إن مجتمعنا يستند إلى خلفية ومرجعية روحية قوية، فالأولياء يعيشون مع الناس في حركاتهم وسكناتهم ولا يكاد الواحد منهم يقوم بأمر إلا إذا استشار الولي بالدعاء والبركة ولو بهمس في داخل ذاته وقد يذهب إلى أحد الصالحين الذين يعتقد فيهم بركة الأتباع والمريدين، إنه سلوك خوف من قوة غيبية، نخاف أن تسيطر على نفوسنا ونخسر المعركة أو يصيبنا مكروه، وقد تتعدد الأشكال والصيغ في الولاء والطاعة، ولكنها كلها تثبت سندنا إلى مرجعية لها الأثر البالغ في حياتنا. إن مناقب الأولياء من أجل المواضيع التي تحظى بتقدير واحترام لدى فئات هامة من المجتمع، ولهذا الغرض أولا ولطبيعة موضوع الأولياء الذي يحظى بالقداسة ولأن الله مدحهم في الكثير من الآيات، فلهم المرتبة العالية والميزة عن غيرهم، فكأن الناس نسمعهم يقولون إنهم بشر مثلنا ولكن ليسوا منا، يمثل التراث الصوفي جزءا هاما في مساحة المخيلة الشعبية، يحتاج إلى بحث دائم لتقصي ينابيعه ومصادره، والبحث في تحولاته عبر التاريخ وتمظهراته الثقافية، وذلك بالاعتماد على الأدوات الإجرائية المحددة لقراءته، قراءة، تغوص في اللامفكر فيه في هذا الخطاب من هنا انبثقت فكرة هذا البحث وحركت الباحث للسير من أجل إكتشاف طبيعة المسلك، نهدف إلى التوغل في تشكلات الخطاب الصوفي في حقل الثقافة الإسلامية والإنسانية عموما، انكشفت الخلفيات الأولى التي أبرزت الفضاء الذي يتحرك ضمنه المخيال الشعبي في صورة التساؤلات التي تشكل محور البحث

في سيرة الأولياء، غايتنا من كل ذلك تجسيد الحكاية في شكلها الكامل وهي تجـول وتصول عبر مغامرة معرفية تطبع بالدهشة والرهبة والمفاجئة.

من أجل الأهداف التي نطمح الوصول إليهـا جمـع هـذه المـادة المتنـاثرة والمطبوعة في أغلب الأحوال بالشفوية والانقطاع، نرغب تدوينها لتكون مادة سـهلة بين يدي القراء والباحثين.

- إن الذين يحملون هذه المادة أغلبهم إن لم نقل كلهم شـيوخ كبـار يعـانون التهميش واللامبالاة، وبرجوعنا إليهم في هذا البحث أحسوا بإعادة الاعتبار واكتسبت الحكاية في حديثهم حياة التجدد والانبعاث.

- إن الدراسات العليا في هذا المجال لا تزال قليلة جدا، نأمل من وراء غايات هذا البحث المراهنة للوصول إلى التأصيل لهذه المادة المنسية ولفت اهتمـام فئـات المجتمع إلى قطاع مهم في ثقافتنا، ولعلها تكون أول لبنة في تحديد معالم هذا الحقـل انطلاقا من القول "إن جمع المادة سابق لدراستها"، ومن بواعث هو تلك المظاهر من العادات والتقاليد المتمثلة في طقوس تحمل دلالات عدة، فمن زيارة عادية لمقام الولي إلى التمسح بجدرانه وأكل شيء من ترابه إلى الوفاء بالعهد في حضرته، إنجاز وعد والعمل بنذر إن مرجعية المجتمع هنا قبلية وبعدية في تعامله مع الولي.

- إن الهجرة من البيت ومفارقة الأهل والإقامة لعدة أيام وليال في المقام سنويا تقام هذه السنة وتحيا الذكرى، ويدعى إليها الأحفاد والمريدون والأتبـاع، ويتصـدق الناس بكل ما يملكون من غال ونفيس لخدام الولي، والذين يوزعون قسما منه علـى الفقراء والمساكين، إن مثل هذه المظاهر التي عاشها الباحث أكثر من مرة طبعت في النفس حبا أكبر ورغبة ملحة للغوص في الأعماق لتجلية الأشياء وإظهارها للوجود.

- إن استنطاق الإشارات والبحث في تشكلات الرمز قد تنبيء بتفسير يثلج له الصدر وتطمئن له النفس، إن جملة من التساؤلات تصاحبنا في السر والعلن، نريـد إماطة اللثام عنها وكشف الأقنعة لأجل تحديد حقل الكرامة.

- تمثل هذه الحكايات وجهة بحثنا وقبلتنا لربط الأمس باليوم الذين ماتوا منـذ زمن بعيد، لم ينتهوا بدفن رفاتهم ومواراة أجسادهم التراب، لقد تحولوا ليعيشوا فـي أنفس أخرى فبقيت حكمهم وعطاؤهم الفكري نموذجا ومثالا يحتذى به، فهو الأمـل والملاذ والمستقر.

- قامت الإشكالية الأساسية للبحث على طرح استمده الباحـث مـن بعـض قراءاته، حيث افترض وجود محاكاة للكرامة من أنماط ثقافية سابقة تعيدها وتسـتمر من خلالها عبر انزياحات يمليها الاحتكاك التاريخي في تشكل المعنى ويتجسد ذلـك في علاقة القدسي بالمتخيل أو الدنيوي، من هنا كان لزاما وضروريا أن ينصب جل حديثنا في الفصل الأول على تحديد المفاهيم الإجرائية في مفهوم القدسي والمتخيـل في الخطاب الصوفي، وسندنا في ذلك خصوصية هذه التجربة التي تؤسـس لـنمط معرفي مغاير له منظومته ومصطلحاته، إذ إنها تظهر علاقة الإنسان بذاته وبالعـالم وبالله من خلال البحث عن الارتقاء إلى الكمال الذي يمثل القدسي وذلـك بمفارقـة الدنيوي أو المتخيل الذي ليس إلا وهما، فالصوفي يحيا في وجوده متأرجحـا بـين أرض وسماء وبين اليقين والوهم، ولا شك أن الذاكرة الشعبية المتشبعة بالمعتقـدات القديمة صهرت في متخيلها هذه التجربة واحتوتها لتعبر انطلاقا منها عن تطوراتها.

- بعد ذلك طرح الباحث فرضية الكرامة تحاكي أنماطا سابقة، هـي الـنمط النبوي، والنمط السحري/الأسطوري فقدم لمعاني الكرامة وأظهر وظائفها وبين أنهـا استمرار للمعجزة مبرزا وظائف كل نوع مشيرا إلى مواقـع التشـابه والاخـتلاف بينهما.

- إن تحديد المنطقة الجغرافية التي جعلها الباحث منطلقا لمادته، أملت تقـديما لمنطقة الشاف فرسم بعض ملامح حدودها في المكان والزمان، إن غنى وثراء هـذه البلادة بمنابع غزيرة ذات عطاء وفير مد الثقافة الشعبية بشتى أنواع الفنون من شـعر شعبي وقول مأثور ومثل مذكور، كل ذلك من أجل إيجاد الفضاء الذي وجـدت فيـه المادة الأولى التي نعتبرها الأساس لبحثنا "حكاية الكرامة".

عدنا إلى الحكاية لنعرف بصورة مفصلة من يحملها وينقلهـا ويحميهـا مـن الذوبان والنسيان ولا شك في أن أول من يقابلنا في هذا المجال وبصـورة مباشـرة الراوي فقدمنا له بوصف أنواع الرواة محترفين وهواة، الوسـائل والقنـوات التـي يستعملونها لإيصال مادتهم، وما هي محاسن ومساوئ الرواية الشفوية ومـا الـذي أكسب هذه الحكايات نفسا طويلا من أجل البقاء ومسايرة الزمن عبر أجيـال سـابقة ولاحقة، وكان لابد أن لا نغفل الحديث عن الحكاية ذاتها من حيث وصـفها شـكلا ومضمونا، أما الأول فيتعلق بطبيعة بنائها من حيث بدايتها ونهايته وما يتفـق فيهـا جملة وما يتحدد تفصيلا، غياب العنوان والرأس فيها وما دلالاته، ماذا تحمـل بـين طياتها، وما هي المواضيع التي أملتها حاجة الناس فحددت طبيعتها ووجهت نسقها.

بحثنا في العناصر المكونة لها بشرية كانت أو (حيوان، نبات، جماد، أجسـام من عوالم أخرى...)، رجعنا إلى الحكايات القديمة الضاربة بجـذورها والمكتسـحة لمساحة الفكر الإنساني مثل ألف ليلة وليلة، وكليلـة ودمنـة، وقصـص الحيـوان، ورحلات ابن بطوطة والسندباد البحري والأساطير. حاولنـا إسـقاط تحليـل تلـك الحكايات ووضعها عند الدارسين لها على حكايات الكرامـات، معلـين، مفسـرين وشارحين، محاولة منا لتحليل هذه الحكاية بتلك، واضعين أيدينا على مواقع التنـاص والتلاقي.

في الفصل الثالث ونظرا لأهمية الجداول التي وضعها الباحث الموريتاني "ولد احظانا" لدراسة الحكاية الشعبية عبر اكتشاف محيطاتها وشخصـياتها وإدراك نـوع وطبيعة علاقاتهم اتفاقا واختلافا، ومعرفة مراتبهم المختلفة ضمن نسق وتطور الحدث ومعرفة الفعل من طبيعة المبدأ إلى غاية المنتهى، كيف تتشكل الأزمات وكيف يقـدم لها الحل، إن قيمة هذه الجداول مكنت أساتذة وباحثين من تحليل نمـاذج لحكايـات شعبية مختلفة المنبت والمحتوى، إن اهتمام الأستاذ بورايو بدراسة الحكاية وفق هـذا المنطق ومن بعده الباحث حكيم ميلود ما جعلنا نقتفي الأثر ونتابع السير مـن أجـل تقليب الحكاية وفهمها من عدة أوجه، هذه غايتنا من بحثنا ولعلنا بلغنا الضفة

الفصل الأول:

مفهوم الكرامة وعلاقته بالمفاهيم المجاورة

المناقب

1/ تعريف المناقب:

يطلق جنس المناقب على كل ترجمة لصوفي، "شيخ، ولي، أو عالم " و تـدخل الكرامات عنصرا من مكونات جنس المناقب. وقد ذكر أبو القاسم لفظ المناقب فـي قوله: " قد سألني سائلون أن أؤلف لهم ما انتهى إلي من مناقب الشيخ الصالح الجليل أبي إسحاق بن إبراهيم بن أحمد الجبنياني رضي الله عنه في حفظه و علمه وسيرته في نسكه و زهده، و انقطاعه في العبادة."[1] وقـد شمل هذا التفصيـل كـل مناحي وجوانب مساحة المناقب، و يمكن إدراج المناقب ضمن فن التراجم وهـي عامـة أو خاصة بالأولياء والعلماء والشيوخ الصالحين وتذكر للمترجم له:

النسب - تاريخ ومكان الولادة-مراحل الدراسة والتعليم –شيوخه وأسـاتذته-أسفاره ورحلاته-التدريس و التأليف-منتخبات من أثاره، ذكر كل ما خلفه لمن بعده، شهادات معاصريه، أراء و انتقادات لإنتاجه ومواقفه-وفاته.

ولنحيط بمفهوم المناقب رأينا ضرورة عرض معنى الفعل "نقب" والاسم "منقبة" فـي سياقاته المختلفة حتى نصل إلى مدلول واضح. ورد معنى نقب في القـرآن الكـريم بمعنى ضرب.[2] يقول الله تعالى: {و كم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص}* ذكر الزمخشري فنقبوا:فخرقوا في البلاد ودوخوا،والتنقيب التنقير عن الأمر بمعنى البحث والطلب ، وعند القرطبي :ساروا فيها طلبا للمهرب.[3] و قال مجاهد ضربوا وطافوا، و جاء المعني لجو البلاد من أنقابها.[4] وفـي الحـديث على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، وجاء

---

1 ABÜL QASIM ALLABIDI _MAMÄQIB D'ABU ISHAQ AL-JABA NYANI " P-2 Impremerie La Rapide -Tunis

* الآية 36 سورة ق.

2 محمد فؤاد عبد الباقي –معجم غريب القرآن-209- دار المعرفة لبنان.

3 الزمخشري –الكشاف ج 11/4

4 القرطبي الجامع –ج22/17

الفعل بالقاف المشددة بالكسر على الأمر نقّبوا:-سيحوا في البلاد وابحثو.[5] والمناقب هي ذكر الفضائل والمزايا، وهي أوصاف الشيخ ونسبة الكرامات إليه من عجائب الأفعال وخوارق العادات وهي مجموعة المؤلفات الصوفية المعروفة كما يذكر أبو حيان.[6] والمنقبة هي صفة محمودة بها يعتلي الشخص درجة الإيمان وهي ما دلّ على كرم الفعل ومفاخر الأعمال وحسن الخلق، تستخدم في كتب التراجم للكلام على مزايا المترجم له الاجتماعية والأدبية، ويذكر الأستاذ لؤي خليل أن أول من استعمل هذه الكلمة لسان الدين بن الخطيب في كتابه:" الإحاطة في أخبار غرناطة "عندما تحدث عن المجال الذي يتفرد به العلم المترجم له.[7] و قد ذكر الأستاذ بعض نماذج التراجم مثل ترجمة أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي فقد ورد تحت عنوان مناقبه :- ما ذكر له في الكتابة و الأدب والشعر-

2/ علاقة المناقب بالتاريخ:

إذا كان التاريخ تسجيل للأحداث وتدوين للوقائع فإن المناقب تشترك معه في اعتمادها على السند وتمحيصه والحكي عن الماضي إذ كلا منهما كما يقول الباحث ميلود حكيم " يستعمل اللفظ الخاص بسرد التاريخ وحكايته وهو الفعل الماضي المجرد من العلامات الدالة على المتكلم، وكأن خطابه يسرد نفسه بنفسه"[8] إلا أن المناقب إستراتيجية توجه الخطاب بمهارة إقناعية تستند في قوة الحجة والدليل على اعتماد نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مع اعتماد أقوال وأفعال السلف الصالح، وتختلف عن النصوص التاريخية و الخطابات الأدبية أنها تعمد إلى الاستشهاد بنماذج الشعر والنثر، الأقوال المأثورة والحكم، وإيراد الحكايات وذكر الأمثال والأخبار والحديث النبوي وبهذا يتميز بغنى وغزارة الاستدلال وتنوعه.

---

5 عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي-تفسير الكتاب العزيز-المحرر الوجيز ج 167/5 –تحقيق عبد السلام الشافي محمد ط1-دار الكتب 1993.

6 أبو حيان الأندلسي-تفسير البحر المحيط ج8-ص127 تحقيق عادل أحمد منشورات دار الكتب 2001 دار الكتب.

7 أ.د.لؤي خليل-مجلة التراث العربي-ص3, اتحاد الكتاب العرب ع97.آذار 2005 دمشق

8 محمد مفتاح -دينامية النص ص132-

كما نلاحظ أن المناقب تندرج ضمن التراجم التي يطغى عليها النمط الشفوي، فقد حملت خصائص ومميزات هذا الخطاب، وكثيرا ما نجدها تـدون وتنقـل بلهجـة عامية محلية تبعا للمنطقة التي وجدت فيها وحافظت على بقائهـا و تـداولها بـين الأجيال، وهنا نلاحظ ظاهرة الصيغ المتعددة للخطاب الواحد.

ونلاحظ أن المتلقي لنص المناقب يختلف عن المتلقي لأحداث التاريخ فـالأول يكون اهتمامه وإصغاؤه أشد وأقوى، في النص الأول يرسم الشخص السامع صـورة النموذج المبتغى أو القدوة ويتطلع بإحساسه ومشاعره إلى الانتقال بالروح والعـيش في كنف الصالحين للسمو والارتقاء ولهذا يعتبر الخطاب في المناقب أكثـر دلالـة وإقناعا لأنه يبني سنده على الحجة القوية من القرآن والسنة النبويـة وأثـر السـلف كدليل شاهد.

3/ أهمية المناقب:

إن وجود المناقب والاهتمام بالتأليف فيها وجمع أخبار الصالحين وتدوينها يعود إلى أن مجتمعنا مجتمع ديني يسعى إلى الالتزام بالنص "القرآن والحديث" والإقتـداء بنموذج النبي والخلفاء الراشدين ومن صلح بعدهم وسار على نهجهم من التابعين كما يقول لؤي خليل.[9] ومن الضرورة الحفاظ على النمطين (النص والنموذج).إن قـراءة أي القرآن ونصوص الحديث تعتبر تلقي نظري ولا يفقـه كنههـا ومعناهـا إلا إذا ارتبطت بالشخص الذي تم عليه الإسقاط فكان التطابق بين النص النظري والسـلوك الفعلي.

حقل المناقب حقل خصب يحدد بجملة من الأصناف والصفات، فأخبار الأولياء تطبع في مضامينها ومقاطعها وغاياتها الكلية بذات الولي فهي تكشف عـن درجـة قويـة بالشكل الذي يخرج به المتلقي والسامع إلى طبيعة نص آخر وسمة متميزة يحمل بين طياته دلالة الدهشة والاستغراب، والوقوف على نموذج إيماني فريد.

[9] لؤي خليل-مجلة التراث العربي –اتحاد الكتاب العرب ص4 ع 97 آذار 2005 دمشق

لهذا وجدنا الاهتمام البالغ بسيرة الأوائل وأهمها سيرة الرسول صلى الله عليـه وسلم والخلفاء الراشدين والتابعين، وتبقى هذه السير نماذج أصيلة ذات قيمة مقدسـة تقاس عليها الأقوال والأفعال ولنفس الغاية جعلت كتب المناقب التي تسعى إلى تثبيت النموذج الأصل، إذ ينبغي أن يكون لكل إمام الإقتداء بإمام له كمـا يؤكـد الأسـتاذ خليل.[11] ولا يكون له ذلك إلا بالإطلاع على مناقبه وشمائله وفضائله لذلك صـنفت كتب السير ومنها كتاب "مناقب العشرة " المسمى خصائص العشرة الكـرام البـررة للإمام أبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري وكتاب رجال حول الرسول لخالد محمد خالد إلى غير ذلك من المؤلفات الكثيرة في هذا المضمار.

يضاف إلى كل ما ذكرنا أن أدب المناقـب يتصـف "بازدواجيـة المواقـف وتحطيمه للمطلقات والحدود بين الأشياء مهما كانت طبيعتها ونوعها "[12] فالمنقبـة حين تجمع بين الواقعي والخيالي، البشري والإلهي تلغـي التصـنيف الـذي يقـول بوجودين متمايزين لا ثالث لهما " الواقعي والخيالي." وهي بذلك تؤكد وجود مساحة بينهما هي الكرامة، وهي جنس أصغر يندرج ضمن المناقب، بوصفها حكاية تتماس مع الخارق العجيب الذي يختلف عما نعرفه من عجيب في الأجناس الأدبية الأخرى.
في المناقب يجد المتلقي ذاته الأخرى التي كان يبحث عـن وجودهـا أو تشـكيلها، فالحكاية المنقبية نقل للجسم والروح إلى فضاء أخر غني بالبعد الروحي والتعمق في باطن النفس، غني بالرمز نجده يتجه بنا دائما نحو السماء في رقي وصفاء وطهـر، يؤكد الكثير من الباحثين ذلك. يقول لطفي عيسى "الحكاية المنقبية تمثـل اسـتهلالا لمجال جديد للتنقل ينعدم ضمنه الفضاء الحسي الملموس و يبدأ السـلوك العمـودي باتجاه السماء."[13] يظهر جليا خلق الفضاء الجديد للنفس حينما تسـبح فـي فضـاء المناقب، نجد الولي بعيدا عن الواقع الأرض، التراب، يرقى بروحه نحو العلا يبغي النقاء أمله القرب إلى الله ونيل الرضا، نلاحظ الروحي يرتبط بالخط العمودي، فكل

---
[11] مرجع سبق ذكره ص6
[12] نفسه
1 عيسى لطفي –أخبار المناقب ص 15

تعبد وسلوك يصدر عن الولي بإدراك سكون النفس في التعبد لله والإخلاص له وفي شكل تعامله مع الناس حينما يلجأون إليه قصـد حـل مشـاكلهم وتخفيـف كـربهم وأوجاعهم، يمثل لديهم الإجابة، الحل التفريغ والتفريج حال الهموم والأزمات. تهدف المناقب باعتبارها جانبا مهما من الموروث المقدس، بعث الحياة الروحية في النفس، وتجديد العهد مع الله سبحانه وتعالى وتحاول بسرد نمـاذج حكاياتهـا إعـادة خلـق النموذج الأمثل الذي يكون خير خلف لخير سلف. يقول محمـد بـن الموغوفـل:" الغرض من ذكر ترجمة هؤلاء هو: " التبرك بهم والحث على الانتفاع منهم وتنبيـه الغافل عنهم لكي يرقى بسببهم إلى الصلاح."[14] تعتبر سيرة الأولياء مرجعية من حيث القدوة الحسنة والسلوك القويم وأن المؤمن يقتفي أثرهم لعل الله يصلح أمره فيجد من صفتهم في نفسه شيئا.

الكرامة:

1/ المصطلح والمفهوم:

__لغة__: جاء في اللّسان كرم : الكريم من صفات الله وأسمائه وهو الكثير الخيـر الجواد.[15] وفي أساس البلاغة للزمخشري مادة ك.ر.م : كرم علينا فلان كرامة، وله علينا كرامة، وأكرمه الله، وكرمه وأكرم نفسه بالتقوى وأكرمها عن المعاصي وهو يتكرم عن الشوائن وإن أجل المكارم اجتناب المحارم وهم الأطيبون الأكارم، يقال: كارمت فلانا، وفي الحديث إن الذي حرمها حرم أن يكارم بها، وفيه أيضا إذا أتـاكم كريمة قوم فأكرموه.[16] ونفس التعريف في المحيط للفيروزبادي.[17] وفـي معجـم العين الكرم شرف الرجل، وتكرم عن الشائنات أي تنزه وأكرم نفسه عنها ورفعها.[18]

ويذهب ابن فارس في مقاييس اللغة إلى ما ذهب إليه ابن منظور.[19] يلاحـظ الباحث أن الكرامة في المعاجم تعني في مجملها الخلق الكريم وحسن الفعل وجيده.

---

14 أبو القاسم سعد الله –تاريخ الجزائر الثقافي ج 131/1-133
15 ابن منظور –لسان العرب م249/3
16 الزمخشري –أساس البلاغة –ص54
17 الإمام مجد الدين محمد الفيروزبادي-القاموس المحيط –ج140/4
18 الفراهيدي –العين ص 368

2/ مفهوم الكرامة :

للكرامة مفاهيم عديدة تتماثل وتتداخل تلتقي كلها في ذلك الفعل الخارق والسلوك المميز الذي يعتقد بأن الله خص به صفوة من خلقه هم الأولياء. ويقصد بالفعل في هذا السياق ما يخرج عن عادة القوم ويفوق طاقتهم الفكرية والعضوية مثل قطع مسافة زمنية طويلة في أقل من لمح البصر بدون وسيلة أو مركب، أو الطيران في الجو، أو التحكم في حركة وسكون طير أو حيوان إلى غير ذلك مما يفوق قدرة البشر. كما تشد الكرامة إلى المعجزة برباط وثيق وهذا لما في تعريفيهما من تشابه وتلاق، وكلاهما خارق للعادة. وبينهما فروق أولها وأهمها أن المعجزة تكون للأنبياء والكرامة تكون للأولياء.

ثم إن الأنبياء بمعجزاتهم يمتلكون صفة التحدي والمجابهة للمشركين و لكل من ينكر عليهم دعوتهم، أما الأولياء فإنهم لا يظهرون كراماتهم ولا يتحدون بها بل إنها تزيدهم التقوى وقوة الإيمان والورع، والأصل في الكرامة الإخفاء والكتمان يقول الشيخ أحمد الرفاعي :"إن الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرآة من الحيض." [20] وإذا ظهرت كراماتهم بين الناس وعرفوهم سموهم أهل الكشف.

ثم إن الأنبياء يختارهم الله ويكلفهم بدعوة أو رسالة ومعجزاتهم يعلمونها وينطقون بها، أما الأولياء فالله خصهم بها لأنفسهم حتى يزدادوا إيمانا مع إيمانهم وهم معرضون للفتنة باعتبارهم بشرا عاديين، أما الأنبياء فخصهم الله سبحانه وتعالى بالوحي والعصمة، فهم لا ينطقون عن الهوى، ولأن النبوة توقفت قوله عليه الصلاة و السلام:"لا نبي بعدي" فالولاية هي استمرار للنبوة في نفس البشر, والأولياء هم من عامة الناس بل إن في كثير من الأحوال تنسب الولاية لشخص عرفه الناس فاقدا للعقل ويؤكد ابن خلدون هذا القول " ومن هؤلاء المريدين المتصوفة قوم بهاليل* معتوهون هم أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية

---

19 أحمد بن فارس –مقاييس اللغة –ج171/2

20 سابق السيد –العقائد –ص 215

وأحوال الصديقين.[21] ويشترك الأنبياء والأولياء في أن لهم مدارك أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية. غير أن الصنف الأول حاصلة له بالفطرة، أما الثاني فهـي لـه بالهداية، ومما سبق ذكره نخلص إلى أن المعجزة والكرامة تتفقان في الفعل الخارق وبهذا يقول بن أبي العز :- "فالمعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين ولكن كثير من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي.[22] والملاحظ أن مفهـوم الكرامـة يتطـابق ويشترك مع معنى المعجزة غير أن الفرق يكمن في نسبة كل صنف لأهلـه. وقـد فصل في عرض الفروق بين المعجزة والكرامة ابن حزم في الملل والنحل.[23] ونجد في الرسالة للقشيري " ظهور الكرامات على الأوليـاء جـائز" وقولـه : " ظهـور الكرامات علامات صدق من ظهرت عليه في أحواله فمن لم يكن صـادقا فظهـور مثلها عليه لا يجوز".[24] ويؤكد ابن خلـدون صـحة وجـود الكرامـات بقولـه :- "وكرامات القوم أمر صحيح غير منكر وإنكارها نوع مكابرة."[25]و يذكر السراج في كتابه اللمع أن " الآيات لله والمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء ولخيار للمسلمين ".[26]

ونقل القشيري كلاما للإسفراييني نصه:" المعجزات دلالة صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي." كما ينسب له :" الأولياء لهم كرامـات شـبه إجابـة الدعاء."[27] فالإسفراييني يفرق بين النوعين فيخص الأنبيـاء بـالمعجزة، والأوليـاء بالكرامة، فالأنبياء يظهرون المعجزات دلالة على نبوتهم حجـة وبيانـا، والأوليـاء صفتهم وما يجعل الناس يلبسونهم ثوب الولاية هو ما يصدر عنهم من كرامات ومن

---

* بهاليل ج:بهلول والمعنى المشهور له هو المعتوه

21 ابن خلدون –تاريخ العلامة ج 165/5

22 ابن أبي العز الحنفي –شرح العقيدة الطحاوية ص494

23 أحمد بن حزم الطاهري –الملل والنحل ج3/5

24 القشيري –الرسالة –ص160

25 ابن خلدون –تاريخ العلامة ج168/5

26 الطوسي عبد الله علي – اللمع - تحقيق عماد البارودي – ص 157 – المكتبة التوفيقية – القاهرة ب.ت

27 القشيري الرسالة ص164

بينها إجابة الدعاء. ونجد الكثير ممن تناولوا هذا الموضوع يتصدر حـديثهم تقـديم المعجزة مما يجعلنا نقول أن المعجزة أصل والكرامة فرع, ويقول ابن خلدون في هذا الشأن "وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعـض المسـتقبل "[28] والإشارة عنده إلى تعريف المعجزة الذي جعله سابقا للكرامة إذ قـال :- " خـوارق مخصوصة كالصعود إلى السماء، والنفوذ إلى الأجسام وإحيـاء المـوتى، وتكلـيم الملائكة، والطيران في الهواء."[29] وما دمنا ذكرنا أن الخارق من خصائص الكرامة الذي تشترك فيه مع المعجزة نشير إلى ابن خلدون الذي يفصل بين خـارق النبـي وخارق الولي فيجعل الثاني دون الأول من حيث نوع وطبيعة الفعل. أما الجرجـاني فنجد تعريفه أكثر جلاء ووضوحا يقول :-" الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصـالح يكون استدراجا، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة."[30] و نجد الجرجاني يشترط في تعريفه للكرامة ضرورة وجود الإيمان المتصل بالعمل الصالح وإلاّ كـان الأمر استدراجا وسنعود للكلام عن الإستدراج بعد عرض موضوع الكرامـة يقـول الكلاباذي : " وأجمعوا على إثبات كرامات الأولياء وإن كانـت تـدخل فـي بـاب المعجزات كالمشي على الماء، وكلام البهائم وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته، وقد جاءت الأخبار بها وصحت الروايات ونطق بهـا التنزيـل."[31] ومما هو ظاهر هنا أن الكرامة تدخل مع المعجزة من حيث طبيعة الفعـل ونوعـه، فالأول يأخذ من الثاني التشابه في صفة الخارق. وقد ذكر القرءان الكريم في غيـر موضع الكثير من المعجزات لرسله وأنبيائه. كما أن الله ذكر في كتابه العزيز وفـي الأحاديث القدسية التي رواها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه يتولى أوليـاءه وعباده الصالحين في الدنيا والآخرة – يقـول تعـالى {لهم البشرى في الحياة الدنيا

28 ابن خلدون –تاريخ العلامة ج5/ ص 165
29 نفسه
30 الجرجاني –التعريفات 184
31 الكلاباذي –التعرف لمذهب أهل التصوف –ص 87-88
* سورة يونس الآية 64

والآخرة}* جاء في تفسير هذه الآية أن الله يتولاهم في الدنيا والآخرة وقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم من أولياء الله ؟ فقال: " هم الذين يذكر الله برؤيتهم."[32]

وجاء في أحاديث قدسية " إذا تقرب إلي عبدي ذراعا تقربت إليه باعا حتى أكون سمعه ويده ورجله ..." ويقصد التقرب بالطاعات والعبادات والمعرفة الباطنية لله ويصبح الولي في أرقى المراتب ويبلغ درجة حيث تحل فيه الذات الإلهية الربانية. بالإضافة إلى ما ذكرنا من نقاط التشابه بين المعجزة والكرامة نلاحظ أن النبي اصطفاه الله لتبليغ رسالة والولي خص بالكرامة، فمساحة الأول في الزمان والمكان والغاية والهدف أكبر بكثير من مساحة الثاني، وقد جاء الفعل " كرم " بتخفيف الراء أو تشديدها يعني العطاء والخير والتفضيل. نجد ذلك في قوله تعالى : {ولقد كرمنا بني آدم} "فضلناهم على كل المخلوقات ما عدا الملائكة."[33]

نخلص من كل هذا إلى أن الأولياء يعيدون تأسيس النبوة فتظهر لديهم الكرامة كاقتفاء ومحاكاة لطبيعة المعجزة، ولكن نشير هنا إلى أن المعتقدات الشعبية دخلت مجال الكرامة فهي ليست بمنأى عن ذلك، وكلنا يعرف ما تعرضت له السيرة النبوية وحياة الصحابة من الإسرائيليات، ومن الإضافات التي تستجيب لإشباع رغبة المخيال الشعبي، وهذا ما جعل الكرامة تنزاح عن ما هو معروف عنها في الثقافة "الرسمية", فالكرامة تستمد جذورها من الدين وتستقي مادتها من المعجزات ولكن سرعان ما تبتعد عن النسيج الديني وتلبس بالمعتقدات الشعبية وتتعرض للحذف والزيادة كلما تداولت وتناقلت, وتحاول الكرامة خلق فضاء نقي والتأسيس لمجتمع فاضل ويكون هنا العنصر الفاعل الولي هو المحور الأساسي والأتباع والمريد ون وأفراد المجتمع عامة هم الذين تتجسد فيم صورة التلقي ثم التجاوب لبناء مجتمع يستمد طاقته من الفضيلة وفي هذا ما يشبه صورة الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته. فالولي يحقق للناس ما يريدون، يفك ألغازهم ويجيبهم عن تساؤلاتهم من هنا نفهم الدوافع التي تحرك الذات العربية لإيجاد نماذج فوق بشرية (الولي) تعوض

---

32 الزمخشري –الكشاف –ج243/2

33 سورة الإسراء الآية 70 – الزمخشري –الكشاف ج458/2.

الوضع المتخلف وتقدم صورة أفضل للوضع البائس الذي تعيشه حتى لو كان ذلك في الحلم والخيال فقط كما يقول الباحث حكيم ميلود.[34] كما نجد تاريخ الفكر الإسـلامي يعتبر الكرامات من أهم القضايا التي أولاها البحث والدراسة وذلك نظرا لتعلقها بمبدأ النبوة والقدرة الإلهية كما يؤكد الأستاذ لؤي خليل.[35] وهكذا ونظرا لارتقاء الكرامـة إلى مبدأ المعجزة من حيث الغرابة والخيال نجد الصوفي يتحول إلى مـاص لأدوار النبوة ليرتفع بعد ذلك فيمتص قدرات الألوهية.

وخلاصة مفهوم الكرامة هوعدها جامعا يشمل كل ما يخالف سـنن المعقـول والطبيعة مما ينسب إلى العباد الصالحين وهذا يعني أنها تضـم حـوادث المعـراج والرقي إلى السماء مما ينسب ويتصل بالصالحين من عباد الله.

الكرامة وعلاقتها بالأنماط الثقافية الأخرى:

الخارق والاستدراج:

إن طبيعة الأفعال والسلوكات التي ترفع الصوفي فوق البشري، ويبـدو في تلك اللحظة أنه غير طبيعي نظرا لسمة بارزة تطبع الفعل الذي قام به وهي صفة الخارق.

مفهوم الخارق:

إن كل سلوك يخرج عن قدرة البشر ويفوق تصورهم فـي جملـة مـا تعارفوا عليه من نواميس وقوانين معهودة لديهم، إنه الفوق طبيعـي." فـي عـرف العلماء هو الأمر الذي يخرق بسبب ظهور العادة"[36]، إن إرادة البشر محدودة لـدى قويهم وضعيفهم، العالم منهم والجاهل، وكل من كان له قول أو فعل لم يعهده النـاس بينهم، أوفاق قدرتهم العقلية وطاقتهم الفكرية كان خارقا.يقول عبد المـنعم حنفـي: " الخارق للعادة هو الذي خرق نظام الطبيعة المعلوم ويطلق الخارق على ما يجـاوز قدرة الإنسان، لا على ما يجاوز نظام الطبيعة."[37]

---

[34] حكيم ميلود، الكرامة في تلمسان –مذكرة ماجستير ص 58
[35] أ.د لؤي خليل مجلة التراث لعربي ص 4
[36] التهانوي –كشف مصطلحات الفنون، ص61
[37] عبد المنعم حنفي –معجم المصطلحات الصوفية ص224

يبدو أن طاقة الإنسان، معلومة محدودة ضمن نظام الطبيعة، وأنه هو الذي يقوم بفعل يتفوق ويخرج به عن هذا النظام المعلوم يكون خارقا متجاوزا بني جنسه، نجـد أن الخارق يفسر حقيقة المعجزة والكرامة بطبيعتهما ساوكين متميزين كل واحد يكشـف عن قدرة وقوة فائقة لصاحبها يلغى فيها الزمن ويحدث القفز على المراحل المعهودة لطبيعة الحياة والمعجزة شرعا هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي.[38] كما يـذكر الباحث أحمد ويس أن هذا التعريف مما قام عليه الإتفاق، فـنحن نعلـم أن معجـزة ابراهيم عليه السلام كانت: إذ ألقي في النار فلم تحرقه، ولأنها معجزة فإننا لم نطلـع على السر الذي يجعل النار غير محرقة فذلك أمر إلهي. فطبيعة الإنسان أنه يملـك قدرة وطاقة معينة للتفسير والتحليل والمعرفة، ثم يصل إلى حد يجد فيه نفسه عاجزا فيرد الأمر لله الذي خلقه وخالق الكون وهو أعلم بنا وبه منا، ونجد تاريخ الإنسـانية حافلا بالمواقف والسير التي نقرأ ونسمع عنها ولكن لانجد لها تفسـيرا فنسـلم بهـا بمنطق إرجاع الأمر كله لله والأمثلة في القرآن كثيرة منها عصا موسى التي تحولت إلى أفعى والتهمت أفاعي السحرة وسفينة نوح عليـه السـلام التـي جـرت علـى اليابسة...إلخ

يقول الحنفي:"المعجزة في اللغة تهم كل خارق للعادة وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين."[39] كل الذين قدمنا لهم في بحثنا هذا يجمعون على أن لفـظ خارق صفة تجمع بين النوعين إلا أننا نجد السيد سابق لا يشترط صفة الخارق فـي الكرامة يقول " ليس من شرط الكرامة أن تكون خارقة ولا خارجـة عـن مـألوف الناس."[40] ثم نجد بعض الصفات التي تتصل بالكرامة أو هي مـن طبيعتهـا مثـل الإستقامة في السلوك والزيادة في العلم والعمل من الكرامات ومن ذلك مـا حـدث للسيدة مريم عليها السلام حيث حكى عنها القرآن :{كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء

---

[38] أحمد محمد ويس –الإنزياح في التراث النقدي ص32

[39] الحنفي –العقيدة الطحاوية ص494

[40] سابق السيد –العقائد ص214

بغير حساب}[41]، جاء في تفسير هذه الآية أنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء.[42] وقد جاء الخارق هنا بمعنى قوة الإيمان مما يجعل العبد قريب من ربه يسئله فيعطيه وقد جاء في الحديث القدسي : " عبدي كن ربانيا تقول للشيء كن فيكون". وكل ما يظهر من كرامات لعباد الله الصالحين هي خوارق حصلت لهم جزاء. يؤكد التهانوي ذلك قائلا: " تظهر الخوارق على الإنسان الذي يكون صالحا مرضيا عند الله.[43] هنا كان الخارق صفة نتيجة للإيمان كما يكون صفة ونتيجة للفجور والفسوق ويسمى حين ذاك استدراجا.

الإستدراج:

يعرفه التهانوي: " هو ظهور الخوارق على يد بعض من كان مردودا عن طاعة الله."[44] وهم العصاة الذين حادوا عن الطريق المستقيم. والفرق بين ماعرفناه من خوارق الأولياء والصالحين وبين من كان بعيدا عن الله هو أن الثاني يخادع نفسه ويغتر ويظن أنها كرامة جاءته لكونه أهلا لها، وتغمره الغبطة ويشعر بالسرور ويحتقر غيره ويظن أنه أحسن وأفضل من الجميع. ولكن الحقيقة هو موصوف بالإهانة والمذلة ووليه الشيطان يقربه من المعصية يزينها له ويكذب عليه حتى يقترفها. أما الأول فقد خصه الله بالكرامة لصفة الصلاح، فلا يستأنس بما تفضل الله عليه بالنعم بل تزيده قربا من الله ويصير خوفه منه أشد وحذره من قهره وبطشه أقوى.

وقد ذكر القرآن الكريم الذين يكذبون بآيات الله بأنه يستدرجهم إلىالمقصود درجة درجة قال تعالى:{والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا

---

41 آل عمران الآية 37

42 ابن كثير –التفسير م360/1

43 التهانوي-كشاف مصطلحات الفنون ص68

44 نفسه ص71

يعلمون}[45] وقوله:"ذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون[46]"

قال القرطبي : والاستدراج هو الأخذ بالتدريج درجة بعد درجة ومنزلة بعد منزلة والدرج لف الشيء يقال :أدرجه و درجه ومنه أدرج الميت في أكفانه.[47] قال الضحاك في معنى هاتين الآيتين : "كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة."[48] وقيل لذي النون ما أقصى ما يخدع به العبد ؟ فقال: بالألطاف والكرامات وكذلك قال سبحانه : {سنستدرجهم من حيث لا يعلمون } نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر. " إن العبد بهذه الصفة يعتقد في الكرامة نعمة بل هي نقمة عليه فيزداد في غيه وضلاله, ويتغير مدلول الإستدراج من آية لأخرى فهو بمعنى المكر في قوله تعالى {و مكروا ومكر الله }[49] وثالثها الكيد : {إن كيدي متين }[50] ورابعها الخدع : {يخادعون الله وهو خادعهم }[51] وخامسها الإملاء : {إنما نملي لهم ليزدادوا إثما}[52] وسادسها الإهلاك : {حتى إذا فرحوا أخذناهم بغتة }[53]." وكل هذه المعاني تفيد أن الله بالمرصاد لهؤلاء

الذين تسول لهم أنفسهم فلا يعرفون حقيقة ما حل بهم ولا يأخذون العبرة, فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وهذا من باب أنه يمهلهم ويمتعهم بالنعم والفضائل إلى حين.

وظيفة الكرامة في المجتمع :

كل مجتمع له خرافاته، كراماته يعيش معها ويتفاعل مع الآخرين يشكل علاقاته وفق منطق عقيدته، كما أن للبطل الصوفي في المجتمع دور بارز يمثل شيخ القرية، ولي القوم، الصالح النموذج في المجتمع، يرجع إليه الناس يطلبون فيعطيهم، ويسألون فيجيبهم، يقصدونه في السراء والضراء، في السلم والحرب، يجدون عنده

---

45 الأعراف /182
46 القلم /44
47 القرطبي –أحكام القرآن ص329
48 المرجع نفسه
49 آل عمران /54
50 الأعراف /183
51 النساء /142
52 آل عمران /178
53 الأنعام /44

الحل حينما تشتد بهم الأزمات يحسون أنهم في أمان معه، ينال عرفـانهم وتقـديرهم وولائهم، فيرفعونه في أعلى المراتب فيجلونه و يلبسونه ثوب الوقار،القداسـة،مرتبة القرب،من الله وقبول دعائه بالاستجابة الكاملة،له حضور قوي بين قومه شـاهدا أو غائبا ،حيا أو ميتا،فالعلاقة بينه وبينهم تمتد حتى بعد أن يتوسد الثرى،، يزورون قبره ويسألونه بإلحاح ،يطلبون منه العون حتى وإن تأكدوا بأنه قد مات فعلا وغاب عـن هذا العالم إلى الأبد، ولكن تظل روحه فيهم يسمعهم ويجيب، يقـول الـدكتور علـي زيعور : إن البطل في علاقاته الجدلية مع مجتمعه يتجاوز قوانين الطبيعة ويتحـدى العلية والسببية والموضوعية.[54]

إن البطل تتعدى وظيفته القوانين التي يتعارف عليها المجتمـع فيقفـز فوقهـا ويلغي نظام الزمن وعلاقة الاستنتاج وفق طبيعة الراحل، نجد الكرامة تدخل ضـمن المكسب الثقافي الاجتماعي وتثبيت نفسها داخل سجل التاريخ ، تحكم على الأحداث. تقرر وتفرض توجيهات معينة، فتختزل مسافة الرد وتعطي الانتصار لبطلها ويؤمن الناس بذلك حتى وإن قال لهم المؤرخون والمتتبعون للواقع غير هذا، كما نجـد أن الكرامة توجه سلوك الأفراد وتشحنهم بطاقة إيمانية تؤمن نسيجهم الاجتماعي وتقوي فيهم رابطة المرجعية إلى السلف الصالح والأجداد، وتجعل كرامات الولي سـيرته – أخباره، النموذج الأمثل الذي يحتذى به.

إن طبيعة تعامل الناس في قراءتهم واطلاعهم على سيرة الأنبيـاء والرسـل ومعرفة تاريخ الصحابة والفارق الزمني ما يجعلهم يبحثون عن الشخص الذي سمعوا عنه قريبا واحدا منهم أو من عشيرتهم كأن يكـون جـدهم الأول أو المريـد الـذي يستأنسون به لأنهم رأوا فيه شخصية الكمال حلت فيه ذات الإله فأصبح مثلا لـه أو نظيرا له كما يقول الدكتور علي زيعور: فالصوفي ممثل الله ومثلـه لأجلـه خلقـت الدنيا.[55]

---

54 علي زيعور –الكرامة ص:32

55 المرجع نفسه ص 32

كما أن الغاية الأساسية من الكرامة إثبات الولاية لصاحبها يقول القشـيري: " أظهر الله الكرامة حتى نعرف من كان صادقا." وكلما ذكرت للشخص كرامـات زاد قرب الناس منه وكان الاتصال والولاء، فنجدهم يرددون قصصه وأحاديثه يمجدونـه ويقدسون روحه، فنراهم يجسدون ذلك عبر طقوس موسمية أو يومية. يزورون قبره فيطلبون منه النصرة ورد الظلم، ويقيمون ولائم الطعام في حضرته يبغـون نـزول بركته بينهم.

كما تعتبر الكرامة ملاذا للمظلومين والمقهورين يرجعون إليها فيجـدوا فيهـا قـوة تنتصر على الشر وتسترد الحق المهضوم بعد أن فشلوا هم في الحصول عليه وتفرج عنهم ساحة الغبن وتخلق لهم انفراجا ومساحة للاطمئنان والاستقرار داخل أنفسـهم، تعبر عن الأماني والتطلعات، وتعوضهم عن الإنكسارات والهزائم، ترفع معنوياتهم، ترتقي بالنفس إلى أعلى المراتب والدرجات تسكنها في جو ملائكي وتبعـدها عـن الإنغماس في ملذات الدنيا وتقوى فيها الجانب الروحي.

الكرامة والرؤيا:

يحاكي الصوفي أو الولي في كراماته محاكاة الأحلام والرؤى، سواء كانت في المنام أو رؤية اليقظة. الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، وعادة ما تكـون الرؤيـا حسنة تحمل فلول التفاؤل والبشرى ومنها ما يكون كفلق الصبح، عكس الحلم الـذي ينبني على أساس. والرؤيا الصادقة درجة من درجات النبوة، وهي طريقة معرفـة واتصال بالغيب، ومن القرآن ما كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وهـو نائم في شكل رؤية صادقة، فكان يشكل ذلك فرصة لاسـتقبال التعـاليم السـماوية وتأمين للتواصل بين الأرض والسماء. تظهر الرؤيا معطيات وظروف محزنة فـي عمق لا شعور الولي ويحدث لها ترجمة وإخراج عن طريق الرؤية في منام الـولي كما يقول الباحث ميلود حكيم.[56]

وتشترك الكرامة مع الرؤية في صفات منها أن كلتيهما تقفـز فـوق الواقـع والطبيعي. والتطابق مع الواقع كليا ليس شرطا أساسيا فيهما، كما تشتركان في إلغاء

---

[56] ميلود حكيم –الكرامة الصوفية في تلمسان- مذكرة ماجستير ص 161

عنصر الزمان والمكان فالمسافة الزمنية في واقعنا ليست هي نفسها في الرؤيا والكرامة كما أن الأماكن يتغير فيها ويتشكل فيهما بصورة خاصة. وقد يكون المكان نفسه الذي نعيش فيه في الواقع ولكن فيهما يحدث عليه تغييرات كثيرة ولو كان البيت الذي نسكنه. كما تتفقان في عدم التسلسل المنطقي للأحداث، فاليوم هنا ليس هو اليوم هناك والبر هنا في الواقع الحقيقي قد نجد بحرا يحيطه الموج من كل جانب في الرؤيا والكرامة مع ملاحظة تغير الصور والأشكال. فالبشر الذين تعرفهم قد تتغير صورهم وأشكالهم فتعرف لهم شكلا آخر في الرؤيا، كما أن الولي في الكرامة قد يخرج عن الشكل والصورة المعهودة لديه فيتحول إلى طائر ويلتقي بأشخاص آخرين لا نعرفهم هم ليس من واقعنا أو قد يكونوا ماتوا منذ زمن بعيد وهو نفس الحدث في الرؤيا حيث يدخل النائم في عالم غير عالمنا صوره وأشكاله وزمنه ومنطقه يختلف عنا كليا. كما تشتركان في " لغة الرمز والإيحاء وهي لغة تعبير عن المشاعر والخبرات والأفكار كما لو كانت أحداث نعيشها في عالمنا الواقعي الحقيقي."[57] كما تتشابهان من حيث الهدف والوظيفة وكلتاهما تفصح عن أواليات لا واعية تحمي الذات، حيث نجد حقل اللاوعي ومساحة اللا شعور وغياب الفعل الإرادي هي المحيط الذي يتشكل من هذه العناصر ويوسم بهذه الصفات لهذين الجنسين، وهنا يكشف " اللاوعي عن الطبقات التحتية للمشكلات الشخصية ويطلعنا عن همومها المستقبلية واسقاطاتها المختلفة ويطل على مخزن التجارب البشرية الأولى أو الأنماط الأساسية في اللاوعي الجماعي "[58] كما يقول علي زيعور.كما أنهما تشتغلان بنفس الآليات فإذا كان الحلم بتعبير فرويد " بديلا لشيء يجهله الحالم."[59] فإن مهمة تأويل الأحلام " هي اكتشاف هذا اللاشعور."[60] هنا تختلف الكرامة عن الحلم اختلافا طفيفا فالولي في أحيان كثيرة يكون في كامل وعيه يدرك ما يقع له, كما أن كل حلم تنتابه رغبة تصبو لأن تتحقق، ولكن ما يجعل الحلم

[57] ايريك فروم-اللغة المنسية- نقلا عن حكيم ملود –ارجع السابق ص161
[58] علي زيعور – الكرامة و الأسطورة والحلم- ص27
[59] فريد –نظرية الأحلام - نقلا عن حكيم ملود –ارجع السابق ص162
[60] المرجع نفسه163

يظهر أحيانا غامضا متقطعا غير مفهوم يحمل في ثناياه سلسلة أحداث تفقد الكثير من الحلقات في بدايتها وسطها و نهايتها والكرامة أيضا هو" غياب عنصر آلية رقابة الحلم التي تفرض على الفكرة الحقيقية تلميحا وتحويرا."[61] و هنا يكون عمل الحلم في تلك "الفجوة القائمة بين عناصر الأحلام وركائزها التي تتمثل في علاقة الجزء بالكل، المقاربة أو التلميح، العلاقة الرمزية، التمثيل اللفظي التشكيلي."[62] ويتم عمل الكرامة والحلم بواسطة عملية تسمى التكثيف.

ويتم التكثيف في الحلم إما:

- بحذف العناصر الكامنة برمتها
- وإما أن لا تبدو في الحلم الظاهر إلا نتف من بعض المجموعات التي يتألف منها الحلم الكامن.
- وإما أن تظهر العناصر الكامنة ذات السمات المشتركة مع بعضها في الحلم الظاهر.[63]

عبر هذا النسيج المشترك من الصفات التي تشترك فيها الكرامة مع الرؤيا في المواصفات والأهداف والآليات، وفي اللغة والإيحاء التي تحيل على غنى نفسي وعلى لا شعور مسكون بالرغبات التي تريد التحقق، مع أن تفسير وتحليل رموز ودلالات الأحلام والرؤى هي نفسها طريقة تحليل الكرامات مما يجعلنا أمام تساؤل مفاده هل الكرامة هي مجرد رؤيا أو حلم يحمل أبعادا غامضة واستفهامات هي خلاصة لتجارب الولي مع محيطه.

بالإضافة إلى ما أدركنا وعرفنا من التقاطع والتلاقي بين الكرامة والرؤيا نشير إلى أن وقت كل منهما يختلف، فإذا كانت الرؤيا لا تتم إلا في غياب صاحبها عن عالمنا الواقعي الشعوري الإدراكي المحسوس فإن الولي، زمن و حالة تختلف عن

---

61 نفسه

62 مرجع سبق ذكره ص163

63 المرجع نفسه

عالم الرؤيا يسميها محمد مفتاح "حالة عدم السواء وتكون فرط الجوع أو من شـدة العطش والحرارة أو توهم الحواس، أو وسواس الشيطان."[64]

إن الحالة النفسية لها السبق في جعل الصوفي يغرق في الخارق الذي يخلـق جو العجيب في الحدث، وهي عناصر تجعل من الولي يعيش حالة تؤهله لإيصـال خطابه ومنحه سلطة الانتشار داخل مجتمع له الاستعداد للتقبل والتفاعل والتجـاوب معه، "وهنا يحدث الانسجام بين الخارق للعادة والممكن لبناء حكايات تهـدف إلـى الأمثوله لمقاومة صعوبات حياة مليئة بالخوف."[65] هذا ما يجعل للغة الكرامة بنياتها الرمزية حيث يكون الفضاء الزماني والمكاني، والكائنات التي تتحرك داخل هـذين الفضائين ذات دلالات أسطورية.

الكرامة والسحر:-

ترتكز الكرامة في جانبها الأكثر تجذرا في الذات الإنسانية على أنهـا أنمـاط تبدو غارقة في القدم، ومنها السحر كنموذج وسلوك قديم جدا.إنه أقرب إلى طبيعـة الألغاز المقفلة التي تشكل رموزا لا منطوقة، يقف الإنسان دونها في حيـرة يؤكـد علي زيعور هذه العلاقة ويقدمها بتحليل مفصل."فلقد حوت الكرامات وحملت ونقلت إلى جانب الرموز معاني السلوكات الخرافيـة والأسـاطير والمعتقـدات الشـعبية والبطولات."[66]

عند تأملنا لهذا القول يتأكد لنا أن الكرامة تجمع في معناها بين الواقع العقلاني والخيالي اللاعقلاني، التاريخي والأسطوري، كما نجد أن "هذه الأجناس ما زالـت مستمرة داخل الطبقات التحتية والبنيات اللاشعورية للإنسان تغير أقنعتها في لعبـة التحولات والإنفتاحات على المعني اللانهائي المتضمن للغز الإنسان المعلـق بـين هاوتيين هما الفناء والأبدية.[67]

---

64 مفتاح محمد –دينامية النص-ص141
65 مفتاح محمد –مرجع سبق ذكره ص141
66 علي زيعور-الكرامة والأسطورة ص21
67 ميلود حكيم –الكرامة الصوفية.ص53

لهذا إذا أردنا الكشف عن طبيعة هذه الأنواع (السحر) لابد من التزود بمعارف ضرورية لولوج السر الغامض الذي يكتنف فضاء الكرامة المشحون بمظاهر السحر، يذكر الأستاذ توفيق فهد: "أن كرامات الأولياء متموقعة بين السحر والشعوذة."[68] إن طبيعة الكرامة عند الولي تتشابه ووظيفة الساحر من حيث أن كليهما يهدف إلى إبراز القوة والتحكم والسيطرة والاستحواذ على العقول، وإذا كانت الكرامة تأخذ من المعجزة صفة الخارق، فالولي بطبعه ينزع إلى سلوك النبي وكرامته لا تستقر مادتها من المعجزة فحسب بل تمتد إلى مجال يتسع ليشمل مظاهر أخرى عرفها الإنسان في تاريخية التعامل مع القدسي مثل السحر والأسطورة، إن طبيعة تعرضنا لهذه الأشكال الثلاثة – السحري- الأسطوري- الديني- هو تشابهها في طرحها لقضايا تخاطب العقل من زاوية الغائب اللامرئي الذي يطرح تساؤلات واستفهامات كثيرا ما تجد حيرة في النفس من حيث غوصها العميق في اللاممكن – اللامنطقي- اللامتصور-

تعريف السحر :-

يعتبر السحر الذي ظل يمارسه الإنسان منذ القديم وذلك من أجل إيجاد حلول لمسائل ظلت مقفلة لم تجد لها جواب في منطق البشر الطبيعي الواقعي حيث يلجأ الساحر إلى "التعزيم الذي يوجب على الجن الأبالسة متعددي الأشكال تحقيق نواياه"[69] المتجلى هنا أن السحر لا يجد قوته إلا في اللجوء إلى قوى الشر وذلك للوصول إلى مآربه.

ويقدم ابن خلدون تعريفا يجمع ثلاثة أنواع لها علاقة فيما بينها وهي مراتب أولها "التأثير بالهمة من غير معين وهذا هو السحر، والثاني يكون بالمزاج الأفلاك والعناصر وخواص الأعداد ويسمى الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول، والثالث يعمد إلى التأثير في المخيلة فيصور لها أشياء ينزل بها إلى الحس فيبدو كأنها حقيقة وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا الشعوذة."[70] وهي كلها أنواع بحسب أخذ ما

---

[68] توفيق فهد – العجيب والغريب ص 106

[69] المرجع نفسه ص 111

[70] ابن خلدون –تاري العلامة- ص:926

فيها من خلاصة توصف باللامنطق واللا واقعي في تصوير الأشياء حيث لا حقيقة لها في الوجود وقد لجأ إليها الإنسان للبحث عن السيطرة على هذه القوة ليسـخرها ويجعلها في خدمته سواء في مواجهة أخطار الطبيعة أو مجابهة الأعداء مـن بنـي جنسه وبالرجوع لتعريف السحر عند ابن خادون نلاحظ ارتباطه بالنفس التي تمتلك قوة وقدرات يمكن أن تؤثر في عناصر الحياة وطبيعة الأفعال، كما أن هذا التأثير قد يكون بطابع ذاتي وقد يكون بإيعاز من قوى أخرى وهو بذلك ينتهـي إلـى تقسـي النفوس إلى ثلاثة أقسام وقد سيق ذكره، ثم يعود ليعـرف بـالفرق بـين السـحر والطلسمات يقول أن السحر اتحاد روح بروح والطلسـم اتحـاد روح بجسـم ."[71]
نستنتج أن كل هذه الأنواع وجدت قديما لعلة رغبة الإنسان في الـتحكم والسـيطرة على مواد الكون حتى تصبح تحت سلطانه. كما أن هذه الأقسام كلهـا تـدور فـي الإنسان وفي جنسه من البشر.

الكرامة و السحر:-

يلتقي الولي بالساحر في أن كل واحد يريد التفوق والسـيطرة والـتحكم فـي عناصر الحياة، كما أن طبيعة فعلهما وعملهما تمتلك صفة الخارق العجيـب بقـوة حيث تخطي عنصر الزمان والمكان، وظاهر الأسباب والعلل في حـدوث الأفعـال ولكن ثمة فروق بينهما من حيث أن الكرامة تنطلق من قوة الإيمان والتحالف مع الله لنفع الناس وتخليصهم وإنقاذهم، فهي ترمي للوصول إلى غايات الخير، أما السـحر فينطلق من قوى خبيثة ويتحالف الساحر مع الشيطان ليضر الناس فهو يهدف إلـى جعلهم يعيشون بعقد وأزمات ووساوس. ولتجانس المعجزة مع الكرامة يبـدأ ابـن خلدون بتحديد مفهوم الفرق بين المعجزة والسحر يقول "الفرق عندهم بين المعجـزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشـياطين فبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الأمر."[72] فهو يقـدم الفـرق

71 المرجع السابق ص:931
72 ابن خلدون –تاريخ العلامة- ص 931

على أساسين:- أولهما أن المعجزة لها مدد إلهي رباني، في حين يعتمد الساحر على قواه النفسية والشياطين، ثانيها أن نوايا الساحر كلها شر فهو يهـدف إلـى إيصـال الضرر إلى الغير، بعكس المعجزة فصاحبها نواياه خيـر والسـحر يـوهم النـاس ويخدعهم ويخادعهم، وفي الكثير يبطل عمله.

وبما أن الكرامة من جنس طبيعة المعجزة فالفرق نفسه ينطبق عليها، يقول ابن خلدون :" هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء من جنس يوجـد لـبعض المتصـوفة وأصحاب الكرامات وليس معدودا من جنس السحر وإنما هو بالإمداد الإلهي:"[73] إن علاقة الولي هنا ترتبط دائما بالخيط السماوي، وقد يخطئ وينحرف وهـذه ليسـت قاعدة فهو يعمل لرفع نفسه لتحل في الذات الإلهية وهذا في حد ذاته غلو يخرج عن الطبع البشري، كما أن الساحر ليس من طبيعته دائما الضرر بالآخرين، بل يهـدف إلى النفع وإخراج التائهين من الأزمات وتفريج الكرب وإزالة الهم والغم، إن بـين الكرامة والسحر تقاطعات وتلاق في طبيعتها ولكن يختلفان مـن حيـث الوظيفـة والأهداف فلكل جنس أهله وغاياته.

1-3-الكرامة والأسطورة:

الأسطورة ج أسطار- "ما سـطره المتقـدمون مـن نحـو أحاديـث رسـتم وأسفنيار."[74] كما جاء في تعريفها حكاية الأزمنة الخرافية وهي وهمية تصويرلعالم المانا (MANA) في المفهوم البولينيزي أي عالم القوة الخارقة للعادة.[75] من هنـا نعرف أن الأسطورة قديمة تضرب بجذورها في أعماق الماضي البعيد منـذ بدايـة الإنسانية والكرامة عريقة تعبر عن بقاء الإنسان الذي يعيش في باطن لاوعيه.[76]

تعرف الأسطورة من حيث الأحداث التي ترويها جدلا كبيرا حيث يطرح التسـاؤل هل هي واقعية أم لها أن تحاق وتبقى في الخيال منطقية أولا منطقية، وانطلاقا مـن طرح وتقديم هذه الجدلية تقول: إن الدراسات التي تناولت تحليـل ودراسـة الفكـر

---

73 ابن خلدون –تاريخ العلامة- ص931

74 الزمخشري –الكشاف ج392/3 قال تعالى " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا." الفرقان (5)

75 مصطفى الجوزو –الأساطير والخرافات ص:9

76 علي زيعور –الكرامة ولأطورة والحلم ص:73

الأسطوري حققت نتائج وتطورات مهمة. ويرجع الطاهر وعزيـز حقيقـة نشـأة الأسطورة إلى عجز الفكر عن التعبير المجرد فقد لجأ الأولون كثيرا إلـى التعبيـر المجازي فهم يقولون "إن الشمس تحب وتعانق الفجر بدل أن يقولوا إن الشمس تتبع الفجر."[77] وبحسب هذا الرأي فإن الأسطورة لا وجود لها إلا في ضـفاف التعبيـر على سبيل المجاز المقصود. ويـذهب ليفـي سـتروس فـي رؤيتـه للأسـاطير فيقول:"الأسطورة شبه حلم جماعي يلزم تأويله وفك رموزه(...)[78] جلي واضح أن الأسطورة هي مغلق مقفل أو تحمل ما يبعث على البحث والتساؤل ويشترط ليفـي ستروس لفهم الأسطورة معرفة مجموعة المصطلحات الخاصـة بتحويـل رسـائل مجموع الأساطير أو بعضها في مستوى معـين، ويصـطلح علـى تسـمية هـذه المصطلحات بالراموز، ولكن ليس بالضرورة فهم كل عناصر الأسطورة فلابـد أن تكون باعثة في كلياتها أو جزئياتها على التساؤل حول عناصر لا نجد لها الجـواب أو تجعلنا نختار في منطلقاتها إذ يرى ليفي ستروس "أننا لا نستطيع تفسير كل شيء وإلا توقف البحث (...)"[79] إن من خصائص الأسطورة التي تميزها عن غيرها هي وجود الآلهة تعرفها نبيلة ابراهيم [...] فأصبحت تعني الحكاية التي تختص بالآلهة وأفعالها ." [80] وبهذا نميزها عن الحكايات الأخرى والخرافة.إن وجود الإنسان أمام نقاط غامضة كثيرة في الكون هو ما جعله يتساءل عن الموت، البعث... الخ وهـذا فحوى ما ذهب إليه طلال حرب "إن الإنسان كان يقف عاجزا أمام جبروت الطبيعة (...)"[81] في مجال الفكر الإسلامي تعتبر الأسطورة ضربا مـن الـوهم والكـذب والباطل بينما نجد مفكرين طالبوا بضرورة تفعيل العقل للنظر في هـذه المفـاهيم، ويعتبر محمد أركون الذي قدم بحوثا كثيرة في مجال الفكر والفلسفة يؤاخذ العـرب لموقفهم السلبي اتجاه هذه المفاهيم التي لايمكن للإنسانية في تاريخها القديم والحديث أن تستقل عنها يقول :"إن فكر المسلمين بقـي فتـرة طويلـة يوصـف بـالجمود

1 الطاهر وعزيز بنيوية كلود ليفي ستروس ص 145
78 المرجع نفسه ص 147
79 نفسه
80 د.نبيلة ابراهيم نقلا عن طلال حرب –أولية النص ص92.
81 المرجع السابق ص 93

والإنغلاقية(...)"[82] وهذا ما يفسر بوقوف المسلمين من هذه القضايا موقف الـرفض للتفكير فيها ومناقشتها وهو موقف سلبي حرم المسلمين من سعة الخيـال وضـيق لديهم مساحة الفكر كما يؤكـد محمـد أركـون "إن العـرب إذا ترجمـوا الكلمـة الأجنبية(Mythe) بالأسطورة قد منعوا أنفسهم من التفكير بهذا المصطلح ووظائفـه التي لا تعوض لبناء المتخيل الديني."[83]

نلاحظ أن مفهوم الأسطورة يتغير بحسب الحقل الذي يسـتعمل فيـه، إذ فـي الإسلام ينسب إلى الحكايات الخيالية والخرافات القديمة التي لا تمت إلـى الحقيقـة بصلة ". ويرى لفي ستروس "أن الدراسات السابقة كانت تنظر إلى الأساطير وكأنها من باطل اللهو" (...)[84] ويقدم عرضا للنظريات والمدارس التـي تناولـت دراسـة الأساطير ويخاص إلى أن "الأسطورة تتعلق بوقائع حدثت قبل خلق العالم وخلال العهود الأولى في قديم الزمان." [85] كما يعتبر كل التأويلات المتعلقة بالأساطير خاطئة وتبريـره في ذلك هو:"أنها تقرر للأسطورة معنى مع أن خاصة الأسطورة أن تحيلنا على أسطورة أخرى(...)"[86] من هنا وجب تفسير الأساطير بإدراك القانون الـذي يحكـم بنيتهـا دون فصلها عن بعضها البعض، وتفسير الأسطورة لا يعني إدراك ظاهرها بل يجب البحـث في أعماقها وأبعادها يذهب ليفي ستروس "أن ما للأساطير من معنى ظاهر، يوجد وراءه معنى يحجبه عنا راموز"[87] أي مجموعة من المصطلحات الخاصة، كما يمكن اعتبـاره نسق مفاهيمي يسمح بتحويل الرسائل بعضها إلى بعض، ونصل إلى أن هناك إشـارات وسمات وملامح تحكم طبيعة الأساطير لابد من معرفتها وفك رموزها، عند محاولة فهم الأسطورة هذه السمات والملامح مشتركة في طبيعتها بين كل الأساطير. وملخـص رأي ليفي ستروس في الأساطير يعتبر على غرار فرويد أن الأسطورة شبه حلم جماعي يلزم تأويله وفك رموزه، لكي نصل إلى معناه الخفي، وإذا ما بدت لنا الأساطير غير معقولـة

82 محمد أركون - معارف من أجل الأنسنة – ت هاشم صالح ص 38
83 محمد أركون – الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد- ت هاشم صالح ص208
84 الطاهر وعزيز بنيوية كلود ليفي ستروس – ص 99
85 المرجع نفسه –ص 101
86 نفسه
87 نفسه ص 145

فإن هناك منطقا خفيا ينظم العلاقات بين كل هذه الأشياء غير المعقولة(...)[88] ونخلـص إلى القول مما سبق إلى أنه لا يجوز أخذ الأساطير وتفسيرها مستقلة كل واحدة بمفردهـا بل علينا البحث فيها بإدراك العلاقات التي تشد نسيجها مجملة وإقامة الصلة بـين عـدة مستويات من التفسير، مع معرفة الأنساق التي تشكل مجموعة مـن التحـولات داخـل الأساطير فيما بينها، بالإضافة إلى هذا، إذا أردنا تفسير مجوعة من الأساطير لا يجـب أخذها بمفردها بل قياسا إلى مجموعة أخرى، فالأساطير تشكل شبكة علاقات فيما بينها .

نظرة أركون للفكر الأسطوري

تناول أركون الفكر الإسلامي في مختلف مراحله بحثا ودراسـة وتحلـيلا بهـدف التنقيب والمعرفة المعمقة للحقل الأسطوري، بغية إثراء وإغناء المتخيـل لـدى المسـلم وتقوية إيمانه بما يوسع نظرته ورؤيته الثقافية التي تدعم مرتكزاته العقائدية، فهو يدعونا لقراءة العلاقة التي تتجاوزنا في ربط الأسطوري بالمقدس، والخارق بالعجيب المـدهش، وهو ملخص ما يذهب إليه "إن المعنى المعاش في الشعائر يتبعثر ويتبدد في التـأويلات والتفاسير، وإذا كنا ملزمين للعثور عليه من جديد، فإن ذلك بسبب أنه في حالـة ضـياع دائم، وأنه يبحث عن حقيقة تجليه في مستقبل الأمل أكثر مما يبحث عنها في مرتكـزات ماضية(..)"[89] يجمع أركون بين الخارق والعجيب والأسطوري في بنية كلية وليس هـذا إلا تجليا للعقل العلوي(الغيب) والمعنى الديني يجب أن نبحث عنه في حركته التاريخيـة حيث ينتج معناه بالاحتكاك مع الواقع في صيرورته لا في ماضيه.

يصل أركون إلى نتيجة وهي أن الأسطورة مفهوم يؤكد وجوده في كل الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها ولكنها تتعرض لتحولات دائمة، وأن الذي يحافظ علـى البنيـة الكلية لدينامية التوازن هو الأساطير المشبعة بالاقتضاءات العقلية، وذلك بتأمين التبريـر الفوري لمبادرات كل وعي (...)[90]، فالبناء الأسطوري لا يميز نسيج الشعوب القديمـة البدائية فحسب بل هو حاضر في كل مراحل التطور البشري، حتى في عصرنا الحديث، وهذه الأساطير التي ينتجها المجتمع كفيلة بالإجابة عن حاجات تواجهـه فـي احتكاكـه بالواقع. إن المجتمع الإسلامي له تصوراته ونظرته الخاصة للأسـاطير وفـق عقيدتـه

88 الطاهر وعزيز بنيوية كلود ليفي ستروس – مرجع سبق ذكره ص147
89 محمد أركون نقد واجتهاد ترجمة هاشم صالح ص 263
90 نفسه

ومنطلقاته، والتاريخ يذكر أن الإسلام احتفظ بالكثير من أخبار وشعائر وطقوس الشعوب القديمة، وحكى عن قصص الأقوام السابقين مع أنبيائهم ورسلهم، فقد ذكر أخبـار عـاد وثمود، وقوم تبع...الخ. ثم إن الشعائر التي يمارسها المسلم تعبدا وطاعة لله، كـان لهـا صورة وإن لم تكن تماثلها وتشابهها في الإسلام، فقد كان القدماء يحجـون ويصـومون ويصلون وإن لم يكن وفقا للقواعد التي سنها دين الإسلام. إن الشعوب الأولى ارتبطـت بأنماط حياة شكلات ثقافة قصصها وأساطيرها ونظرتها للحياة، وبهذه النظرة التقابلية نقول إن القرآن هو "خطاب ذو بنية أسطورية ولكن معنى الأسطورة يقابل بكلمة قصص فـي القرآن وليس بمعناها الشائع الحكايات والخرافات العارية من الحقيقة." [91]

يشير أركون إلى أن هناك "نصوصا أخرى تعيش داخل الخطاب الإسـلامي. كمـا ينبه إلى التناصات ومواقع التلاقي والتقاطع بين القرآن والكتب السـماوية السـابقة "[92] لذلك فإنه ضمن النظام الكلي للإسلام "يختفي خطاب صامت، يعيش حالة اللامفكر فيـه، وينتفض في الممارسات الدينية التي تنقل الدين من تجريديته إلى الفعل الواقعي..." [93]

ومعنى هذا أن مفاهيم كثيرة نعيشها داخلنا عبر تساؤلات ومحاورة ذاتية تؤكد ربط واقعنا وحاضرنا بمفاهيم تضرب بجذورها في القدم البعيد، وبهذا يبين أركون كيـف أن القرآن عرض للحديث عن الأساطير مفرغا إياها من محتواها القديم، وبذلك يتجلى مفهوم المتخيل في مقاربة الخطاب الديني. "فالأسطورة تحفز على التفكير عن طريق تلخـيص التجربة التاريخية لمجموعة بشرية ما، بواسطة التعابير والصيغ الرمزية والأمثال والحكم والأساليب السردية القصصية." [94] يشير أركون إلى أن الخطاب الصوفي يعطي مساحة أوسع للرمزي الأسطوري في الخطاب الديني التأسيسي ثم يطوره ويستثمره. (ويقصـد بالخطاب الديني التأسيسي هنا القرآن بالنسبة للصوفية). ينتهي بنا القول إلى أن الصوفي يبني قراءته على مرجعية وبذلك تعتبر هذه القراءة خاصة تعتمد فهم الدين تجربة فردية وامتحان وارتقاء باتجاه الأقصى إلى غاية التوحد.

---

91 محمد أركون -الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد ترجمة هاشم صالح ص 269
92 نفسه
93 نفسه
94 نفسه ص 240

كما أن محمد أركون يشير إلى طبيعية "المزدوجة " ظاهر وباطن فهي "تمثل في الإسلام نوعا من الاستمرارية الخاصة لذلك الصراع القديم عند الفكر اليوناني بين الأسطورة والعقل المنطقي-المركزي- أي الصراع بين أفلاطون وأرسطو، كما أن هذه المزدوجة ذات منشأ لغوي، لأنه لكل نص معنى حرفي ظاهري وآخرمجازي باطني، أو حسب العالم الأمريكي تشومسكي "بنية سطحية وبنية عميقة."[95] إن العالم ظاهر وباطن والمعرفة عقل وقلب ،فالعقل يؤخذ بظواهر الأشياء، والقلب مأخوذ باللب والجوهر،إن هذه المعرفة الأصيلة تستعيد النمط النبوي وتعود إليه،لأنها اللحظة المؤسسة التي تحقق فيها الحضور الإلهي لتحويل التاريخ وإضفاء القداسة عليه ،إن هذه العودة تبقي على طاقات الأمة وتماسكها وهي تستمد كل ذلك من الصفة الأسطورية إلى زمن يفوق كل الأزمان وحدث يتجاوز كل الأحداث فصدت بذلك الزمن والحدث اللذين يقسمان الزمكان إلى مقدس/دنيوي،قبل/بعد. إن الأمة المثالية تنظر إلى اللحظة التأسيسية نظرة الكمال،لهذا تؤسطرها وتحاول دائما استعادتها باعتبارها دائما النموذج الأعلى ، فالفكر الأسطوري الذي هو تحليلي وتركيبي في الآن ذاته والذي يرجع دائما إلى الوراء نحو زمن مضى (ممحى ومنسى)، لكنه حي دائما، هذا الفكر الأسطوري لايمكن أن يبدو إلا فكرا لا زمنيا. وقد اهتم محمد عجينة بأساطير العرب القديمة في الجاهلية فجمع منها الكثير ودرسها محاولا الكشف عن دلالتها في الحقل الثقافي العربي الإسلامي و تتبع أصولها من خلال ربطها بشبيهاتها في مختلف الثقافات(...)[96] .

خلاصة المبحث:

لايمكن الاستغناء في واقعنا عن تلك المفاهيم التي عبرت عن حاجات الإنسان القديم وكشفت عن حياته ووجوده وعلاقته بالكون بالحيوان والنبات والجماد وكيف أسس لعلاقته بين جنسه حيث الرغبة في الاتصال لنقص أو بناء علاقة من أجل استمرارية الحياة و تأكيد الوجود. ومن هنا يعود الاعتبار لهذه الأجناس التي عرفت قديما وأسست لوجودها في الخارق والعجيب والمدهش وذلك كمتخيل يجسد علاقة القدسي بالدنيوي في تجليه داخل القصص الديني كما تلقته المخيلة الشعبية. فالخطاب

95 المرجع السابق ص 241

96 وحيد السعفي – العجيب والغريب في التفسير ص 36

الديني هو خطاب يمتص البعد الأسطوري فالمجتمعات تتلقاه ثم لا يبق لديها صافيا مجردا، بل يطبع بالتصورات والمعتقدات القديمة وتكون الأسطورة بكل مظاهرها وخصائصها حاضرة في الخطاب الديني للتدليل بها ولتكون حجة قصد إقناع المتلقي، ومن هنا يمتزج في أن واحد الديني الذي يمثل التأمل والتسليم الصادق به مع الأسطوري الذي تميل حالة التخيل التائه في البعيد العميق ، يمتزجان في لحظة التماس واحدة ليلتقي الفضاءان لتشكيل المتخيل.

علاقة الكرامة بالأسطورة :

إن طبيعة الأجناس المتجاورة تأخذ من بعضها البعض وتتعارف وتعرف، الملاحظ أن بين الكرامة والأسطورة نقاط تلاق وتقاطع كثيرة فنجدهما تشتركان في أنهما تضربان بجذورهما في القدم وتتفقان في عنصرالمحاكاة، كما أن الكرامة تعيد وظائف الأسطورة وتشتركان في اللغة الرمزية وترتبطان بالبنية اللاشعورية وتخفيان وراء معقوليتهما بناء منطقيا يمكن ملاحظته. وتطبعان بالانتشارالواسع في كل المجتمعات باختلاف ثقافاتهما وعقيدتهما، ويغلب عليهما طابع الشمولية في مناحي ومراحل التاريخ البشري. يمثل كل جنس امتداد لنقطة التواصل بين القدسي والدنيوي، وكلتاهما تتعامل بمواصفات الخارق وتحمل في ثناياها عنصر التاريخي واللاتاريخي –المنطقي واللامنطقي كما أن تداولهما وطبيعة تواصلهما عبر زمن الأجيال ضمن وسيلة مشتركة واحدة وهي الطابع الشفوي، أما من حيث الموضوع فإن الأسطورة تجسد مغامرات وحكاية فئة معينة إلا أن الكرامة تأخذ مساحة أكبر منها. يشير إلى ذلك علي زيعور "اختصت بكونها أساطير طائفة معينة."[97] يضاف إلى كل هذا أن بعض الأساطير كانت موغلة في الدين فجاءت تحمل حكايات طابع رجال الدين وتسمى الأسطورة المتدينة."[98]وهي أسطورة كابد أصحابها من أجل تحقيق فهم معين للدين وهو صراع الإنسان بين ذاته وواقعه. إن الكرامة والأسطورة تصولان وتجولان في حقل واحد وتستمدان مادتهما الوظيفية من الإنسان والحيوان والنبات والجماد، فكثيرا ما نسمع عن العصا العجيبة للولي والتي ينفذ بها في كل شيء وتصبح أداة مسخرة له بها تطوى أمامه

97 علي زيعور – الكرامة والأسطورة و الحلم ص 58
98 المرجع السابق

المسافات،وينتصر بها على الأعداء وييسر له كل عسير، والسجاد الـذي يصـلي عليـه سرعان ما يتحول إلى بساط طائر، ينقله في ظرف قياسي إلى أماكن عديدة ويعـود بـه وقت ماشاء، والخاتم السحري، وعصا موسى عليه السلام تظهر مجالات وأشكال التناص في إعادة مدلولها عند الولي لوظائف عديدة يتجلى بها العجيب الذي يحمل كثيـرا مـن دلالات الحلول والإشارة. وتوظيف الكرامة لمادة النبات في كثير مـن جوانبهـا تحمـل نماذج وصور متعددة، الشجرة المقدسة التي يستظل بها الناس وتنـزل علـيهم بركـات وكرامات بإذن ربها، والحشيش الذي ينصح بالأكل منه للشفاء أوتقوية الجسم أو البـرء من علة وسقام، كلها دلالات في توظيف نماذج من النبات لخدمة الولي.

و الحيوان له دلالة الوحش الضاري يصبح أليفا يـتحكم فيـه الـولي و يأخـذ بناصيته والأليف يألف الولي ويسكن إليه ويمده بخير كثير، بقرة أعطـت حليبـا كثيـرا بدعاء، وشاة درت بضرع ممتلىء بعد جفاف وجذب.والأسطورة تحمل فـي حكاياتهـا عنصر النبات والحيوان والجماد وأخبارالفلك وبناء الكون كما يؤكد الباحث "توفيق فهد :" وهذه الموسوعة النباتية الغنية جدا، وذات الأهمية القصوى لتاريخ العلوم والتقنيات تحتفظ عرضا بأساطير وخرافات وسمات عجيبة مرتبطة بالعديد من النباتات "[99] لقد وجد عالم الأساطير مادته في فضاء واسع لاحدود له مطلق الزمـان والمكـان عناصـره عديـدة (الإنسان-النبات- الحيوان -الجماد- عناصـر الكـون – سمـ ـوات –أرض نجـ ـ وم وأفلاك.-) وطبيعة الخالق الأول لأصل الأشياء ذكرت فيها حكايات كثيرة تذكر أسطورة أن السموات السبع وضعت بأحجار كريمـة " الزمـرد، البرنـز – اليـاقوت الأحمـر والأصفر..."[100] وأسطورة ثانية مفادها أن السموات الأربع الأولى تسكنها ملائكة لهـا وجوه حيوانات وطيور (أبقار، خيول، نسور، عقبان) [101] نلاحظ دخول عنصر الأحجار الكريمة في بناء السموات وعنصر الحيوان مع جنس آخر يختلف معه تماما هم الملائكة (ملائكة بوجوه حيوانات) وما يروى في الجنة عن الشجرة المقدسة الأسـطورة.يحمـل التراث الإنساني الكثير من الشعر الذي توجد فيه دلالات ورموز وحكايات الإنسان الأول

---

99 توفيق فهد – العجيب و الغريب – ترجمة : محمد الأسدي ص99
100 المرجع السابق
101 المرجع السابق

وتعود إلى الميتولوجية المقارنة والمتشابهة في العـالم.[102] ذكـرت كرامـات لأوليـاء صالحين و زهاد نجد لهم حضورا قويا في شعر الورع والتلقي يعبر عن تلك، الشطحات المذكورة في قصائد مطولة ما يسمى بالنشيد أو الغناء الصوفي(الترنيم).

ومجمل القول هو أن الأسطورة والكرامة نماذج لامتداد وتواصل البحث في الأثـر المنسي فالأولى دراسة وبحث وتنقيب مايؤدي إلى تقليب الطبقات التحتية لمعرفة الحقـب الزمنية ما قبل التاريخ وهذا ضمن اشتراك علوم واختصاصات عدة لدراسة الحفريـات ومعرفة طبيعة الأزمنة الغابرة للإنسان الأول محاولة لإدراك تلك العلاقة التـي بهـا اقتحم الكون وعرف كيف بدأت حياته الأولى لاستنطاق واكتشاف المجهول. ما طبيعـة اتصال الإنسان الأول بالعالم الجديد، مع من تكلم، كيف تعامل مع بنـي جنسـه، كيـف عرف وفهم محيطه، (الحيوان والنبات) طبيعة مكونات الطبيعة والكون، كيف تعامـل مع الضروريات التي يحتاجها في حياته، مع النقص والحاجة، كيف خلق المحيط الـذي يتعايش فيه. إن الإجابة عن هذه التساؤلات نجـدها مبثوثـة هنـا وهنـاك بين طيـات الحكايات والأساطير التي تحمل إشارات دالة عليها. أما الكرامة التي هـي مـن جـنس المعجزة التي تحمل رصيد القصص المجسد قدسية الأنبياء والرسـل وبهـا يربـط الإنسـان عقيدتـه ويوثقها. فطاعة الأنبياء والرسل والإيمان برسالتهم واقتفاء أثرهم من أرقى مراتب الإيمان، وكرامة الأولياء هي تواصل وامتداد للروح القدسي الظاهر النقـي في النفس الإنسانية.ثم إن العلاقة بين مجموعة بشرية وولي معين،إعادة سيرته حكاياته- مناقبه، ممارسة بعـض الطقوس التي تعبر عن الوفاء له هي نماذج وسلوكيات تعبر عن البقاء والديمومة وعدم فناء الروح في الذات البشرية، فالمجموعة هنا تبقى الـذات حيـة وتحافظ عليها لتبقى حاضرة بينهم على الدوام. والكرامة والأسطورة متأصلة في اللاوعي الجماعي، كلتاهما تحاول تفادي إقرار العجز، وتعطي للعقل فضاء أوسع ومساحة غيـر محددة يسرح فيها الإنسان بوعيه ولاوعيه بعقله ومشاعره. والجنسان ظـاهرة تـدرس ضمن مناهج تشترك لتصل إلى نتيجة واحدة (علم النفس، الاجتماع، علم العقائد، التاريخ والفلسفة) وتعمل كل هذه الاختصاصات في نفس الحقل لتجعل التاريخ البعيد حاضرا، من هنا نجد عناصر التلاقي والتقاطع بين الجنسين عديدة، فإذا كانت الكرامة ملاذ الاستقرار

102 علي زيعور – الكرامة و الأسطورة و الحلم –ص75

والاطمئنان والأمان للإنسان حيث يرحل إلى عوالم بعيدة عن القلق ويعيش في جو فسيح يتغذى من الخيال وتلغى فيه مسافة الزمن ويبتعد فيها الفرد عـن المحسـوس ويمضـي يسافر مع التاريخ وما قبل التاريخ يقلب الأرض قشرة قشرة يبحث عن أصل الوجـود. إن علاقة الكرامة بالأسطورة هي التجذر في الزمن البعيد والغوص في أعماقه والحيـاة وسط محيط لا مرئي بعيد عن واقعنا المدرك. بهما نستشف المنطقي وراء اللامنطقـي، إيجاد طبقة إستقرار في اللاممكن من أجل ربط الحاضر بالماضي، والقريـب المشـاهد العياني باللاعياني، وبعث إشارة منبهه للعقل قصد ربط المـواد بأصـلها فـي الزمـان والمكان.

العجيب:

مفهوم العجيب:

الدلالات اللغوية للعجيب في المعاجم:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "عجب" أن العجب إنكار ما يرد عليـك لقلة اعتياده، "وأصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قد عجبـت من كذا ..." والعجب النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد". والتعجب أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله "والتعجب مما خفي سببه ولم يعلم وأعجبه الأمر: حمله على العجب منه... وأعجبه الأمر: سره وقصة عجب، وشيء معجب إذا كان حسناجدا وآيات الله عجائبه.[103] ويذهب الزبيدي إلى ماذهب إليه ابن منظور مضيفا أن التعجـب حيـرة تعرض الإنسان عند سبب جهل الشيء " والتعجب انفعال النفس لزيـادة وصـف فـي المتعجب منه، والاستعجاب شدة التعجب."[104] ويعرف الفيروز أبادي العجيـب بقولـه: "العجب إنكار ما يرد عليـك كالعجـب محركـة وجمعها أعجاب وجمع عجيب عجائب وأمر عجب وعجيب وعجاب وعجاب، وعجب عاجب، و عجاب أوالعجيـب كالعجـب والعجاب ما جاوز حد العجب."[105] ونجد المعارف نفسها تردد في "دائرة معارف القـرن العشرين." [106] والمعجم الوسيط " الذي يضيف أصحابه أن: "العجـب : روعـة تأخـذ

103 ابن منظور – اللسان م 1، ص 580
104 الزبيدي – تاج العروس ج 3 – تحقيق عبد الكريم الغرباوي –ص 320
105 الفيروز أبادي القاموس المحيط ج 1، ص 105
106 محمد فريد وجدي – دائرة المعارف اقرن العشرين م6، ص 200

الإنسان عند استعظام الشيء، يقال هذا أمر عجب، وقصة عجب، والعجيب ما يدعو إلى العجب."[107] وفي المعاجم الأجنبية نجد أصل الكلمة عجيبة (Merveille) تعنـي أشـياء مدهشة تثير الإعجاب. ولقد بين جاك لوغوف (J.legoff)الأصول اللاتينية للفظ العجيب (Merveilleux)أن الكلمة ذات جذور لاتينية "Mirabilla"نجد اشـتقاقها "Mir"مـن الفعل "Mirari"رأى والتي تستدعي ما هو منظور ومشاهد بالعين فالأمر يتعلق بالرؤية و"الميرابيليات" (Les Mirabilias) تلتقي مع ما ينشده ويشاهد ويقف أمامـه الإنسـان محملقا".[108] وعليه فإن العجيب هو كل ما يذهل ويدهش عند رؤيته فيدفع صاحبه إلـى الغياب عن الوجود (الإندهاش) لأنه لم ير مثله في الوجود.أما كلمة عجيب فهـي صـفة وتعني ما هو غير مألوف ويبهر إلى أقصى حد فيثير الدهشة بطابعه غير المفسر والفوق طبيعي –سحري- إعجازي- أعجوبي. والاسم يدل على أن العجيب هـو مـا لا يقبـل التفسير بشكل طبيعي ويعني عالم الفوق طبيعي ونقيضه: الطبيعي.[109] وإذا ما تصفحنا قاموس "لاروس الصغير" فإننا نجده يؤكـد بدوره على أن العجيب ما يثير الإعجاب بخصائصه الخارقة والنادرة ومايبدو معجزا وخارقا وفوق طبيعي، ويضاف إلى ذلك أن العجيب لا يبتعد عن المسار العادي للأشياء، ويتحدد بتدخل وسائل وكائنات فوق طبيعته في مختلف مناحي ومظاهرالحياة. ونخلص مـن نظـرة وتنـاول المعـاجم للعجيب على أنه ما يحيل على ماهو مدهش غير مألوف، سحري، أعجوبي، غيـر قابل للتفسير، خارق، نادر، غير عادي، قليل الحدوث، ما يثير الاستغراب والتساؤل في النفس وفي النهاية هو عالم الفوق طبيعي.

العجيب في التراث العربي:

نجد الكثير من المصنفات اهتمت برصد عجائب الدنيا والمخلوقـات ودونتهـا ولكنها لم تتعرض للشرح وتفسير مفهوم العجيب مصطلحا مستقلا، فهي في عمومها ومجملها كتب تركز حديثها عن تاريخ البلدان والأمصـار فـي السـلم والحـرب،

---

5 ابراهيم مصطفي – أحمد الزيات حامد عبد القادر – محمد النجار – المعجم الوسيط ج 1، ص 584

J-Logof- le merveilleux dans l'occident medival-P63-6

Dicthonere le pt robert- 1186-7

الحيوانات والنباتات قديما، الأحجار الكريمة، مكونات التربة (الجغرافيا والتضاريس–"التاريخ الطبيعي للمناطق) [110] ويمكن وضع قائمة للمصادر التي تناولت في جلها مثل هذه المسائل:

- تحفة الأداب ونخبة الإعجاب وكتاب: "المغرب من عجائب المغرب " لأبي حامد الغرناطي
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: للدمشقي.
- عجائب الهند: بره وبحره وجزائره: لبزرك بن شهريار
- مختصر العجائب: لابن مهدي النقاش.
- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات و"الدر المنضود في عجائب الوجود" للقزويني.
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب: لسراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي.
- كتاب الإستبصار لعجائب الأمصار:لابن عبد ربه الحفيد.
- نشق الأزهار في عجائب الأمصار: لابن إياس.
- تحفة النظار في غراب الأمصار وعجائب الأسفار: لابن بطوطة
- عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة: لابن سرابيون المعروف بسهراب.
- كتاب عجائب الأقاليم السبعة المعمورة وأنهارها وألوانها وجبالها ومدنها وما يحدث فيها من العجائب والغرائب: لابن سعيد المغربي.
- عجائب الدنيا: لابراهيم بن وصيف شاه.
- تحفة العجائب وطرافة الغرائب: لضياء الدين بن الأثير.
- كتاب الآثار من عجائب المخلوقات لصاحبه الباتوني.

وأول تعريف يشدنا إليه ما أورده القزويني في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: يقول "العجيب : حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أومعرفة كيفية تأثيره فيه." [111]ويرى أن التعجب "يسقط بالأنس وكثرة

---

110 حسين فوزي - حديث السندباد القديم ص- 34 نقلا عن مقدمة عجائب المخلوقات لفاروق سعد

111 القزويني - عجائب المخلوقات- تحقيق فاروق سعد – ص 31

المشاهدة".أما تودروف فيقول أن العجيب هو ما يبعث التردد في القارئ وهو فوق طبيعي يثير ويرعب أو على الأقل يعلق القارئ بقلق.[112]

كما يذهب إلى اعتبار حادثة لايمكن تفسيرها بقوانين عالمنا هذا المألوف لدينا.[113] ما يلاحظ في هذه التعاريف هو طبعها بصفة العجيب غير المألوف وهو ما يثير في النفس حالة شعورية خاصة ليست طبيعة. ونجد الباحث حكيم ميلود يصل إلى أن العجيب يتوافق مع ظاهرة مجهولة لم تر أبدا وهو متعلق بالمستقبل.[114]يبرز هنا التطلع وتألق النفس للعجيب نحو الأمام أي النظر إلى المستقبل. وترصد الباحثة ليلى حوماني في مذكرتها للماجيستير حول العجيب مجموعة من التعاريف ومنها تعريف صاحب كتاب "الفروق في اللغة " "العجب استعظام الشيء لخفاء سببه والمعجب ما يستعظم لخفاء سببه." [115] من هذا التعريف نجد مفهوما آخرتكتمل به صفة العجب وهو عدم معرفة السبب الذي يخفى عنا ولذلك كان أصل العجب. أما الجرجاني فيعرف العجب بأنه :" تغير النفس لما خفي سببه وخرج عن العادة مثله." [116] أما صاحب كشاف مصطلحات الفنون فينتهي إلى أن التعجب استعظام صفة خرج بها المتعجب منه عن نظائره. ومعنى التعجب تعظيم الشيء في قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله. والمطلوب في التعجب الإبهام لأن من شأن الناس أن يتعجبوا مما لايعرف سببه، فكلما استبهم السبب كان التعجب أحسن."[117] أما نظرة توفيق فهد للعجيب فتتجسد في المخلوقات والكائنات يقول: "كل شيء في الخلق عجيب على منوال الخالق نفسه." [118] انطلاقا من هذه التعاريف يظل مفهوم العجيب نسبيا فلا يمكن محاصرته أو تدقيق معناه لأنه منفتح باستمرار على التأويل والإنزياح، لذلك يصعب علينا ونحن نتحدث عن العجيب أن نأول المفهوم الاصطلاحي وفق حدود ومعنى معين لأنه لم يصطلح بعد على تعريف

---

112 تودوروف – مدخل الى الأدب العجائبي – ص 195
113 تودوروف – المساءلة – ص 98 – ترجمة أحمد منور
114 ميلود حكيم – الكرامة الصوفية في تلمسان – ص 115
115 أبو هلال العسكري – الفروق في اللغة – ص 252
116 الجرجاني – التعريفات – ص152
117 التهانوي – كشاف مصطلحات الفنون – م3، ص 190
118 توفيق فهد – العجيب و الغريب - ص 91

واضح جامع ودقيق له. والملاحظ أن أغلب المعاجم أعطت للمفهوم دلالة لغوية ولم تولِه أي اهتمام من حيث تفسيره من ناحية التقنية السردية وما يـؤول إليـه داخـل النص كما هو الحال عند الجاحظ في البيان والتبيين يقول: "لو أن رجلين خطبـا أو تحدثا وكان أحدهما جميلا... ذا حسب شريف وكان الآخر باذ الهيئة ذميما وخامـل الذكر مجهولا، ثم كان كلا منهما بمقدار واحد من البلاغة، لتصدع عنهـا الجمـع، وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذ الهيئـة علـى ذي الهيئـة. ولشغلهم التعجب منه على مساواة صاحبه، ولصار التعجب منه سببا للعجب به، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه و ظهر منه خلافا ما قدروه، تضاعف حسن كلامـه في صدورهم، وكبر في عيونهم، لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلمـا كـان أغرب كان أبعد في الوهم و كلما كان ابعد في الوهم كان أظرف، وكلما كان أظرف كان أعجب، و كلما كان أعجب كـان أبدع، النـاس موكلـون بتعظيـم الغريـب واستطراف البديع ، وليس لهم في الموجود الراهن المقيم، وفيما تحت قدرتهم فـي الرأي والهوى، مثل الذي معهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ، وعلـى هـذا السبيل يستطرفون القادم عليهم، و يرحلون إلى النازح عنهم.[119] يبدو من هذا النص أن الغريب والعجيب عند الجاحظ واحد لافرق بينهما. ومن قراءتنا للتعاريف التـي سبقت للعجيب يتبين اتفاقها جميعا رغم اختلافها، اتفقت فيما يخص الحالة الشعورية المميزة التي تنتاب الإنسان حين مواجهته لظاهرة يخفى عنه علتها وسبب ظهورها مما يجعله عاجزا عن التفسير لأحد تأثيره فيه غير مألوف، خارج عن نظائره ومـا خبره من خلال تعامله مع الحياة ورؤيته المتكررة لظواهرها المعتادة لديـه ولـذلك كلما استبهم السبب وجهل العلة زاد التعجب. فكل مجهول يقع خارج نطاق تجربـة الإنسان ومعرفته ومشاهداته يظل "عجيبا" بالنسبة له يدهشه،يذهله، يحيره، يعجبـه ويخيفه أيضا. ولدى محمد أركون اهتمام خاص بموضوع العجيب الذي يعتبره مـن أشكال نشاط المخيال، وهكذا يكون العجيب عنه متضمن في المتخيل وأشمل لأنـه

119 الجاحظ – البيان و التبيين – ص62

يمكن من فهم آليات بنيات المخيال داخل الثقافة، وعليه فإن العجيب هـو كـل مـا نتخيله ولكن يتجاوز قوانا الخلاقة" ويميز أركون بين ثلاثة أصناف من العجيب هي: العجيب المدهش ذي الأصل العلمي، العجيب الديني المرتبط بـالفكر الأسـطوري، والعجيب الأدبي."[120] ويقر بصـعوبة القـبض علـى العجيـب فـي الأدب أو استخلاصه منه وعموما و في كل الأحوال هناك انبهار وانفعال بسبب عجز العقـل عن إدراك ظواهر العالم المحسوسة ويكون هذا الإنبهار تبعا لحقل اشتغال العقـل " دينيا " ميتافيزيقيا، علميا" وبهذا يصل محمد أركون إلى أن الأمر يتعلق بإلحاحـات العقل الذي يعترف بعدم قدرته على القبض على سلسلة الأسباب والنتائج ذلك أنـه كلما عمل العقل بالتفكير في العالم وظواهره المحسوسة كلما أدرك عجزه وقصوره، وهو الذي يدفع للبحث عن فرضيات جديدة من أجل فهم الظواهر كما يؤكد أركـون نفسه.

2/ العجيب و الغريب:

عندما نأتي للكلام عن جنس العجيب والغريب مقترنين نجد أنفسنا نعرض مرة أخرى لطرح مفاهيم العجيب وذلك لأن الأجناس المجاورة لا تعـرف إلا ببعضـها البعض، ونجد الأستاذ وحيد السعفي يقول ما يتضمن المفهومين "من الألفـاظ التـي كتب لها الإستعمال أن تجتمع فاجتمعت وتشكلت أزواجا، أقام كل زوج منها وحـدة معنوية تامة، وأن العجيب والغريب زوج من هذه الأزواج."[121] وإذا كان العجيـب عند زكرياء القزويني هو حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشـيء فإن الغريب عنده "كل أمرعجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة من ذلك معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وأخبار الكهنة، و يذكر نمـاذج من الأمور الغريبة مثل حدوث أمرغريب لشخص لا يوجد مثله لغيـره أوحـدوث بعض الظواهر في غير أوانها (عدم إتفاق الحالة الطبيعية لذلك) مثل سقوط الـثلج والبرد أوولادة حيوان غريب لم يرمثله."[122] نجد القزويني يفرق بـين التعـريفيين

---

120 محمد أركون – الفكر الإسلامي – ص189

121 وحيد السعفي – العجيب و الغريب في التفسير – ص27

122 القزويني – عجائب المخلوقات – ص 45

ويقيم لكل واحد مفهومه الخاص المختلف عن الآخـر، فنجـد العجيـب يخـتص بظواهرالخالق المقفلة التي يقف أمامها الإنسان مندهشا أما الغريب فيشـمل حـدوث ظواهر مفاجئة تخرج بطبيعتها عن قدرة تفسـير الإنسـان ومعرفـة بواعثهـا ومسبباتها، فإنسجام الكون وإنضباط دوران الكواكب، وشروق الشـمس، وبـزوغ القمر وظهور النجوم، وسقوط المطر مع سوابق له مثل الريح، الرعد، البرق. كـل هذه الظواهر يعيش الإنسان في محيطها ويعتبرها دالة على نظام الكون الدقيق بمـا يستوجب معرفة أن له مسير ومنظم وموجه، ولكن دون معرفة الأسـباب والعلـل والبحث فيها نجد نفس الإنسان يقف في حيرة واستغراب فيرد ذلك إلى قدرة الخالق فالأمر موكل له والغريب لا تنتهي مساحته عند هذا الحد بل يشمل كل مـا يحـدث فجأة وفي غياب وغفلة على إدراك الإنسان فيؤثر فيه ويؤطرحياتـه، إن معجـزات الأنبياء كالنار الباردة لا تحرق، وضرب البحر ليصبح برا، وانتقال العصا لتصـبح أفعى تلتهم كل الأفاعي وخروج الناقة من الصخرة الصماء وإحياء المـوتى.كلهـا مشاهد تخرج عن العادة وتخالف الطبيعي المألوف تدخل فيها إرادة الله وقوته، يتأثر بها الإنسان ويتعامل معها وفق منطق درجة إيمانـه فينـدهش وينبهـر ويصـدق بالرسالة. وهناك من كرامات الأولياء وعمل الكهان والسحرة ما يتدخل فـي فعلهـا البشر فيقربون المقدس من الناس كما يجعلون الناس يدخلون عالم الجن والشـياطين إن كانوا سحرة، وهذه العوالم والفضاءات لا يدركها الإنسـان ويعرفهـا بصـورة مباشرة ولكن من خلال القص الذي يروي للناس ما كان من أمر وأخبار الكرامـات والسحر والكهانة. فإذا كان العجيب يقف عند حدود النظـرة التأمليـة المطبوعـة بالدهشة والإنفعال وله علاقة بإرجاع الإنسان نظرته إلى داخله وباطنه، ثم استحسان الصفات والأفعال ومدح ذلك ويصل به "العجب" وهو دال على رضاء المرء بنفسه وإعجابه بها. [123] فإن الغريب دال على الذهاب والنفور بعيدا عن الطبـع العـادي المألوف فيتشكل عالما خارجيا وحشيا ينذر بالتنقل والرحلـة والوحـدة والغـروب

123 ابن منظور – لسان العرب –م1 580

والغموض. [124] يرى تودوروف أن الغريب هو المصادف غير المـألوف فيحـد د طبيعة الغرائبي بالعجائبي. [125] "إن العجائبي يحتل الوقت الذي يستغرقه عدم اليقين، فإذا أخذنا هذه الإجابة أو تلك فإننا نخرج من العجائبي لندخل في نوع قريب منه هو الغرائبي (L'etrange) أو السـحري(le Merveilleux) – نسـتنتج مـن رؤيـة تودوروف أن الغرائبي ينتج في مرحلة مـن مراحـل التعـرف أوالوقـوف أمـام العجائبي. ثم نراه يقدمه ويعرفه أكثر بطبيعته " العجائبي جنس يحيا بـين العجيـب والغريب " يقول :" يحيا العجائبي في حياة ملؤها المخاطر، وهو معرض للتلاشـي في كل لحظة يظهر أنه ينهض بين حدين هما العجيب والغريب" (...)[126] ويرجـع الباحث ميلود حكيم إلى تودورف فيرصد نقاط ومواقع الإخـتلاف للتفريـق بـين الجنسين فيقول : يتحدد الفرق بين العجيب والغريب بحسب الإنزياح الذي يحدثانـه في التعامل مع الواقع، فإذا كان الحدث الفوق طبيعي خرقا لقـوانين عـالم الواقـع وتجاوزا لها إما يكذب الحواس وخدع المخيلة وهنا تكون المحافظة علـى قـوانين الطبيعة والواقع المألوفة، وصيرورتها وعند هذا نكون أمام الغريـب (L'etrange) وإما أن يكون الحدث فوق الطبيعي تجاوزا للواقع وتبديلا لقوانينه، وأحكامـه التـي يجري عليها، فينفتح المجال أمام فهم فوق الطبيعي وإقحامه في ديناميكيـة واقعيـة جديدة وعند هذا نكون أمام العجيب(Le merveilleux) [127] فالعجيب يتوافق مـع ظاهرة مجهولة لم يسبق رؤيتها أبدا أما الغريب فنرجع اللامفسر والغـامض إلـى أحداث معروفة، وإلى تجربة سابقة فهو متعلق بالماضي بينما الغريب يتعلـق بمـا هوآت أوسيأتي (المستقبل). ويفسر رودنسون الغريب (Le Gharib) على أنه الآتي من مكان آخر (Ailleurs) ونعود إلى وحيد السعفي الذي يقول بأن المسـافة بـين العجيب والغريب تقلصت في استعمال الناس حتى أصبحت المصـطلحات الشـيء ونظيره يؤدي أحدهما إلى الآخر ضرورة، فيتكافلان لبناء عالم من غير واقع الناس،

---

124 نفسه- ص 638
125 تودوروف – الأدب العجائبي – المساءلة، ترجمة أحمد منور – ص100
126 تودوروف – مدخل إلى الأدب العجائبي –ترجمة الصديق بوعلام ، ص 65
127 نفسه – ص 115

فطبع الغريب العجيب وأضفى عليه من عالمه المجهول صبغة جديدة فبات نظرا إلى شيء غير مألوف ولا معتاد إكبارا لكل نادر خارج عن نظائره، خفي سـببه فظـن المرء أنه لم يرمثله ولذاك تمتلئ نفسه بالدهشة والإعجاب. يعتبر محمد أركون مـن المفكرين البارزين الذين فتحوا بابا جديدا في دراسة العجيب والغريب وفك رمـوزه وأسراره.[128] كما تعتبر أعمال جمال الدين بن الشيخ ذات أهمية في هذاالمجال وهو يعتبر العجيب والغريب جزءا لا يتجزأ من النظام المعرفي العربي الإسلامي، متتبعا ذلك من خلال دراسة ألف ليلة وليلة والقصص الديـ ـني مثـل قصـة الإسـراء والمعراج ودراسة كتاب عجائب المخلوقات للقزويني.[129] ولاعتبار ما تقـدم مـن الحديث في هذا الباب يتضح جليا تأكيد المقدمة التي جعلناها فاتحة لحـديثنا وهـي: العجيب والغريب متلازمان يفسر بعضهما البعض أو لنقل أن العجيب يقودنـا إلـى الغريب ويرى: "الطاهر المناعي" أن العلاقة بينهما علاقة سـبب بنتيجـة "عنـدما نتحدث عن العجيب نتحدث ضمنيا عن الغريب" ويعتبر التعجب ناتج عـن غرابـة ومهما يكن شكل الغريب حسيا أو معنويا فهو الباعث على رد الفعـل وبقـدر مـا تتعاظم الغرابة يقوى التأثير ويتضاعف."[130] ويجمـع عبـد الجليـل الأزدي بـين المفهومين فيقول :"إن العجيب هوأساسا الغريب "[131] ويتجلى عنده ذلك في نمـاذج وأمثلة عديدة منها الحيوان النادر –الحجرة الكريمة النادرة، والنبتة التـي لهاهيـأة وسلوك، والفواكه النادرة، وكل مادة من أصل أجنبي تثير الإعجاب. كما يشـيرعبد الجليل الأزدي إلى عنصر مهم في العجيب وهو أنه يمكن أن يكـون مـن صـنع الإنسان مثل تفنن البعض في الصناعة التقليديـة التـي لا يمكـن أن ينجزهـا إلا حاذقـون، ومثل ترويض بعض الحيوانات الضارية وتوجد للبشر معارف ومهارات قد تبدو للبعض من مواطن البراعة وموقف الإعجاب عنـدما يحسـون بالقصـور والنقص للوصول إليها.[132] ونجد أنفسنا نعاود الوقوف مرة ثانية مع تودوروف في

---

128 محمد أركون – الفكر الإسلامي – نقلا عن ليلى حماني – مذكرة ماجيستير ص 64

129 البمرجع السابق

130 الطاهر المناعي – العجيب و العجاب – ص66

131 العجيب و الغريب في اسلام العصر الوسيط- ترجمة عبد الجليل الأسدي- ص 122

132 نفسه

تنوير فكرنا في النظرة والتحليل فهو يحاول أن يميز بين العجيب والغريب بناء على علاقة المتلقي، قارئا أوشخصية بالحدث الفوق طبيعي، فالغريب هو الفوق طبيعـي المفسر حيث أن القارئ يكون متأكدا من أن كل ماوقع من أحـداث فـوق طبيعيـة يمكنها أن تأخذ تفسيرا عقلانيا، أي أن القوانين الطبيعيـة التي بإمكانـ ـه إدراكهـا قـادرة على تفسير ما حدث وبالتالي تقع المحافظة على قـوانين الواقـع المألوفـة وسيرورتها. [133] فالتراجيدياعند اليونان ليست شيئا آخـر غيـر تشـخيص لعـالم ميثولوجي قوامه العجيب والغريب يصارع فيه الإنسـان قـدره ليتجـاوز عجـزه ويخلص من الوادي إلى القمة. [134] وبمقارنة هذا التعريف بمـا سـبق مـن تقـديم للقزويني في هذا الباب نلاحظ أن مفهوم الغريب عند القزويني يصبح هو العجيـب عند تودوروف، فهناك تغيير لمواقع المفاهيم والمصطلحات ولكـن بالقيـاس إلـى الصفات والخصائص التي تجمعها من حيرة واندهاش وانبهار يمكن لنا اعتبارهمـا جنسين متلازمين متجاورين يشتغلان في حقل واحد.تبقى الإشارة إلـى أن مفهـوم العجيب والغريب وجد الفضاء الواسع ليحيا بين فنون كثيـرة وخطابـات متنوعـة وكتب ذات مشارب ومقاصد مختلفة مثل كتب (الـرحلات، التـاريخ، الجغرافيـا، أخبار البحار والمحيطات، كتب الحيوان والنبات) قصة بداية الخلق، خروج آدم من الجنة ونزوله إلى الأرض، قصص الأنبياء والرسل سيرتهم وعلاقتهم بأقوامهم، كل هذه الكتب هيأت للقارئ جوا مشحونا بالإيمان والتألق بعيدا عن الواقـع المشـاهد والإبتعاد في اللحظة ذاتها عن النظرة الآنية والتحليق بعيدا عن الواقع خارج فضاء الكون، وهذه الكتب إذ يتجلى فيها الجانب الديني الذي يطغى على المرويات والسرد فإنها لا تغفل الجانب العلمي والواقعي الممزوج بالخيال. ولذا "كان الإغـراق فـي العجيب والغريب سبيلا إلى إتيان خطاب جميل له خصائصه المميزة وهيكله الميثي وبنـاؤه المحكم الذي يؤلف فيه أجزاء تأليفا بحيث إذا بتر جزء انفرط عقـد الكـل وتزعزع." [135]

---

133 تودروف – مدخل إلى الأدب العجائبي – ص66
134 وحيد السعفي – العجيب و الغريب في التفسير ص 31
135 نفسه

العجيب والفنطاسي :

يلتقي العجيب والغريب الخارق وفوق الطبيعـي والفنطاسـي فـي اللاتينيـة (Phantasticus) وتكتب في اليونانية (FontosTikos)[136] إن اهتمامنا بعنصـر الفنطاسي هو الذي يدفعنا إلى فهم العجيب أكثر على أن معظم الدارسين للفنطاسـي والطامحين إلى معرفته لم يتناولوه إلا بقصد فهم العجيب الذي يعد شكله الأصل وأن الفنطاسي هوامتداد طبيعي لظاهرة العجيب في الأدب. [137] إن تواجـد جملـة مـن الصفات تجتمع في نسق واحد تترادف وتتألف لتشكل حالة واحدة الدهشة والإعجاب والحيرة حينها تقول ذاك هوالفنطاسي. إن المعرفة في بعدها الأول اندهاش وحيرة، والكون الذي يحيط بالإنسان ولا يستطيع فهمه هو الذي يشكل وجود الفنطاسي الذي يعرفه تودوروف بالتردد الذي يشعر به كائن لا يعرف إلا قـوانين الطبيعـة فـي مواجهة حدث ذي مظهر فوق طبيعي.[138] إذن هو في حالة لا عادية تخـرج عـن المألوف من القوانين. تخرج وتخرق النظام وتجعل الإنسان يتمـوج بـين حـالين وأمرين التصديق وعدمه، بمعنى بروز ظاهرة غريبة تفسر بأسباب فـوق طبيعيـة والتردد هنا يخلق الفنطاسي. في هذا الحال يتقاطع الخارق مع العادي واللامـألوف مع المألوف، وميزة وطبيعية الفنطاسي هي وصفه بالخوف الذي يجده في المتلقـي. إن حقيقـة الفنطاسي لا تكمن في ذاته وطبيعته بل في الحالة التـي يكـون عليهـا المتلقي من تجربة الخوف والإندهاش، وككل القصص الفوق طبيعية فإن طابعها هو ذلك الشعور والحالة غير العادية لدى الإنسان فيقع بين الخيال والحقيقة وتلك هـي صفة التردد. إن الفنطاسي تهيمن عليه فكرة التردد والشك، لأن من وظائفه الأساسية إحداث إضطراب وعدم استقرار للنفس في الإطمئنان من الحدث المشـاهد فيصـبح العالم غامضا وإدراكه مريبا ومبهما. لهذا نقول أن الفنطاسي ليس هو كل ما يخرق تمثلاتنا ويبلبل إعتقـادنا ويغير موضع نماذجنا، فهو كل لغة تفكك المعنـى الـذي نخوله للواقع ويقلب نظام الحقائق الإجتماعية معارضا وجودها المعترف به تقريبا.

---

136 عبد الجليل الأزدي- العجيب و الغريب- ص 07

137 ليلى حوماني – العجيب في ألف ليلة و ليلة – مذكرة ماجيستير – ص 49

138- Todorov- Introduction a la letratuee fantastique-P 29-1-PARIS- 1970

ومعنى ذلك أنه يغير مفاهيم الإدراك ويترك المشاهد غير قارعلى منطقة ثابتة[139] " إنه النص الذي يظهر الهجين والملتبس لكينونتـنا في العالـم، ويذبذب تأكيـداتنا الأكثر تصلبا."[140] وتسيطر ظاهرة الخوف كحالة شعورية ونفسية فـي الملتقـى وينحو لوفيكرافت (levecraft) إلى تأكيد هذه الحالة فيعتبر الفنطاسي تجربة خوف يعيشها القارئ والقصة تكون مروعة متى أحس هذا القارئ في قرارة نفسه بالخوف والرعب وبحضور عوالم وقوى غريبة.[141] ذلك أن طابع الإلتباس للفنطاسي يجعل المتلقي يعيش التردد والخوف لأن أثره البسيكولوجي يمس المعرفة السابقة للمتلقـي ويخرق أفق انتظاره وما ألفه من قبل.[142] لأن حضور عناصر غامضة غير مقبولة وغير قابلة للتفسير في العالم الواقعي يدفع إلى التساؤل باستمرار. بالإضافة إلى ما ذكرنا نجد تودوروف يصنف الفنطاسي ويقسمه إلى أنواع:

- الفنطاسي العجيب............. Le fantastique merveilleux -
- الفنطاسي الغريب.................. Le fantastique étrange -
- الفنطاسي الخالص...................... Le Fantastique pur -
- الغريب الخالص.............................. L'Etrange pur -
- العجيب الخالص....................... Le Merveilleux pur-

بهذا التقسيم نقول بأن تودوروف فك الإلتباس وامتزاج الفهم بـين هـذه الأجنـاس ويصبح كل صنف له معناه ومفهوم خاص به حتى وإن كان لـه عناصـر تلاقـي وتقاطع مع بقية الأصناف. ونجد أن الفنطاسي يعمل على البحـث والإكتشـاف فـا "الفوق طبيعي (الخارق) ينشأ غالبا من الأشياء التي تأخذ المعنـى المجـازي بـدل المعنى الحرفي."[143] وهكذا يتشكل عالم لا تقل أهميته عن أي نشاط ذهنـي آخـر، لأنه يحفظ حيوية وابداعية الفعل الإنساني، إنه يقف عنـد الحافـة الفاصـلة بـين المجازي والواقعي، ويؤسس لعلاقة المحتمل باللامحتمل. ولأنه كما يؤكـد الباحـث

---

139 Denis Mellier- litrature Fantastique –P 14 PARIS 2000-
140 Jean –pierre brtand-la literature fantastique P 15-
141 المرجع السابق ص 50 - نقلا عن ليلى حوماني
142 ميلود حكيم – الكرامة الصوفية – ص82
143 تودوروف – ص82 -نقلا عن حكيم ميلود – الكرامة الصوفية ص 118

ميلود حكيم "فيما وراء متعة الرضى والفضول وكل المشاعر التي توفرها لنا القصة أو الحكايات والخرافات وفيما وراء الحاجة إلى التسلي والمتعة والنسيان والتوصـل إلى أحاسيس لذيذة ومرعبة. فيما وراء كل ذلك فإن الهدف الحقيقي للرحلة العجائبية يكمن في الإستكشاف الأكثر كلية للحقيقة الكونية." [144] فالفنطاسـي هـو الخـزان اللانهائي للأبدية ضد الزمن. [145] ويكمن دوره في ترويض الزمن والموت، وضمان الخلود والأمـل للأفراد والمجتمع. [147146]

فهو يعتبر النافذة المطلة على الأعماق لأنه "يستكشف فضاء الداخل، فوظيفتـه هي وظيفة أمل، وانتصار على محدودية الكائن وبذلك فهي إلماعية تحويلية تـرتبط بالمتخيل الخلاق الذي يطارد الزمن المفقود، مما يجعل للفضاء الفنطاسي خصائص معينة تتمثل عند " دوران " في العينية البصرية، لأن تأمل العالم هو قبل ذلك تحويل للأشياء والعمق. [148] ولكن مع أخذ هذا المفهوم بمعناه الواسع تتجلى خاصية الوجود في كل مكان. وعند تودوروف فميزة الفنطاسي هي آنية تنتهي بانتهاء القراءة. [149] فالفنطاسي يرتكز على حيوية المتخيل في شحن البسيط بالخارق من خـلال الحلـم والهذيان، ووهم الرؤية وحوافز أخرى، فأهمية الدلالة العجيبة تتعلق زيـادة علـى الأسباب الحاضرة والبديهية، بسببية أخرى كونية وأكثر عمقا لكنها أقل وضـوحا. وعليه فإن الفوق طبيعي في العجيب يكون مقبولا إذا ولج عالما حيث يغيب المنطق البشري، بينما في الفنطاسي يتدخل الفوق طبيعي في فضاء وزمان لا مكان له فيـه وحيث لا يكون منتظرا ولا مرغوبا فيه، وهذا ما يجعله مخيفا. إن العجيـب يثيـر الدهشة والإعجاب والإنبهار والحيرة ولكنه ليس مخيفا ولا مروعا رغم وجود المرد ة والسحرة والجن و الخوارق و التحولات العجيبة، فهو"عالم ينضـاف إلـى عـالم الواقع دون أن يسيء إليه أو يحطم نفسه، فعالم العجيب وعالم الواقـع يتعارضـان

---

144 Pire Mabille- le miroire du merveilleux cite par todorov P 62

Gilbert Durand-Ibid -p 474- 3 2

146 Ibid – 471- 4- (نقلا عن حكيم ميلود الكرامة الصوفية من 118- 120)

Ibid 480- 5-4

Ibid 494-1- 148

149 تشومسكي – ضمن نظرية المنهج الشكلي –ص 200

بدون صدام ولا صراع، لأنهما يخضعان لقوانين مختلفة ، فالكائنات التـي تسـكنها أبعد من أن تمتلك القدرات نفسها، فالبعض منها ذو قوة مطلقة والآخر لا سلاح لـه ولكن يلتقيـان دون أي خوف." [150] لذلك ما يحدث لا يصدم القارئ لأنه يعلم مسبقا بأن أحداث القصة من نسج الخيال لأن الحكي العجيب يتموقع من البداية في عـالم الخيال، فالجملة الفاتحة للحكاية هي " كان ياماكان في قديم الزمان ... " وهذه العبارة في قراءتنا لها تشكل إنذارا أو تنـبيها تشير إلى بعد هذا العالم عن الواقع المعيش، ولهذا فالجن والعفاريت لايمكنها أن تقلق وتخيف لأن المخيلة ترحل إلى البعيد فـي اللازمن وقبل الزمن. إن غرابة الأحداث والأشخاص وأخذها لأشكال وصور غيـر طبيعية لا يؤثر في أنظمة العالم الواقعي ولايحدث فيه تشويشـا، وإن حـدث فهـو ظرفي وسرعان ما يعرف القارئ أوالمتلقي أنه أمام منطق وقـوانين غيـر التـي يعهدها، فهو يعجب وينبهر وتشده حيرة ولكن دون أن يستولى عليه رعـب خـانق يهز مداركه ووجدانه وهذا ما يستجيب لشروط العجيب. [151] وعلى النقيض من ذلك نجد الفنطاسي يسعى إلى إحداث خلل في نسق الكون فيعتـدي على ما هـو إنسـي ويهدد استقراره، فالفنطاسي معنى بروز مفاجئ للفوضى والإضطراب والجنون في عالم منظم، مطمئن، عقلاني." [152] فالعجيب إن لم يكن مسليا هوصادم، من هنا فإن الليل العميق الفضاءات غير المأهولة للفنطاسي تتعـارض مـع الضـوء اللامـع للفضاءات الترفيهية للعجيب. "[153] حيث يبدوا الفوق طبيعي هنا كقطيعة للإنسـجام الكوني إذ يشكل المذهل اعتداء ممنوعا ومهددا يكسر استقرارعالم كائنات قوانينـه حتى هذه اللحظة منظبطـة وثابتة. [154] لأن الفنطاسي هنا يتميز بإقحام فظ للسـري الغامض في قلب الحياة الواقعية ، حيث نكون أولا في عالمنا الواضـح المطمـئن، فيتدخل فجأة حدث غريب مخيف، غير قابل للتفسير، فنعـرف قشـعريرة خاصـة

150Ibid- P 774-1

151 الطاهر المناعي – العجيب و العجاب ص- 72

152 نقلا عن ليلى حوماني – ص51

153 نفسه

154 نفسه

يثيرها التناقض بين الواقعي و المحتمل. "[155] وكل فنطاسي هو قطيعة مـع النظـام المعروف ، وبروز مفاجئ للامعقول ضمن الشرعي الثابت في الحياة اليومية." [156] تتفق هذه التعريفات كلها في إقحام السرى الغامض واللامفسر واللامعقول في قلـب الحياة، فالفنطاسي يتجلى من خلال التردد بين الواقع والمتخيل، بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. وعنصرالتردد كصفة أساسية بارزة يوليها تودوروف أهمية بالغة حيث يعتبرها عنصرا بائنا في هـذا الجنس،وهـو يعتبـر التـردد الشـرط الأول للفنطاسي."[157] إن عالم العجيب حتى و إن كان يبدو لنا متناغما متناسـقا لايعـيش التناقضات إلا أنه لا يخلو من عنصر الصراع، فهو يعرف الصـراع بـين الخيـر والشروكما يوجد جن الخير يوجد مقابله جن الشر ولكن طالما قيلت هذه الميـزات المتفردة لهذه الطبيعة الفوقية فالكل يبقى فيها متجانسا. [158] كمـا أن الصـراع فـي نهايته يؤول لمبدأ انتصار الخيرعلى الشر ولهذا فإن الحكاية العجيبـة تكـون فـي نهايتها سعيدة بينما الحكاية الفنطاسية تحف بمناخ مرعب وتنتهي غالبا بحدث مـؤلم يؤدي إلى موت البطل أوإختفائه أوبعثه إلى الجحيم، ثم يسترجع العالم استقراره. [159] يقول لويس فاكس " إذا ما كان هناك وجه مظلم يسيطر على الأدب الفنطاسي فإنـه ليس الجسد بل الموت." [160]

و بناء على ما تقدم فإن العجيب الفنطاسي وإن كان يشتغل على الموضوعات نفسها (التحولات والظهورات) فهما يتعارضان في أثرهما علـى القـارئ فالعجيـب يحاول أن يطمئن أكثر من أن يقلق. وإذا كانت المشاعر في العجيب عذبة رائعة فإنها في الإنفعال الفنطاسي تتماز بالسلبـية والكـره والخـ ـوف والرعـب، وإذا كـان

---

155 (1-6) مرجع سبق ذكره

المتخيل عنصرا بارز الوجود في كليهما، فإن المخيلة تشغل في كل منهمـا بطريقـة مختلفة وإن كان كلاهما يستقي مادته من الفوق طبيعي مما ينتج عنه الشعور بالدهشة والقلق والحيرة والإعجاب والخوف أيضا، وإن كان بدرجات متفاوتة فإن الفرق بينهما يتحدد بناء على موقف الشخصية أوالقارئ الذي يتماهى معها. ففي العجيـب يتقبـل القارئ هذا العالم ويعتبره جزءا من عالمه بل امتداد له لذلك يسلم به ويقبله حتى وإن انتابه الخوف فلن يكون ذلك إلا للحظات، فسرعان ما يتأقلم ويتجانس معـه لأنـه لا يفصل بين العالمين (الواقعي والماورائي) في تصوره للوجود ورؤيته للعالم.

أما في الفنطاسي فيغيب ذلك التواصل والإنسحاب بين العالمين حيث يتـدخل الفوق طبيعي في الواقع بشكل فظ ومفاجئ وغير متوقع، ولذلك فإن القارئ يتردد أمام هذا العالم الغريب بين التفسير الطبيعي والفوق طبيعي، العقلاني والمتخيل، ويصـاب بالحيرة والشك والتردد والقلق والخوف الذي يصل إلى درجة الرعب. مـن قراءتنـا المتواضعة لبعض المشتغلين في هذين الحقلين(العجيب والفنطاسي) والباحثين في مـا جاورهماوما تاخمهما من الأنماط نجد إلتباسا وتشابها وتداخلا عند محاولة تفكيك لهذه الأجناس خاصة للعجيب والغريب والفنطاسي وإن كان الأول يجذب أكثر من أن يبعد، ويرغب أكثر من أن يرهب، أما الثاني فإنه يلزم المشاهد أو المتلقي بعيدا عنـه دون أن يقربه وإن كان ذلك لفترة، فالشخص الغريب عن القوم يثير الشك، الخوف، والقلق لدى القوم و لو لفترة، وكلما عرفوه ألفوه. نؤكد على العلاقة بين العجيب والغريـب والفنطاسي، فلا حضور لجنس دون آخر ليشرحه ويوضحه ويحدد معالمه ومسـاره عبر التـاريخ تتجـاور هـذه الأجنـاس وتغـرف مـن نفـس المعـين المتخيـل (L'imaginaire)، إن هذه الأنماط من حيث اشتغالها داخليـا فـي الـنص الأدبـي مربوطة بالضرورة بعنصر الخيال، فهي مفاهيم تتآلف وتتجانس والذي يجمعها أكثـر من الذي يفرقها، وهي تصل بالملتقي إلى غاية واحدة هي التردد والشـك والخـوف والقلق ثم تنتهي بعد ذلك إلى حالة الاستقرار، اليقين والأمان، والاطمئنان وذلك حين تعرف الأسباب والعلل لتفسير الظاهرة.

العجيب والغريب في القرآن الكريم:

{قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا}* ذكر الزمخشري في قوله {عجبا} بديعا مباينا لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه، قائمة فيه دلائل الإعجاز، وعجب مصدر يوضع موضع العجيب وفيه مبالغة وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره[161]. قدم محمد أركون دراسة للفكر الإسلامي تناول فيها عدة جوانب ومنها موضوع العجيب وانطلق من سؤال مفاده: هل يمكن الحديث عن العجيب في القرآن ؟ وانتهى إلى الجواب بالإثبات ضمن الحدود التي تتوفر فيها على إشارات لمعاينة الحضور الاحتمالي لهذا النمط من العجيب، ويخلص إلى أن كل ما يمكن الاحتفاظ به من الأبحاث الجارية هو أنه بجانب العجيب ذي التبرير العلمي يمكن الحديث عن عجيب أدبي وعجيب ديني ملازم للفكر. والأمر هنا يتعلق بمتطلبات العقل الذي يعترف بعجزه الراهن عن استعاب تسلسل العلل والنتائج وكلما اعتبر العقل العالم وظواهره الملموسة، كلما قدر شساعة عدم قدرته وهو ما يترتب عنه عاطفة دينية في سياق ديني.[162] ومن هنا تتضافر عدة اختصاصات مثل الانتولوجيا والأنتربولوجيا وتاريخ الأديان والتحليل النفسي لإضاءة المفاهيم المعقدة مثل المقدس-الميث الطبيعية وفوق الطبيعية، والعجيب والفنطاسي.

ويقر عبد الجليل الأزدي بصعوبة الحديث عن العجيب في القرآن لأن هذا كما يقول يقودنا بالضرورة إلى إخضاع هذا الأخير لمناهج التحليل اللساني والأدبي التي انطلقت من النصوص المكتوبة في حين أن القرآن أولا وقبل كل شيء لغة دينية قبل أن يكون نصا مكتوبا[163]. وفي السياق الإسلامي نجد محمد أركون يخص مفهوم العجيب المدهش الصافي بدراسة حيث يربطه بالقرآن لأنه المصدر الأول الذي يؤسس لعلاقة الدهشة والإعجاب بين المؤمن ومخلوقات الله ولكنه يحدث تغييرا لهذا المصطلح داخل نص القرآن، فكل تصور مدهش وعجيب داخل الثقافة الإسلامية نجده قد استمد أصوله من القرآن وهذا ضمن اللغة الدينية التي تجعلنا نعيش العلاقة بين

---

* سورة الجن الآية01 [161] الزمخشري –الكشاف –م4 –ص167

[162] عبد الجليل الأزدي –العجيب والغريب- ترجمة لمحمد أركون ص22

[163] مرجع سبق ذكره ص25

الأسطورة والمقدس والخارق والعجيب المطلق ويتم هذا من خلال الأجواء الخاصة للمتلقي، فالقرآن يؤسس علاقة تحسس، وعي أو إدراك مبنية على قبول العجيب المدهش، أي الجميل والخيرواللانهائي بصفته مكانا أوفضاءلانبثاق الشخص الإلهي.[164] فتلقي الآيات من قبل المؤمن يفترض الإيمان والتصديق بحضور الإله." لأن عجائب الخلق تتطلب بالضرورة تدخل الكائن المتعالي ذي القدرة المطلقة."[165] والعجيب يغير طبيعته ووظيفته تبعا لما إذا كان المتلقي مؤمنا أوغيرمؤمن.[166] فالتجربة هنا تخالف تجربة الإنسان غير الديني الذي لا يرى في العجيب المدهش إلا تنازلا مؤقتا يقدمه العقل للإشارات والظواهر الخيالية. كما أن اللغة الدينية تسمح للمرء أن يقرأ ويعيش في آن تلك العلاقة التي تفلت منا بين ميث الوجود وقداسته وفوق طبيعته وعجيبه وغريبه.[167] وتكون اللغة هنا هي الوسيلة الضرورية والأداة الفعالة لفهم المضامين رغم أن الأبحاث حول الميث والأديان والمقدس والدنيوي والعجيب لم يتم التنبه إليها بأن "المعنى المعيش في الطقوس يتوزع في التأويلات وإذا كان من الواجب العثور عليه فلأنه على أهبة مستمرة للضياع ولأنه يبحث عن وضوحه في مستقبل رجاء أكثر مما يبحث عنه في مستندات ماضيه."[168]

نماذج العجيب والغريب في التفسير :

العجيب في قصة آدم:

-من الجنة إلى الأرض وبينهما وسوسة الشيطان –

كانت قصة آدم وزوجه في الجنة بسيطة التركيب لا تشويق فيها ولا انقلاب، تعيش شخصيتها في انسجام تام مع الوجود لا تتجاوزه ولا تطلب المزيد ولو دامت الحال على ذلك، لانفض عن القصة المنطق ولبقي مشروع الله دون منجز ولبدت

164 ميلود حكيم – الكرامة الصوفية –ص 121
165 نفسه
166 عبد الجليل الأزدي – العجيب و الغريب – ص26
167 نفسه
168 نفسه

كلمته مجرد كلمة لاعبرة فيها ولا نفاذ، لقد قال الله عز وجل للملائكة قبل أن يخلـق آدم {إني جاعل في الأرض خليفة}* فرسم لذلك مشروعا والمشروع يتطلب في منطق القصة منجزا ولو دامت حياة آدم في الجنة لبقيت الأرض دون خليفة لذلك كان سكن آدم في الجنة وأكله منها رغدا مجرد إنظار إلى حين. ويلعب الشيطان في القصة دور الواسطة المحرك للأهداف فهو إذ يشوش على آدم نعمته التي أنعـم بهـا الله عليـه ويخرجه من الجنة التي سكنها ويضيع عليه فرصة رغد العيش يلعب دورا أساسيا في مجرى الأحداث، فيخرج مشيئة الله المتمثلة في جعل آدم خليفة في الأرض من حيـز المشروع. إلى حيز الإنجاز، فيكون الشيطان وإن بدا في ظاهر الأمر معارضا لمشيئة الرب فهو مساعد على تحقيقها وعلى دفع القصة نحو تطـور الأحـداث ممـا يسـم الأرض صفة الحياة ويزيدها ابتعادا عن السماء ويفرق بين المخلوقات التي تعمر كلا منها.[169] فإذا كان الهبوط إلى الأرض قدرا محتوما، فلمـاذا الشـجرة والإغـراء. والخطيئة والعقاب ؟ تلك هي عناصر العجيب في القصة فآدم بني في القـرآن بنـاء عجيبا وفق مبدأ الحظر وتجاوز الحظر، وهو عـن جـدارة مبـدأ بنـاء الأسـاطير والخرافات التي تضع أمام البطل تحيل دون تجاوز الحـدود وعـدم القيـام بـبعض الأعمال، فتمنع بطلها من الإنجاب. وأن لا يقرب الشجرة. أن لا يأكل التفاحة، أن لا يخرج من العش وأن لا يفتح الباب ويدخل تلك الغرفة فلا يمتثل للحظر والمنع فينجب ويقرب الشجرة ويأكل التفاحة ويخرج من العش ويفتح الباب ويدخل الغرفة ويتجاوز الحظر الموضوع شرطا للإمتحان. إن الحظر هوالامتحان الذي يخضع له البطل ولا يخضع له إلا البطل وحده لأنه متميز بالضرورة وقد تميـز آدم عـن غيـره مـن المخلوقات فكان الوحيد من بينها الذي خضع لعملية التعليم ووجد من يأخذ بيده ليعلمه الأشياء أسماءها. "كان آدم في السماء كالفتى في القبيلة"[170] كان لابد لآدم النزول إلى الأرض لتعميرها وللخلافة فيها حتى لا تبقى الأرض دون هدف وتصبح هي المسافة إلى الآخرة.

---

169 وحيد السعفي – العجيب والغريب في التفسير – ص 84
170 مرجع سبق ذكره

وظيفة الماء العجيبة :

في قصة نوح عليه السلام ودعوته لقومه تبدو مسافة الزمن ضـاربة الحـد لأقصى ما يمكن أن يعيشه الإنسان في هذه الحياة، مكث في قومـه ألـف سـنة إلا خمسين، وتبدو قصة نوح مع قومه عجيبة صبره وإصراره دعوته لهم ليلا ونهـارا، سرا وجهارا دون ملل ولا كلل، ولكن كان النداء يلقى صدا مانعا فلا يتجـاوز الآذان والعجيب كما تذكر الروايات أن الواحد من قومه حينما يصيبه الكبـر ويـأتي عليـه الدهر يأتي بأولاده إلى نوح ويوصيهم وصيته الأخيرة "احذروا أن تؤمنوا بدعوة هذا الرجل" دعوة الميت للأحياء بعده. ويزيد العجيب غرابة حينما يـدعو علـى قومـه بالهلاك بالفناء لأن دعاءه لهم لم يزدهم إلا نفورا واستكبارا، ويـدعو الله متضـرعا شاكيا أن لا يبقى ولا يذر منهم أحدا وباعتبارما سيأتي فإنهم لـن يلـدوا إلا فـاجرا كفارا". يتجلى العجيب في أن الله يأمر بغرس شجرالفلك ليصـنع السـفينة وغـرس الشجر وسقاه ورعاه ولما علم قومه بما يصنع سخروا منه، ولما كبر الشجر وأصبح نافعا للصناعة صنع الفلك على "اليابسة" وأركب معه من آمن به ويبـدو حوارنـوح عليه السلام مع ابنه عجيبا حينما رد عليه قومه وقال :" سآوي إلى جبل يعصمني من الماء" ولم يعلم ساعتها أن الماء سيخرج من الأرض وينزل من السماء فماء طوفـان نوح ماءان مصدرهما الأرض والسماء. ويبدو عجيبا بليغا التعبير القرآني في الأمـر المباشر الصادر من القيادة العليا قوله تعالى: {وقلنا يا سماء اقلعي ويا أرض ابلعي ماءك وغيض الماء }* .ويبدو أن الله سبحانه وتعالى عطف الفعـل الثالـث "مبنيـا للمجهول على فعلي أمر والعجيب كما ذكرالعلماء أن النفس يغمرها مشـهد المسـخ والدمار والطوفان فلا تسأل عن الفاعل بعد التعبير بالمبني للمجهول. فطوفـان نـوح ذلك الزمن لا وظيفة له غير أنه نبه الإنسان أن النهاية قريبة، وأن الخالق جاهز دوما للتدخل ووقف الحياة، حينما يتعطل المشروع عن الإنجاز، حينما يرد المشروع الإلهي ولا يقدم تبريرا لذلك وترفض توصيات الرسالة عنوة، حينذاك تتدخل القوة الربانيـة بما تراه أنفع وأصلح وإن كان الأمر يتطلب تبديل قوم بقوم، " وما على الإنسان هنـا

إلا الإستعداد للرحيل الذي ينتهي به إلى جنته الضائعة وسماءه المفقودة، ولا سـبيل إلى الفوز بذلك إلا بفضل الطوفان، تلكم الواسطة التي يتم بها الهبوط من الأرض إلى السماء من تحت إلى فوق تلك صورة الطوفان التـي ترشـحها القصـص العربيـة الإسلامية ".[171] يكتسي الماء في قصة الطوفان قدسية خاصة كما كان منه مطرا كان مصدره السماء، ومنها استمد قدسيته، وما كان ينبع من الأرض كان قـد فـار مـن "التنانير " التي هي مكان النار تحولت عن وظيفتها وصارت تفور ماء فإذا فارالمـاء من تنانير النار فقد اجتمع "الضدان" وازدانت القصة بالمعجزات وازداد الماء قدسـية فطهر ورفع "الدنس" وأدى بذلك وظيفة عليا مقدسة وظيفة تطهيريـة. المـاء يغسـل الدرن والدنس "ولو لا دعاء نوح على قومه (دعاء الإنسان على الإنسان) إذن لمـا كان الطوفان ولولا فساد الأعمال لما كان الطوفان وهو ما يعطي للحياة نفسا جديـدا ويمكنها بانتهاء الطوفان من أمل جديد في الفوز برضي الخـالق ويجعـل الفطـرة البشرية تنظر إلى الطوفان نظرة متفائلة فهو إن لم يكن سبيلا إلى الجنة فهو سبيل إلى الفوز بها في الزمن اللاحق. يكمن عنصر العجيب في الماء في ثنائية التناقض فالماء ينطوي على ثنائية متقابلة الحدين، فالبحرأوالوادي أوالنهـ ـر يقـوم واهبـا للحيـاة والردى"الموت" في آن واحد، فالنيل يغمر الأرض فتخصب وتعطي الحياة والنيل يهدم في فيضانه البيوت ويجرف في سيله البشروالماشية، والبحر يهب الناس رزقهم ودره، والبحر يلتهم المراكب ويقضي على البحارة، وكان الناس يتوددون إلـى الـوادي أو البحر ويقربون القرابين، فكم من عذراء سار بها القوم فجـرا إلـى واهـب الحيـاة والردى، وكم من أعياد أقامها القوم تقربا من الماء وتوسلا إليـه، فذبحـ ـوا فيهـ ـا الذبائـح وأنشـدوا الأناشيـد في إسلام وخضوع."[172] فصور العجيب في عنصـر المـاء عديـدة ففيـه يغرق الناس ويموتون ومنه جعل الله كل شيئا حيا فهو واهـب البقاء والمكتسح بالفناء فهو سبب الحياة للإنسان والحيوان والنبـات ودونـه يمـوت الإنسان والحيوان والنبات فالماء يحمل النقيضين الحياة والموت ،البقاء والفناء. والماء

---

1 مرجع سبق ذكره 202

172 وحيد السعفي – العجيب و الغريب في التفسي– ص490

يحمل أمل حياة جديدة والماء يغسل وجـه الأرض، يزيـن صورة النبـات به يمتلئ الضرع ويزدان ويتزين الزرع ، فالماء يقوم عليه عنصرا الوجـود واللا وجـ ـود، العدم واللاعدم.

العجيب في النار:

وظيفتها وطبيعتها :

تقوم النار على عنصري النقيضين فيها الحياة وتقضي على الحياة، النار باعثة للوجود وفيها الفناء والرماد والدمار، فهي التي تحمل المعجزة، كانت بـردا وسـلاما على ابراهيم وهي التي تحرق العصاة والكفار وتجعلهم حطبا لجهنم ومن اجتماع النار والماء تكون الحياة، والنار تشكلات على جبل تحدث بانتقال الإنسان إلى عالم الثقافـة وبانتقال للبحث عن الرب. بعد أن كان يبحث عنه على وجه الأرض، أوفي أعماقهـا وفي جبالها وصخورها."[173] كان موسى سائرا بأهله يسوق غنمه في طريق وعـرة المسالك، فأظل الطريق ونزل منزلا بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليوري نارا فبينما هو كذلك إذ: " أنس مـن جانـب الطور نارا ". فقال لأهله "إني آنست نـارا لعلـي أتيكم منهـا بقبس" "أو أجد علـى النـار هدى" وتشعر من السياق أن الظلام كان دامسا يسد عليه الرؤية وكان البرد القـارس يؤلمه وأهله وكان لابد من قهر ذلك ولا يكون له إلا بالنار، وكانت النار عند الشعوب القديمة هبة الإله وهي التجلي المنير. وفي ظل حيرة موسى لما رأى النار تم اللقـاء العجيب بين الرجل التائه في الوادي ونارالرب التي تضطرم في الشجرة عنـد قمـة الجبل وكأن التأسيس للدين الجديد عند هذه النار التي تحمل (القداسة، الرسالة، الملاذ، الملجأ، الحل، التفريج) ويتعرى الجسد بخلع النعلين وترتقـي الـنفس إلـى أسـمى المراتب لتطأ القدمان المكان المقدس.[174] وكثيرا ما كانـت النـار رمـزا للسـحر والسحرة، فالساحر له المناط والمحيط المناسب في ظل النار وهي ملتهبـة متوقـدة الجمر، فيأكله الساحر ويلعب به كي يخدع الناس فيسحرهم ويسلبهم ويستولي علـى

173 نفسه
174 مرجع سبق ذكره – ص488

ملكاتهم وعقولهم. وذكرت النار رمزا للكرم عند العرب وكان دخانها المتعـالى فـي السماء إيذانا كمرجع وملجأ التائه في الصحراء الذي في أمس الحاجة إلى ماء وطعام والنار عبدها المجوس وقدسوها فهي لا تنطفئ عندهم أبدا يجتمعون حولهـا ليقولـوا كلمتهم الفصل فهي التي تقرر أمرهم. فعبدوها ونسبوا إليها الآلهة والنار رمز للتائـه الضال حتى يعود إلى الطريق ويجد الصواب. فالعجيب هو فضاء تتجسد فيه علاقـة القدسي بالدنيوي لأن الفوق طبيعي هو عالم الله، من هنا يتلقى المؤمن الخطاب الإلهي عبر القرآن الذي يسرد وقائع غير عادية لا علاقة لها بالمجرى الطبيعي للأشياء. إن الكلام عن الوحي والبعث والنشور والملائكة...إلخ "هي حقائق لا يمكن ضبطها عـن طريق الحواس ولا يمكن تفسيرها بواسطة السببية الخطية الفاعلة لكنها مع ذلك أكثر حقيقة وصحة من المعطيات الطبيعية." [175] فالخطاب القرآني يضع المؤمن أمام عالم غير موجود في السياق الطبيعي، ولكنه يبقى في الإمكان والاحتمال، وهو يجيب عن الأسئلة الغارقة في الأصول الأولى للخلق ويستشرف الآتي المرتبط بالخلاص ويرجع في كل ذلك إلى قدسية الله وعظمته وبذلك فالعجيب المدهش الديني هو طراز وفضاء لتشكيل تجربة خاصة للدلالة والمعنى وهو بهذا يحقق وظائف وخصـائص العجيـب المتمثلة في الخوف والتردد. فالقرآن يؤسس لمستويين من العجيب أحـدهما مـرتبط بالعالم الدنيوي وما يحدث فيه من غرائب وعجائب المخلوقات، وهنا يكـون سـبب العجب الجهل بالمسببات وندرة حدوث مثل هذه الظواهر. وباكتشاف قوانينهـا يـتم التآلف معها ويبطل العجب وهناك المستوى المرتبط بالعالم الآخـر، عـالم الأرواح والجن والقوى الخفية والموت والبعث والقيامة، وهنا يكون للتخيل دوره في تقريـب هذه العوالم من دور الإنسان. وخلاصة نقول إن الشعوب قد تفتقر إلى ثقافـة عالمـة وأدب وفن وعلم ولكنها لا تفتقر البتة إلى دين وطقوس، فإذا كان الـدين عنصـرها المشترك، كانت الروابط بينها في هذا المجال قوية، فالربط بين الخطاب الديني وغيره للوقوف على مواطن الوصل والفصل ضرورة واجبة." [176]

175محمد أركون – الفكر الإسلامي – نقلا عن حكيم ميلود – الكرامة الصوفي – ص122
176 وحيد اللسعفي – العجيب والغريب- ص43

وظائف العجيب وأبعاده :

يتبادر إلى الذهن سؤال ما الغاية من العجيب، هل وجوده اعتباطيا أم لـه مـا يؤديه ويرمي إلى أهداف ووظائف، للبحث عن إجابات لابد من الرجوع إلى تنـاول خطاب العجيب بالطرح والمعرفة والبحث في جوانبه حيث لا يعتبر عبثيا بل لوظائف عديدة تتقاطع وتتشعب لكنها تتآزر وتتآلف في تشكيل التأثير،مغطية حـالات الـنفس البشرية وتغيرات القيم وتصادمها داخل المنظومات الثقافية، وتستوفي تباين العـوالم واقعية ومتخيلة وحلمية وأخروية، ونشيرإلى أن العجيب لا يؤدي وظيفته إلا إذا تـم اختراق ومعاكسة قوانين الطبيعة وهو الأمر الذي يؤدي إلى ظهـور العجيـب فـي الأصل. وإن الفصل بين العجيب ووظيفته لا يمكن إطلاقا لأن العجيب أصلا لا يكون عجيبا إلا إذا حددت له وظائف والوظيفة هي التي يتجلى فيها عنصر العجيب. ونجد كل الذين اشتغلوا في حقل العجيب تناولوا دراسة الوظائف وحسبنا أن نضع بين أيدينا نص جاك لوقوف "إن أية دراسة طبيعية للعجيب لابد أن تهتم بوظيفة العجيـب بعـد تعريفه لذلك ينبغي أن نبحث في علة استهلاكه وظهوره ولأي غرض وظف وما لـم نبحث في هذا الحقل الدلالي يغدو عملنا غير ذي بال." [177]

كما يجب أن نميز بين نوعين من العجيب من حيث وظائفه وما يؤديه ويرمـي إليه من غايات وأهداف، فهناك العجيب الذي يتجلى في النص المقدس والذي يحيلنـا على ما هو قدسي، سماوي، متعال وكامل، وهناك العجيب المتجلى في النص الأدبي وهو ما يحيل على ما هو دنيوي، إنسي أرضي، ناقص. ونجد دلالة المصطلح تختلف بين الباحثين فيسمي محمد أركون العجيب الديني والعجيب الأدبي. [178] ووظائفهمـا تختلف فالديني تهدف فيه الوظائف إلى تأصيل المعرفة المطلقـة أو المقدسـة التـي تؤصل في داخل الإنسان معرفة الذات المتعالية/الله. [179] ويهدف العجيب هنـا إلـى تحقيق غايات وترسيخ مبادئ وقيم من ذلك التصديق بالرسـالة السـماوية وترسـيخ

---

177 J- le Goff- le Merveilleux dans l'occident medival نقلا عن ليلى حوماني – العجيب و الغريب – مذكرة ماجيستير

178 Mohamed Arkoun- peut – on parler de merveilleux dans le coran !- P 2-

179 المسعودي الحمادي – العجيب في النصوص الدينية- ص99

ركائز الإيمان في النفس، وهنا قد يكون حد العجيب التصديق بما جاء من الـوحي أو الرسالة أو جحودها وإنكارها، وقد يتوقف إيمان الناس على نزول آية "عجيبة"، ولهذا فإن الأنبياء والرسل كانوا في حاجة ماسة إلى مثل هذه التجليات وهي بمثابة دعم مـا ورائي كانت تتطلبه العقليات حتى تتقبل ما يدعو إليه النبي أو الرسول حتى تطمـئن لما ينشره من تعاليم فتكون الآيات بمثابة البرهان أو الدليل القاطع على مصداقية مـا كان قد حدث به قومه. وعليه فإن تجليات العجيب هنا تروم نسف السائد والمألوف في مستوى المنظومة العقيدية سواء كان الأمر يتعلق بديانة سماوية سـابقة قـد لحقهـا التحريف، أو في مستوى غياب الدين السماوي وسيادة المعتقد القائم على الوثن."[180]

ويفرق جاك لوقوف بين عجيبين هما العجيب الديني والعجيب الشعبي فيما يختلفان في خاصية أساسية وهي المصدر والوظيفة.[181] ويشير محمد أركون إلـى أن العجيـب المدهش تتغير وظيفته بحسب عقيدة وطبيعة المتلقي إذا كان مؤمنا أو غيـر مـؤمن، فلدى المؤمن العجيب ليس إلا تجليا للعقل العلوي المتعالي وله وظيفة معرفية قصوى وكبرى لا يحاط بها. أما غير المؤمن فالعجيب لديه هو ضرب لتجاوز العقل وتعليق لفعاليته وتغييبا لدوره فيما يخص اللامؤمن فالعجيب هنا ليس إلا تنازلا مؤقتا يقدمـه العقل.[182] وعندئذ يتم إلغاء دور الإدراك والوعي المركز على التجربة المحسوسـة والإكراهات المنطقية مما يسمح بالدخول في أحلام مسلية وممتعة سرعان ما تنسى،ما في الحلم عندما يعود العقل بوعيه لكي يمارس رقابته من جديد. والملاحـظ هنـا أن محمد أركون اشتغل على نص القرآن في كليته ووحدانيته دون التطرق إلى نصوص أخرى، ويرى أن الوظيفية المعرفية للعجيب تشكل دعامة لفكـرة الخلـق، ودعامـة للأنطلوجيا القرآنية، ويدرج ضمن الأول الخلق الأول (علم نشأة الكون-علم الفلـك-علم الأجنة-علم الطبيعة البشرية-الكائنات غير المرئية) نهاية الخلق الأول (الموت-الوعد والوعيد-العلامات والآيات التي تعلن عن نهاية هذه الحياة) ويذهب عبد الجليل الأزدي إلى أن العجيب الديني يؤدي وظيفة معرفية سامية ذلك أن الإستسلام لجمـال

---

180 نفسه

181 J-le Goff-Ibid-P65- الطاهر وعزيز بنيوية كلود ليفي ستروس – مرجع سبق ذكره

182 محمد أركون – الفكر الإسلامي – ص 19

وخصوبة الكلام ولقيمة الخلق المعجزة هو الذي يسمح للإنسان أن يختبـر وجـدانيا وداخليا وجود الله الحي الخالق.[183] كما أن خطاب العجيب يشكل خطابا يقـف فـي مقابل الثقافة العالمة والخطاب العقلاني وهو ما يفسر لنا اقترانه بالآداب الشعبية التي ظلت تلك الثقافات تعتبرها ساذجة وتعدها نوعا من الهزل والسخافة وتعتبرها ثقافـة دونية (ثقافة الهامش) لأن خطابها لا يتعاطى نفس النظـرة اتجـاه العـالم بمختلـف مستوياته، ولا يكرس مقولات الدين والعقل (المقولات الإيديولوجية والعقلانية) لـذلك فقد نجحا (الدين والعقل) في الإسلام كما في المسيحية في رمي العجيب المـدهش أو الساحر الخلاب داخل دائرة العقائد الخرافية والأدب الشعبي أي ضمن مسـتوى مـن الفعالية الثقافية المتدنية الخاصة بالأطفال والجدات والشعوب المتخلفة.[184] وبناء على هذا فإن من وظائف العجيب أنه يقدم تصورا عن الموجودات والمخلوقات والمدركات الحسية ويتطلع للغيب في إطار فني متخيل بتوسل (المتن الحكائي)، (الشكل الحكائي) كأنجع وأنجح وسيلة في سبيل التجلي.[185] وتنتقل ليلى حومـاني فـي البحـث عـن وظائف العجيب كصفة للحكاية العجيبة فتصل إلى أن العجيب هنا يحاول أن يطمـئن ولا يقلق وإن الحكاية لا تستحق أن تروى إلا إذا كانت عجيبة غريبة، وهـي تصـبو إلى تحقيق السعادة والخلاص وفي النهاية تهدف بكل سماتها ومراحلها إلـى الخلـود ضمن كينونة ذاكرة الأجيال مهما تعاقبت الأزمنة وتبدلت السنون فهي تتناقـل عبـر رواية الأجيال واتصالهم بها، كما يكمن سرها العجيب في خلود الإنسـانية بكلمـات وكتابة النص حسبما يذهب إلى ذلك ابتهال يونس.[186] وهنا نلاحظ الكلام يتداخل بين العجيب والحكاية وذلك لأن الحكاية هنا لا تعيش ولا أمل لها في البقاء إلا إذا امتلكت هذا العنصر.

ونعود إلى تعداد وظائف العجيب حيث يمكن كما تقول الباحثة ليلـى حومـاني تجاوز وظيفة العجيب بالنظر إلى خصوصية النص لننظـر إلـى وظيفـة العجيـب

---

183 عبد الجليل الأزدي – العجيب و الغريب – ص 25
184 محمد اركون – الفكر الإسلامي – ص187
185 محمد السعفي – العجيب والغريب في التفسير- ص37
186 ليلى حوماني – العجيب في ألف ليلة و ليلة – ص 146

باعتباره جزءا من المتخيل، لأنه منطقة واسعة الإمتداد تغطي حقائق متعددة والعجيب ما هو إلا جزء من المتخيل ولأن المتخيل مرتبط بالطبيعة الشعرية وبقوة الرغبة: أي البحث عن كل ما يستطيع الإنسان اشباعه في نفسه أو في عقله.[187] والعجيب باعتباره نمطا من أنماط المتخيل مؤسس –كما يقول جاك غوامار- على رفض الموت ورفض محدودية الإنسان. إذ يعمل على تحدي قوانين الطبيعة ليخلق عالما موازيا للحقيقي المعيش عالم تحكمه قوانين مكيفة ومعدلة ومعكوسة بحيث لا تعيق أشواق الإنسان وأحلامه.إنه عالم يميل إلى الإنتظام في شكل معكوس من أهم مواضيع الوفرة في الطعام والعري والحرية الجنسية والعطالة.[188] ولعلها الوظيفة التي يطلق عليها أندري ميكال "وظيفة حلم " لقد كان الإنسان واعيا بقصوره و محدودية قدرته في مواجهة أسرار العالم و من ثم فعالم العجيب يكفل له رؤية أخرى عند الإنسان والطبيعة والكون –إنها رؤية تكفل نوعا من الإطمئنان على مصير الإنسان كقطب للعالم، وتعبر عن أمله في بلوغ التخوم وتخطي محدودية الشرط الإنساني للإنفتاح على رحابة الكون المجهول، ولهذا يذهب جاك غوامار إلى القول بأن "العجيب هو أرفع إنجاز شعري فوظيفته ليست أن يعبر ولكن أن يظهر وما يظهره هو الكائن نفسه."[189] وتسمح هذه العملية للعجيب بتجاوز موانع وإعاقات الظرف الإنساني وهو ما سمح للبشرية بتحقيق الكثير من الفتوحات ما كان أن تحققها قبل هذا بل كان ذلك مستحيلا. لأن الطاقة الواقعية تتطلب وقتا أطول وجهدا أكبر وتم التعبير عن ذلك في عالم العجيب المتخيل، وهو ما بشر إليه "روجي كايوا" عن طريق عجيب السحر الإنساني بما كان يفتقر إلى التقنيات التي يمكنها أن تمكنه من السيطرة على الطبيعة يلبي في المتخيل رغبات يعرف أنها لا تتحقق."[190] والعجيب إذ يقوم بمهمة ترويض الزمن وضمان الخلود والأمل للأفراد والمجتمع. لأنه لم يكن يوفر الملجأ الذي يفر إليه المرء من وضعه فحسب بل كان مساعداعلى الفعل وعلى"البحث

187 نفسه ص62
188- J- Le Goff le meurveilleux dans l'occident –P69
189- J-Goimarde- Ibid- P 1027
190- Roger Caillois –Encyclopaedia- corpus-P 775.76

والإكتشاف" [191] وهكذا فإن خطاب العجيب لا يعبر فقط عن غرابـة مقلقـة تمتطـي المفارقة والتناقض وهتك الواقع العقلي بما هو خارج عن حدود الطبيعة، وإنما هـو يسعى أساسا إلى التعبير عن رغبات الإنسان الساذجة، ويتوق إلى كشف أسرار الغيب والسيطرة على الكون والهروب من الموت والشيخوخة." [192] ولعل هذه الوظيفة هي التي يسميها "أندري ميكال" "الوظيفة المعرفية" ومعناها عنده الحث على التفكير حول العالم." [193] ويقدم العجيب إمكان تجاوز الشرط الواقعي الذي يحدد درجة ما يمكـن للإنسان أن يملكه ويتجاوز القيم الثقافية التي تحدد ما يسمح للإنسان وما يحظر عليه، وتصل الباحثة ليلى حوماني إلى نتيجة مفادها أن عالمنا لا معنى له بـدون عجيـب وسحر. تقول " يقدم العجيب فرصة الخروج من الرقابة والإنتظام اليومي، لأن عالمنا بدون سحر، بدون أحلام أو خيال، بدون عجائب أو مخاوف لن يكون مغريا." [194] إن الإنسان يحتاج بطبيعته إلى الهروب لكي يستطيع أن يتحمل الواقع بشكل أفضل فيبتدع عوالم متخيلة حيث يمكنه أن يتصرف بحرية وراحة والترفيه من وظـائف العجيـب الذي يوفر للإنسان الراحة والإنبساط والإسترخاء. وهذالا يعنـي أن العجيـب هـو الهروب نحو مكان آخر هادئ . طفولي- لطيف ومتناس للحياة اليومية بـل علـى العكس من ذلك، إنه يستحضـر تحت أشكـال أخـرى قـلق وصـراعات داخليـة ويكشف بطريقة أصيلة، بواسطة المسـافة والقطيعـة اللتـين تميزانـه آلام العائلـة والمجتمع، وفي تنشيطه لأحلامنا الأولى، يشير إلى التوترات، المخـاوف، الشـكوك الفردية أو الجماعية. [195] وعليه فإن العجيب المدهش هو شـيء مشـكل ومؤسـس للوعي. [196] كما أن العجيب يعتبر أداة لتحقيق ما يحرم منه المرء في الواقع من حاجة بيولوجية ونفسية، إذ يقوم بإبعاد التهديد، الألم والقلق، ويسمح بتحقيق الرغبـة . [197] كما يقوم بنقل الفرد من الحاجة والحرمان والظلم والقهر الإجتماعي إلى عالم تتحقـق

---

191 -Ibid-P460

192روجي كايو – الموسوعة العالمية – ص 286

193 -L'etrange et le merveilleux dans L'islam medival – P223.24

194 نفسه ص 65 –نقلا عن ليلى حوماني – العجيب و الغريب – ص64

195 Alain Montandon-du recit merveilleux ou l'ailleurs de l'enfance -P6

196 محمد أركون – الفكر الإسلامي –ص 22

197 -M Rondonson-op.Cit –P 174 نقلا عن ليلى حوماني – العجيب و الغريب –ص 65

فيه حاجته إلى العيش الكريم وحاجته إلى الأمان والاطمئنان والعدالة. وهكذا فالعجيب يقوم بتعبير فوزية ديمناتي. بوظيفة إعادة التوازن وتحقيق العدالة حيـث تـرى أنـه "بالموازاة مع حياة يومية تغلب عليها اللامساواة والفـوارق الإجتماعيـة والفوضـى اللاأخلاقية وصراعات السلطة ينفتح لنا العالم ساحر يقيم التوازن بين أفراد ويحملون أحاسيس مطلقة بواسطة عدالة موجهة بالعجيب." [198] كما يستعمل العجيب أو الخارق كتبرير أو كغطاء لتجاوز الرقابة والضوابط الإجتماعية والأخلاقية مـن الممنوعـات والمحرمات المفروضة ذاتيا حيث لاحظ "بيتر بنزولدت" أن الخارق عند كثيـر مـن الكتاب يشكل وسيلة للقفز على الممنوع والتي لا يمكن تناوله في الواقع لأن الخـارق يسمح بتجاوز الحدود المغلقة واختراق المحرم الاجتمـاعي (TABOU) والرقابـة الذاتية، فيصبح وسيلة صراع ضد الرقابة بأشكالها المتعددة ذاتيـة واجتماعيـة. [199] وبذلك تكون الكتابة المتشبعة بروح العجيب مغامرة واسـتجلاء للبقايـا والهـوامش والمقصي من كينونتنا المحاصرة بضـغط القـوانين والمحرمـات وشـتى أنـواع الرقابة.ولعلها الوظيفة التطهيرية عند "اندري ميكال" وتعني وظيفة تصريف الكبـت حيث تمنح الإنسان حقلا عجيبا يمكنه اسقاط مجموعة من وظائف الروح التـي مـن الممكن أن تشكل ممارستها خطورة داخل المجتمع الذي ينتمي إليه كما لايجب إغفال الجانب الجمالي الفني للعجيب حيث يسعى إلى إرضاء اللذة الجماعية وفيهـا يكـون التركيز على الكائنات أو الظواهر العجيبة كثيرا. [200] والعجيب بهذه الميزة يسـتحوذ على مكانه على المستوى التركيبي للنص بوصفه وظيفة سردية في الحكـي، تسـعى للحفاظ على حالة الترقب في أوجها، كما يساعد حضور العناصـر العجائبيـة علـى تنظيم خاص ومدقق لمسار الحبكة وللعنصر العجيب في بنية الحكاية. اضافة إلى مـا سبق نجد الوظيفة التفصيلية وهي التي تساهم في وصف العالم الغرائبي الذي لا تملك حقيقة خارج اللغة. ومجموع الوظائف تعطي للنص وحدته وديناميته. وخلاصة لكـل ما ذكر من وظائف العجيب فإن هذا الأخير يطبع الكون والكائن برؤية خاصـة، وإذا

---

198 المرجع السابق – ص66

199 نقلا عن ليلى حوماني – العجيب و الغريب ص 68

200 نفسه – ص67

كان أصل الفلسفة الدهشة فهي موجودة في قلب العجيب، ولعل الخصوصية المميـزة له هي التعالي للكائن البشري بواسطة الدهشة. العجيب مفهوم واسـع لا حـدود لـه ولايمكن القبض عليه متحركا ، متطورا ليس مستقرا ثابتا عبر الزمان والمكان، فهـو يطبع المشاهد بالانبهار والانفعال والدهشة باختلافها من هذا إلى ذاك. لـذا فوظيفـة العجيب مستمرة متطورة عبر الزمان والمكان تنبئ دائما بالجديد.

العجيب في الكرامة الصوفية :

العجيب هو الذي يحمل عنصر الاستغراب حيث الحدث لا يوافق مـا يعرفـه الناس من سير عادي لظواهر الطبيعية وفق قوانينها ونواميسها. إن القـرآن الكـريم والسيرة النبوية وحياة الصحابة رضي الله عنهم حافلة بمواقع العجيب فـي جوانـب ومناحي كثيرة وقد أولاها المفسرون والمؤرخون اهتماما بالغا. ويمكن إدراج العجيب في الكرامة الصوفية ضمن المعنى الأوسع للعجيب في القرآن، و قد استقى مادته من الأساطير القديمة والمعتقدات التي كانت سائدة لدى الشعوب مثل الفرس والروم وما ذكر في التوراة والإنجيل والفكر الديني الإسلامي والمسيحي واليهودي الذي تتجلـى فيه الكثير من مظاهر الغرابة والعجيب . ويمكن دراسة العجيب هنا كفضاء تسـقط فيه العقائد والهلوسات والإمكانيات التي حلم بها الوعي الإسلامي الخاضـع خـلال تاريخه للضغوط البسيكولوجية الثقافية المختلفة."[201] فالعجيب في الكرامة وإن كـان منبعه الأصلي القرآن إلا أنه تشرب وأخذ من المعتقدات والطقوس والعـادات التـي كانت سائدة لدى الشعوب، وتعامل معها وحولها داخل نظامه، وتتمثل هذه الأصـول في المعتقدات القديمة والأساطير التي عرفت لدى الشعوب والأمم السابقة مثل الفرس والروم والهند، وقد ذكرت كتب التوراة والإنجيل ما كان لهم من ذلك. وقـد تغـذت التفاسير من هذه الثقافات عبر جسر الإسرائيليات كما نجد أثرا بارزا لها في كتـب التاريخ والسير التي تعتبر مصادر وأخذت تاريخ و أخبار الإنسانية الأولى وجعلتهـا روافدا لها. وهو ما أغنى التراث وجعل الفكر الإسلامي خصبا وأبعـد عنـه صـفة

---

201 محمد أركون – الفكر الإسلامي ص211 – نقلا عن حكيم ميلود – الكرامة الصوفية 123

الانغلاق حيث تفتح على مختلف ثقافات ومعارف الأمم السالفة وهذا بدوره أضـفى على الكرامة الصوفية طابع الغنى والخصوبة والتنوع وزاد في طبيعة ودلالة الخارق العجيب، وتعددت الأغراض الأدبية التي تستقى من معين التراث، وأصبح للحكايات التي وردت في القرآن دورمهم في صقل النفس لتأخذ من معاني التاريخ القديم عبرا ودروسا لها مثل قصة سيدنا يوسف عليه السلام - الخضر - عيسى بن مريم، نوح موسى، قصة أصحاب الكهف...إلخ. وما ذكر في التاريخ مـن كرامـات للأنبيـاء والرسل والصالحين مثل نزول المائدة من السماء والطحن بلاطحين، امتلاك منطـق ولغة الطير والتحكم في الحيوانات الضارية." [202] إن هذه العجائب والخوارق كانـت استجابة للضغوط التي كانت تواجه الشعوب فـي مراحلهـا التاريخيـة ولاشـك أن المحرك الأول لها هو الخوف، لأن تاريخ الخارق مرتبط بالخوف من العالم المجهول (الوحوش، الأرواح الشريرة، الغيلان، الجن ... إلخ) وخوف من نوع آخـر هـو الخوف من السلطة السياسية والدينية هو الذي كان الباعث والأصل في إبـداع هـذه الكرامات. تتجسد عظمة الخالق في عجائب المخلوقات كما يذكر عبد الجليل الأزدي: "كل شيء في الخلق عجيب على منوال الخالق نفسه." [203] يجسد الباحث بهذا القول نظرة الإنسان لنفسه يستخلص منها العجيب ومن نفسه يعرف سر الخالق والخلـق، وقد أكد القرآن الكريم في الكثير من آياته على التفكير والنظر والتأمل حينما تمتلـك نفس الإنسان غمرة الاندهاش والتعجب. قال تعـالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت.}"* إن نظرة الإنسان لنفسه في أصل خلقه ومراحل عمره يدعو للعجب، وكل ما في الكون من إنسان ونبات وحيوان وجماد ينمي فينـا هذا العنصر بقوة، وكثيرة هي الأحداث والحوادث التي لا نجد لها تفسـيرا ونعجـز أمامها فنردها إلى قوة غيبية لوقوفنا في دهشة وعجز عن المعرفة العلية.

يقول تودوروف :"تحدث حادثة لا يمكن تفسيرها بقوانين عالمنا هذا المألوف لـدينا." [204] إن تودوروف الذي يعتبره الكثيرون المرجع الأساسي للتعريـف بهـذا الجـنس

---

202 محمد مفتاح -دينامية النص ص 143

203 توفيق فهد – العجيب و الغريب – ترجمة عبد الجليل الزدي –ص91

204 تودوروف – الأدب العجائبي ترجمة أحمد منور ص 98

الأدبي يعتبر العجيب غير مألوف ولا معتاد ولهذا اكتسب هذه الصفة، وهو ما يدفعنا إلى عمل الفكر والنظر والتأمل، وهي عناصر تجد النضج والوعي لـدى الفلاسـفة والصالحين والمتصوفين. إن تاريخ الإنسانية حافل بمواقع كثيـرة تركـت الإنسـان حائرا، وطالعنا في كتب التفسير وسيرة الأنبياء جملة من الأخبار والحكايات تنسـب إلى الإسرائيليات يتجلى فيها عنصر العجيب بقوة وهو ماأظفى على الكرامات طابعا خاصا. كما أن الحلم شكل من أشكال العجيب."[205] يذهب تودوروف إلى إيجاد تشابه كبير بين الحلم والكرامة من حيث طبيعة الحكاية، حيث نجد الشـخص يقـوم بعـد اليقضة ويحاول اجراء عملية تركيبية لإعادة مقاطع الحلم وقد تضـيع منـه بعـض الأجزاء ويعود ليسأل نفسه عدة مرات عن حقيقة ما شاهده في نومه أهو واقـع لـه صورة مطابقة في حياته وقعت فعلا أو ستقع فيما بعد أم هو خيـال ووهـم، ومـا يصدر عن الولي نفسه نقف أمامه في المرتبة الوسطى بين الواقع والخيـال وهـي المرحلة التي يسميها تودوروف " التردد " الذي يقع فيه الإنسان إن تجاوز مظـاهر الطبيعي والعادي وهو الذي يجعلنا لا نثبت على حالة واحدة ما يجعل الـنفس فـي حيرة، والمرجع الأساسي في ذلك هو طبيعة الحدث الفوق طبـيعي الذي لا يحمـل في دلالته العلل والأسباب وكلما وصلنا إلى التفسير اسناد الظواهر إلـى مرجعيتهـا وبواعثها قل لديناعنصر العجيب وقوة التردد تزيد في عمره وتقويـه مثلمـا يؤكـد تودوروف."[206] وقوة العجيب تنقص بالمؤانسة وقوة المشاهدة . أو ما يسمى بخلـق جو التآلف مع الجنس أو الظاهرة المشاهدة. إن طبيعة التعامل والتفاعل في الكرامـة الصوفية هنا يتوقف على طبيعة نوعية ودرجة إيمان وانصهار المتلقي في المنظومة الإيمانية الربانية وهو ما يدفعنا للكلام عن المتلقي ودوره في الكرامة.

طبيعة المتلقي للكرامة:

تتشكل علاقة الكرامة مع الأنماط الثقافية عبر مفهوم المحاكـاة ويـدخل هنـا عنصر التخيل بين الكرامة (النص) والمتلقي. فالحكاية تبني عالما متخيلا يسـعى أن

205 نفسه
206 نفسه ص 100

يعاش من قبل المتلقي مستمعا كان أو قارئا. رغم طابعه الخيالي الذي يجمع عناصر الغريب والعجيب والمدهش "يعاش كواقع فعلي لأنه يحيل على المقدس الفعلـي." [207] فتلقي مثل هذا النمط من الحكايات يختلف عن تلقي نوع آخر بهدف المتعه والتسـليه فهنا يفترض أن المتلقي يملك صفة التصديق ويدخل إلى النص بإيمان قوي . ذلك أن " سامع القصة ليس مجرد مشاهد لأحداث تسلية ومتعة دون أن يشارك بوعيـه فـي ذلك بل العكس "إنه جزء لا يتجزأ من بنية تمثيله تشكل اللحمة العميقـة والمسـتمرة الدائمة لكل الأحداث التي تحل بالعوالم المخلوقة وتاريخ البشر." [208] وبـ ذلك تسـاهم الحكاية في إنقاذ التاريخ المقدس حتى يصبح نموذجا ويتحول ليختلف بطبيعته عـن التاريخ العادي. إن " الكرامات مثل قصص الأنبياء لا تقترح فقط نمـاذج أخلاقيـة ينبغي أن تقلد وتحتذى، وإنما تقوي النظرة الأخروية وتتوجه إلى وعي مفتوح علـى العجيب والمدهش ومتقبل له ومنغمس فيه." [209] ومن هنا يصبح المتلقي يعيش طبيعة التجدد والإطلاع في أفق واع إما داخل معطيات وأفاق سوسيو تاريخية وسيكولوجية معينة، أو في انفتاحها على التفسير والتأويل اللذين يجددان في المتلقي عنصر الحياة داخل أزمنة وأمكنة ثقافية مختلفة وبهذا فلا تستوجب الحكاية من متلقيها الإنخراط في عالمها و تخيله فقط، بل تستوجب منه فوق ذلك تأويلها انطلاقا مـن العـالم الـذي يعطيها معنى أنطولوجيا بوصفها حكاية." [210]

فالحكاية تجعل صاحبها يعيش جو التخيل وذلك لأجل مواءمة الفوق طبـيعي لأنه يملك استعدادا لترقب ورؤية تجلي القدسي في الطبيعة (الدنيوي) وهذا الترقـب نابع من وجدان القلب وليس العقل ، لأن الوجدان يعمل باستمرار للانقلاب من يقظة الطبيعي لذلك فهو دائما في حاجة للفوق طبيعي ليعبر رتابة العادي، ويقطع ديمومـة الطبيعي وبهذا يعطيه معنى متعالي ويتجاوزه. إن الحكاية الصوفية وإن كانت تحاكي أنماطا ثقافية سابقة إلا أنها تقفز بعيدا في لحظة إشراقة الحدس على المعرفة القلبيـة

207 معبد الحق منصف – لغز الحكاية الصوفية – ص 03 – نقلا عن حكيم ميلود ص 126
208 محمد أركون – الفكر افسلامي – ص203
209 نفسه
1 عبدالحق منصف – لغز الحكاية الصوفية –ص06

وتعانق المجهول من أجل الترويض الزمن، والإطلال على الأبديـة المفقـودة " إن الكرامة تشكل التراث المشترك الذي يصنع الهوية لتنماز بعناصر امتلكتها وأهلتهـا لذلك منها: ميل الناس الطبيعي والفطري إليها، تجسيد المثال وتقريب الصور النظرية فيشاهدها المتلقي عينيا في الولي أو الصوفي، تحرير المكبوتات وإعطاء فضاء أوسع من الحرية لمجال تسبح فيه النفس دون قيود، نقل المتلقي إلى عالم النعيم الذي يتحقق له فيه كل شيء فهي تعطي عالما آخر يتحقق فيـه الفـائض مـن غرائـز الفـرد المكبوتة." [211] تتحول الحكاية إلى خلاص وانعتاق من ضغط اللحظة الغارقـة فـي قساوة الواقع وإحباطاته، وهنا يغيب المؤلف في الحكاية، وهو ما يعني غياب السلطة المؤسساتية باعتبار أنها شفوية وانعدام الملكية في نص مـن النصـوص يمكـن أن يؤسس في المستقبل سلطة متعة ثورية"[212]. وارتباط الحكاية الصوفية بالعجيب هـو تشظية للأدلة وإخلال بكل سلطة. إن الحكاية كما أشرنا آنفا تسخر من التاريخ، هـذه السخرية التي تذكرنا بالأدب الكرنفالي: الذي تحدث عنه باختين حيث يجتمع المقدس والدنيوي، ويتحول أي تعامل مع الحكاية تورطا في لعبة قطباها: العادي واللاعادي، أي ما يشدنا إلى المتعة الغامضة والجادة لخطاب شغوف. من هنا يظهر فعل الكرامة في الملتقى عبرا انفتاحها الدائم للقراءات التي تسائل ما هو منسي، أوما ينـام فـي اللاوعي الجماعي، وبين انتقال الديني من سياجه الدوغماتي إلـى حركيـة الـذاكرة الشعبية، إلى الممارسة التي لم تنس البصمات البعيدة للمعتقدات القديمة، وهنا لابد من الالتفاف إلى الرمزي الذي يؤالف التاريخي والأسطوري والواقعي الممكن والعـادي والخارق.

---

211 عبد الكبير الحطيبي – الإسم العربي الجريح ـنقلا عن حكيم ميلود ص 130
212 نفسه ص 177

الفصل الثاني

خصائص حكايات الكرامات

1/ جغرافية وتاريخ المنطقة:

تشكّل المنطقة شكلا غير متساوي الأضلاع، حيث المسافة الشّمالية غير الجنوبية، والغربية غير الشّرقية، تمتد فيها مساحات مسطّحة تارة وأخرى هضاب تحيط بها سلسلة جبال الونشريس جنوبا وجبال الظّهرة شمالا وجبال زكار شرقا ومازونة وواد رهيو غربا.

وقد كتب عن ذلك جغرافيون ومؤرخون أمثال: ابن حوقل في كتابه " صورة الأرض " وياقوت الحموي في "معجم البلدان " والإدريسي في " نزهة المشتاق"[213]، وتعتبر المنطقة همزة وصل بين الشّرق والغرب والشمال والجنوب.

أما مناخها فينتمي إلى مناخ البحر الأبيض المتوسط، فهو شبه جاف يتميز بصيف حار وجاف، وشتاء بارد وقليل الأمطار، وقد انعكس ذلك على الاستغلال الزراعي حيث الاهتمام بزراعة الحبوب (القمح، الشّعير والبقوليات) كما تسود زراعة الخضر في السهول المترامية على ضفاف نهر الشّلف وكذا بساتين الحمضيات الممتدة حوله، بالإضافة إلى ذلك يهتم السكان في الريف بتربية الحيوانات مثل الغنم والماعز والبقر والخيول.[214].

إن تاريخ المنطقة حافل بالأحداث، ويعتبر البربر السكان الأصليين، كما قطنها الفينقيون، وكانت الشّلف تعرف في عهدهم باسم " بني واريقن " واشتهرت بها سوق بهذا الإسم، وكانت تقصده قبائل مغراوة وزناتة ومطغرة حتّى أطلق عليها " قرطاجة "في ذلك الوقت لنشاطها التّجاري، وفي العهد البربري وقبل الاحتلال الروماني حافظت المنطقة على وحدتها والتفافها حول زعمائها سواء في عهد الملك " غولا " أو "أرماصينسا "، وخلال العهد الروماني لم يستطع الرومان حكمها بصورة مباشرة، ولم يستسلم أهلها إلاّ بعد قرن وستّة وثمانين سنة"186 " ولم يخضع سكّان الجبال إلاّ بعد فترة طويلة 255 سنة، واستمرت محافظة على وحدتها حتّى العهد الوندالي، حيث كان زعيمها الصنهاجي " ما ستناس " أقوى ملوك البربر بطولة وغيرة، حتّى أن الرومان

---

213 نقلا عن السجل الذهبي لشهداء ولاية الشلف ص07

214 Petite geographie du département du chlef Max Marchand P13

كانوا يحتمون به من الوندال، وقد عاث الوندال فسادا في هذه المنطقة فأصابها الـدمار والخراب، وشمل ذلك كاستيلوم "الشّلف حاليا" وقرطنة "تنس" وزكار ومليانـة واندوم نفوم " عين الدفلى " ويول " منطقة شرشال "[215] كما أن الروم البيزنطيين فيما بعـد لم تستقر لهم الأمور في المنطقة، ولم تهدأ الثّورات في جبـال الظّهـرة والونشـريس وحتّى في السهول الداخلية، وكانت الغلبة دوما للأهالي.

أما في العهد الإسلامي فنجد المنطقة قد دخلها الإسلام مبكّرا سنة 28هـ خـلال فترة حكم الخليفة الراشدي الثّالث " عثمان بن عفّان " حين كان زعيم المنطقة " صولات بن وزمار " المغراوي الشّلفي السنجاسني نسبة إلى سنجاس جنوب شرق مدينة الشّـلف حاليا، وقد اتّصل بالقائد المسلم " عبد الله بن سعد " وقدم له نفسه وسار به إلى الخلافـة بالمدينة المنورة حيث أسلم سنة 28هـ وعاد إلى المنطقة مبشّرا، وبهذا يكون الإسلام قد دخل المنطقة باكرا، وقد عرفت هذه الفترة بعهد الإمارات العربية البربريـة، وكانـت الجهة الغربية تابعة لمملكة " تلمسان " والجهة الشّرقية تابعة ل "بجاية " وظلّـت تابعـة لبايلك الغرب في العهد العثماني وكانت عاصمته مازونة ثم معسكر ووهران، وكانـت مازونة آنذاك منطقة عبور بين الشّرق والغرب[216].وخلال فتـرة الاحـتلال الفرنسـي عرفت مدينة الأصنام باسم " أريونفيل" ولم تحتل هذه المنطقة إلاّ بعد احتلال الجزائـر العاصمة 1843ب13سنة، وارتكب الاستعمار الغاشم آنذاك جرائم فضيعة بانتهاج سياسة الأرض المحروقة.وقد بايع السكان الأمير عبد القادر خلال مقاومته، واعتمد الأمير على شخصيات فذّة من المنطقة للقيادة مثل (محمد بلحاج المجاجي، ومحمد بـن معـروف قاضي القضاة [217] وعند اندلاع الثّورة التّحريرية كانت المنطقة قد عرفت كارثة زلزال 1954، ومع ذلك لعبت دورا هاما في المشاركة في الثّورة، وعدد الشّهداء الذين سقطوا في ميدان الشّرف يؤكّد ذلك.

2/ الحياة الثّقافية:

---

215 نقلا عن السجل الذهبي لشهداء ولاية الشلف ص 09

216 Bureaux Arabes, L'evolution des genres de vie indigenes dans l'ouest du Tell algerien P 176

217 Petite histoire du département de chlef.

ظلّت المنطقة متمسكة بمنهجها السلفي بعيدة عن الصراعات والفتن ممـا جعـل النّهضة العلمية تظلّ فيها مبكرة عن غيرها، وقد أنجبت شخصيات لها مكانتها وعظمتها في العلم والمعرفة أنارت المنطقة بفكرها النير، وعرفت بطولات على مستوى المغرب العربي يعرفون بعلماء المعارف أو صلحاء الشّلف، وكانوا مضرب الأمثال من القـرن الثّالث الهجري إلى الرابع عشر الهجري، ومن هؤلاء " أبو اسحق إبراهيم وعثمان بـن عطية وإبراهيم بن يخاف وحسن الونشريسي"... كما نجد منطقة سهل الشّـلف عرفـت بإنجابها لعلماء وفقهاء، وتأسست بها مدارس ومعاهد، ولها الشّرف أنّها أنجبـت أحمـد الونشريسي صاحب المعيار، كما أن المنطقة عرفت بمعاهد الفقه والتّـدريس للقطـب الولي " محمد بن علي وأخوه بواعلي، وقد حازت زاويتهما على السبق في تدريس الفقه والعلوم بمنطقة مجاجة، كما كانت مدرسة بمنطقة "مازونة" (والأسماء لا تتوقّف عند هذا الحد، بل إن سعيد قدورة والشّخ المطماطي وعبد الرحمان المجاجي ويحيـى الشّـاوي والملياني وبن عشيط وبن سحنون وبلقاسم البوزاغتي ومحمد بن بهلول وكـلّ هـؤلاء تفتخر بهم المنطقة كعلماء وفقهاء ولغويين ومحدثين وحتّى زعماء سياسين مثل عبد الله المحسن الملقّب بالبشر الونشريسي الساعد الأيمن لابن تومرت وأحد العشـرة الـذين أسسوا الدولة الموحدية) [218] وخلال عهد الإستعمار استمرت المنطقة في أداء رسـالتها الفكرية، وكانت مازونة إحدى قلاع العلم ومقصد الطّلبة من كلّ فج، هذه البلدة التي لـم تجلب اهتمام المستعمرين فبقيت المدرسة التي أسسها سيدي أمحمد بن علي مـع ابـن الشّارف المازوني بداية القرن الحادي عشر الهجري تزخـر بطلبـة العلـوم والفقـه. كما كانت هناك كتاتيب يشرف عليها شيوخ ومعلّمي قـرآن، وكـان الطّلبـة يجـدون المساعدة من محبي الخير من الأغنياء في المنطقة، هذه المدارس تمد كلّ مناطق الوطن بالطّلبة للتّدريس في المساجد التي ما زالت منتشرة في الجزائر وبخاصة الجزء الغربي منها، ومن نماذج هذه المدارس: مدرسة الشّيخ الجيلالي بن عبد الحكم في الأصنام وقد أسسها مديرها الشّيخ الجيلالي 1354هـ الموافق ل 1935م.

---

218 أبو عبد الله غلام الله /التعليم في سهل الشاف مجلة اللغة العربية،نصف سنوية تعنى بالقضايا العلمية والثقافية،المجلس الأعلى للغة العربية،شتاء 2005، ص36

3/ المجتمع الشّعبي:

تجود الشّلف بتّراث شعبي ضخم متنوع من الحكاية الشّعبية إلى الألغاز والأمثال وقصص الأولياء وسير الصالحين، وقد اختار الباحث قسما من هذا التّراث يتمثّل في جمع كرامة الأولياء، وتسجيل ما يلاحظ على هذه النّصوص من خصائص وميزات، ثم وصفها ودراستها. وقد مكّنت طبيعة البحث الميداني من الاتصال بمجموعة من الأفراد لجمع المادة القصصية (جمعها ومعرفة البيئة التى تحيا فيها)، واعتمدنا لبلوغ هذه الغاية سبيلين:

الأول: الاعتماد على ما كتب من قبل الباحثين والدارسين في هذا المجال، يضاف إلى ذلك بعض المخطوطات التى نقول بأنّها قليلة، وما هو موجود يصعب الإطّلاع عليه لأسباب عدة.

الثّاني: الاتّصال المباشر بمن لهم اهتمام ودراية بموضوعنا، ومن التّجربة الميدانية يمكن تصنيف هؤلاء الرواة باعتبار أعمارهم ورصيدهم المعرفي ومستواهم العلمي ومكانتهم الاجتماعية وبالطّبيعة دورهم وتفاعلهم مع أفراد المجتمع، مع ملاحظة بعض الخصائص والميزات لهؤلاء الرواة.

- محترفون لفن سرد قصص الأولياء، ويمارسون هذا العمل في الأسواق والمواسم التي تقام للأولياء أو ما يسميها البعض " الوعدة أو الطّعم ".
- أئمة المساجد وشيوخ الزوايا، وتعتبر كرامات الأولياء ومعرفة سيرتهم ومناقبهم من جملة معارفهم في مجال الفقه والدين.
- شيوخ كبار اكتسبوا خبرة وتجربة في الحياة ويجمعون بين الأجيال.
- أساتذة وموظّفون أصحاب شهادات علمية.
- أناس من عامة الشّعب لا يملكون مستوى علمي ولكن لهم رصيد قوي من الذّاكرة الشّعبية بمختلف مناحيها.

كما نسجل ملاحظات عن لقائنا بالرواة

- منهم من يرفض الحديث معنا خارج بيته ويقول: إن هذا الحديث يحب الستر.

- البعض يروي بعض القصص ويقول: لدي قصص أخرى ولا يمكن لكم الاطّلاع عليها، وأرفض أن أذكر السبب.

- هناك من وعدنا بأخبار وقصص كثيرة عن مناقب الأولياء ولكن فيما بعد رفض أن يبوح لنا بأي كلمة، فعدنا من موعده بخفّي حنين.

- البعض يملك مكتبة غنية من التّراث والمخطوطات عن جده وأبيه، ولكن يرفض فتحها للباحثين بحجة أنّها وصية الميت، وفي حالة خيانة الوصية سيصاب بالدمار والمصائب.

- الكثير من رواة الكرامات لا يهتمون بالموضوع وحينما سألناهم قالوا: كنّا نهتم في القديم منذ سنوات عديدة أما الآن فالمجتمع صار لا يبالي بهذه الأشياء ولا يقدر قيمة الأولياء في حياته.

- بعض المتحدثين عن الموضوع يقولون: أن والينا كان يتحكّم في كلّ الأولياء، وسمعنا منهم عبارة (الولي انتاعنا كان الشّاف انتاعهم).

- بعض الرواة حين سألناه عن الولي صار يسرد مغامراته المختلفة في الحياة وقال: هذه أولى بالتّسجيل، والله أكرمنا بهذه الخوارق.

- سمعنا الرواية الواحدة بصيغ مختلفة، وبعضهم يشترط قبل أن يحكي لنا أن يسمع منّا كلّما جمعناه من الآخرين، ثم يقول: كلّ هذه الأخبار خاطئة ولا تصدقوها، والصحيح الذي لا شك فيه ولا مراء هو ما أعطيه لكم فقط.

4/ حكاية الكرامة:

طبيعة الجمهور المتلقي للكرامة:

لم يتمكّن الباحث من تحديد كلّ المواقع لهذا المتلقّي، ولكن وجدنا بعض الحلقات في المساجد أو بجوارها تحكى فيها هذه القصص والأخبار، كما تحكى في المواسم

والمواعيد التي يتلقّى فيها النّاس في المقام لإطعام النّاس، وتذكر مسيرة الولي مع ذكـر الله وتلاوة القرآن.

ومن صفات هذه المجالس وطبيعة الحلقات أن الشّيخ يحكي والمجتمعون حولـه يصغون في صمت تام، لا صوت يسمع غير صوته، ولا تعقيب على كلامه إلاّ بعـض العبارات في نهاية القصة: الله ينفعنا ببركته

- هذا الكلام صحيح سمعناه من الشّيخ فلان
- كان ولي صاحب كرامات ظاهرة باينة كيما الصباح.

كما تحكى مثل هذه القصص في المآتم والمناسبات الدينية المختلفة الأعيـاد، الإسـراء والمعراج، وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وعاشوراء....الخ ويجـد الـرواة فـي السوق الشّعبي الأسبوعي الذي يقام في وسط المدينة كلّ جمعة، وللرواة جمهور عريض ينتظرهم بشغف، وفي كلّ مرة يسمعون غزوة أو قصة عجيبة أو حكاية نبي من الأنبياء أو رواية سيرة ولي أو أحد الصالحين.

ومن هذه الحلقات صادفنا حلقة راو يحكي عن سيرة سيدي أمحمد بـن علـي بهلـول المجاجي، ومن حسن حظّنا وجدنا القصة لم تبدأ بعد وسمعنا النّاس يطلبون من الراوي أن يبدأ فقال لهم:" اصبروا حتّى يتلم الغاشي " وبدأ ينشد بعض القصائد ليشد الحاضرين، وكان معه اثنين واحد يقصب واحد يضرب البندير وبدأت القصـة بالسـرد والمـديح المناسب للأحداث، والنّاس تصغي بصمت واهتمام بالغين، ثم يتوقّف عن الحديث ويقول للجمع: (مدوا صدقة لوجه الله ما تبخلوناش ما زالت القصة طويلة) ويدور على النّـاس ويجمع ما أمكن من الدراهم، وينطق من الحاضرين (اعطوه يا جماعـة بـاه يكمـل الحكاية).

وفي الأخير اقتربنا منه وأبلغناه اهتمامنا بهذا التّراث ورغبتنا في محاورته فقبل الدعوة فرتّب لنا موعدا وكان اللقاء.

الإسم الكريم: سي امحمد بن الطّاهر

العمر: 67 سنة

السكن: بقعة التقاقرة

واش تخدم: راني في لنتريت / خدمت في لاواري 27 سنة

واش تاهي لا واري: الكوبانية تاع البونشوسي اللي تصنع الطّرقان والقناطر

شكون اللي أعطاك الكلام والقصايد: اديت على ابوي والكبـار رب يـرحمهم وكنـت نحضر الطعومات، ونروح للركب ونسمع ونشّد ونبات نقرا معاهم.

كيفاش ابديت تروح لسواق وادير الحلقة: النّاس ازنين يجوني حتّـى لـداري ويبغـو يسمعو كلامي، واللي نقولو أنا ما فيهش الخاطي.

أنا نمدح الرسول ونحكي على الصحابة ونشّد القصايد.

بسم الله والحمد لله نـــــبتد الإنشاد   في بحر امريح الغالي ابديت انجول

نشكر و نعظّم في جـــــــيد لجواد   ســلطان أهل الله الفارس المقبول

سيدي امـــحمد بن علي اضيا لثماد   مــــولى مجاجة وانا عليه نقول

مولى مجاجة يسوى اشكار انــظامي   به الأرض ازينت واستنار الكون

درت امديحه واجب فرض في كـلامي   وذا قلت اعلى غير إلا مسنون

كي نبدا في مدحه ينصلح غيـــــامي   يفرح الــــقلب اللي كان مغبون

هذا الغوث استمداد من الرسول

صفى الأرض اغسلها ما بقى فسـاد   وانشر الصلاح على المدن و التلول

عمر بالتّقوى والعدل كل بـــــلاد   واصـفات القلوب اللي بقات غلول

مولى مجاجة واني عليه نقول

لسانه ما يغفلش على الــــشهادة   غـــارق فـــالتّوحيد وعالم الفنون

ربي اعــطالو برهان خرق العادة   يتصرف حكم ما بين كاف ونون

تـــــوفيق من الله للقدر و الإرادة   حتّى يقول للشيء كـــون فيـكون

لاهي غير بخدمتو بخالقو مشغول

ســـــاجد راكع قايم ما يجيه رقاد   صـــايم دايم عمر ما غبط مأكول

عــــــالم عامل عابد زاهد الزهاد   مــــانع جامع للمعقول و المنقول

مولى مجاجة واني عليه نقول

انفي الباطل و الــبدع والضلال   جزاه الله خير على المسلمين

ما ذا خرج عـلامه من الجهال ماذا من عصاة اضحاو طايعين
قايم بالفرض و السنة مع التنفال وانشر اعـ ـلام الإسلام واحيا الدين
قرى فروع الـ ـ ـ ـفقه بـالأصول
ايجاهد في النّفس بغاية الجـهاد مـ ـ ـاسك ناسك فحل من الفحول
أعلام الحـقّ اطلع فالسما ينادي واطوى البـاطل وعلام اضحى مبطول
مولى مجاجة واني عليه نقول
طـاعت ليه عباد الله راجل وامر في كل انهار ايجو ليه بهدايات
خـدماتو اهل المدن واهل الصحر والتلـ ـ ـى الكل جاو بالقادات
يـعطو غفر ويزيد و معاه الزيارة من كل اقـ ـبيل يجو ليه بالوعدات
نيتهم فالشيخ اصفات ليس اتحول
مـالسودان السند اليا من البغداد من سويس للأقصى لمدينة اصطنبول
والعراق وخراسان و الأهـ ـناد غفرلوابد الإسلام عـ ـرض وطول
مولى مجاجة راني عليه نقول
هـذا النشد مجبر كالعقد انظمت فالعام الرابع من قرن اربعطاعش
في ربيع الثّاني يـ ـالفاهم قلت يـ ـ ـوم الجمعة الـ ـموفي ثناعش
من بعد مـا قمت العصر صليت جـ ـنـد علي كيف النّحل مراحش
مكتوب قبالي ببيان وفصول
يرحم امحمد بن عثمان والاجداد والوالدين والخوى انثا ورجول
واهل واقـراب و ما ولد اولاد والمـ ـ ـومنين الكل كافة بـاجمول

ملاحظة

تنسب هذه القصيدة إلى الشيخ الفتية " محمد بن عثمان الغريسي الذي جاء في هذه الفترة من معسكر إلى تونس ودرس بها الفقه بجامع سيدي معيزة، وكان يأتي إلـى مجاجـة بزاوية سيدي امحمد بن علي ويحضر جلسة الفقه والتّفسير عنده.الطّقوس والعادات يمثّل حضور الولي في واقع المجتمع أثرا ملحوظا، ويتّضح هذا في شكل سلوكات وعـادات

أصبح لا غنى للنّاس عنها، يرجعون إلى الولي في مناسبات مختلفة وظـروف شـتّى، وقبل عرض بعض النّماذج رأينا تدوين ملاحظات ومشاهدات تتعلّق بالموضوع.

- يزور النّاس مقام الولي في الأعياد والمناسبات الدينية، وتكون الزيارة عموما في الصباح أكثر من المساء، وجنس النّساء أكثر من الرجال.

- تكثر الزيارات في فصل الربيع ثم الخريف والشّتاء ثمّ الصيف.

- أكثر الأوقات التي تقام فيها الوعدة والموسم في الخريف والشّتاء.

- تكون الزيارة فردية وجماعية، وتبرز هذه الأخيرة في الاحتفالات والمواسم.

تتعدد أشكال الزيارة وتختلف مقاصدها وليس في وسعنا حصرها وعدها ولكن لا مانع من ذكر بعض النّماذج.

- يقصد أحدهم الولي لإحساسه بالظّلم أو سلب حقّه فيرفع شـكواه، وأمـره لله ويأخـذ احتجاجه زيارة للولي وإكرام خدامه أو الجماعة المقيمة بالمقـام لاسـتقبال الضـيوف، ويكثر هذا الطّقس عند النّساء والعجائز خاصة، وقـد زار الباحـث الحاجـة مريحـة (76سنة) والتي اعتادت رد الظلم بزيارة الولي سيدي يحي وتقول: إنّه يسمعها ويجيبها، وترى ذلك في عدوها، ولما رأت إلحاحنا لأجل الإحاطة بكنه ومعرفة طبيعة مثل هـذا الّطقس ذكرت لنا أنّه منذ عشرة أيام جاءها عمها الذي يتصرف في زراعـة أرضـها واستغلالها بغير حقّ تقول: توجهت إلى سيدي يحي وقلت له:(يا سيدي عمي فلان ابـن فلان ما خافش ربي وضربني وظلمني ودالي حقّي، وراني جيتك نبكي بالحفا وشـعلتك ونورتك وصلحتك) تعاوني عليه وتدعي معاي ربي يصلحو مالدنيا ويبهدل بيه ويرسمو صورة قدام لعيان، وتخليه متمرمد ومتمرقد، انتقم منه، وخلط ليله في نهاره ودرلو زادو ومزودو وهد ساسسه، ياسيدي نوعدك ونعاهدك فالشباك، يلا راهي تكلمت فيه وخرجت واطّرقت راني نسبغك ونلبسك ونطعمك.

- يتوجه المريض لزيارة الولي، وخاصة المصاب بمرض مزمن استعصى علاجه على الأطباء، فينصحه النّاس بقولهم:(روح اطلب الولي ما تعرفش الحكمة في الشّجر ولا في الحجر، يقولوا الدواء أصله من التّراب)، وتتعدد أشكال زيارة المرضى للمقام، فمـنهم من يذهب ويبقى فترة ثم يعود، وبعضهم يبيت في المقام، وقد توصف بعض الوصـفات

الشّعبية للشفاء من علّتهم، وتأخذ بعض الزيارات مقصـدا للـرزق أو الحـظّ الحسـن والأولاد الحلال، وقد يحصل للبعض أن رأى رؤيا فيقول: جئت إلى الولي لأنّه نـاداني في المنام، ويحدث للبعض حوادث مختلفة فينجو من المهالك فيلجأ إلى الولي شكرا لـه لأنّه يمثّل له الحماية، وتفك بعض النّزاعات والخصومات، ويعقد الصـلح فـي المقـام ويكون الولي شاهدا على ذلك.

- وتمثّل الزيارة لمقام سيدي امعمر طقسا خاصا حيث تلزم المرأة بشروط خاصة فـي الزواج ومنها أن لا تتجاوز مقدار العرف المحدد من قبل الولي " ربع دينـار ذهـب "، ويضاف إلى ذلك جملة من العادات والشّروط التي يجب على أحفاد وأتباع سيدي امعمر الالتزام بها وإلاّ أصابهم غضبه، وتلجأ المرأة التي تحيد عن شروط ومواصـفات هـذا العرف إلى المساوسة، وهي تجرد المرأة من حليها بعد الزواج، وتخرج من بيت زوجها تحمل قصبة بيدها وخلخال وظفيرة دوم برجلها وتمشي حافية مدة ثلاثة أيـام أنصـاف ضحى تجمع ما يعطى لها من مال وحبوب وصدقات وهدايا مختلفة مقابل قولها لهـم: معروف سيدي امعمر "، وبعد الانتهاء تقسم كل ما جمعت نصفا لزوجها يفعل بـه مـا يشاء والنّصف الآخر تذهب به إلى مقام سيدي امعمر، وتقر بالخطيئة وتطلـب العفـو، ومن يتمادى ولا يتبع هذا الطّقس فإنه يخاف على حياته ومستقبله، وكما هو معروف هنا عند أهل سيدي امعمر " من شذّ عن القاعدة يكون الأمر المنتظر إما يوم التّعراس أو يوم التّنفاس"، والأمر هو موت أو إعاقة مرض خطير أو حريق أو مصـيبة لا يتصـورها المرء نفسه.

وخلاصة القول إن كرامات الأولياء من المعتقدات الشّعبية الراسخة فـي كيـان المجتمع الضاربة بجذورها في أعماق التّاريخ مسايرة له، واصفة معبرة عن الحوادث، مقدمة الحلّ للكثير من الأزمات والقضايا التي شغلت الفكر، وأقلقت النّفس، كما عبـرت عن آمال الأمة وأحلامها، وتعد الكرامات رافدا من روافد التّراث الثّقافي الذي حملتـه الذّاكرة وأصبحت مادة لا غنى عنها للمؤرخ وعالم الاجتماع والنفس والأديب والباحـث على السواء، كلّ يستقي منها مادته ويجد فيها الإجابة عن تساؤلات كثيرة، وتعد عنصرا من مكونات ثقافة الفرد التي بها يتحدد نمط سلوكه وطبيعة فكره وفلسفته ونظرته للحياة،

وتصوره للعالم الخارجي، ومحاولة إدراك العلاقة بـين الـواقعي والغيبـي، المجـرد والمحسوس، الظاهر والباطن، الوصول إلى ما وراء الطبيعة، يؤكد الباحث بورايو بأنّه (لا مناص لدارس أشكال التعبير الشعبي من التعرض إلى ما هو مشترك بـين جميـع النّاس، وخاصة ما يدخل منها ضمن نسيج فنون التعبيـر الشـعبي) نجـد المعتقـدات والطقوس والعادات هي القاسم المشترك بين الأفراد، وتحيا الكرامة في بيئة الصالحين، ونجد أتباعها من المؤمنين بربهم الذين لهم صلة وعلاقة وطيدة بالأولياء المتجسد فـيهم صفة الغرباء، رجال الله في الأرض، فالمؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره، يدفعه إيمانه للإطلاع على سيرة الأنبياء والرسل والبحث في طبيعة المسلك الذي نهجوه لتبليغ رسالتهم ثم البحث في سيرة الصحابة والتابعين وكـل الـذين أحـبهم الله، ومنهم الأولياء، أرواح الله، مفاتيح الفردوس، ورثة الأنبياء المتصفون بالطهر والنّقـاء والعفّة والتّجرد من الدنيا لذات الله. وللذّاكرة الشعبية فضل كبير في الحفاظ علـى هـذا التّراث وصونه من الضياع، ويلاحظ أن الكتابة في هذا المجال نادرة تقتصر على بعض المخطوطات القديمة التي تحكي عن أخبار ومناقب الصالحين والأولياء أنفسهم لم يدونوا كراماتهم ولم يترجموا لأنفسهم، فالحكايات يحفظها الشيوخ كبار السن ورجال الصـوفية وبعض الأئمة وأعلام الزوايا، يروي هؤلاء ما ورثوه عن الآباء والأجداد، ولم يكتـب الأتباع عن شيوخهم، وربما يعود ذلك إلى أن هذا النّوع من الأدب لم يجد الاهتمام بـه، فظلّ يعيش على الهامش، ومع ذلك ظلّت الكرامات حيـة تنـبض بسـيرة الصـالحين ومناقبهم، واكتسحت مساحة واسعة في المساجد والمقامات والأسواق وفي أماكن مختلفة في القرى والأرياف والمدن تحضر بقوة في مناسبات الأعياد والأفراح والمآتم وتـذكر في المواسم والمواعيد التي يكون فيها اجتماع النّاس للذكر وتـلاوة القـرآن وإطعـام القاصدين الوافدين ضيوف الولي الصالح، والذين جاؤوا إحياء للذكرى واقتفاء للأثر.

والأولياء هم رجال مقربون إلى الله لهم إمكانية الاتصال به أكثر مـن غيـرهم، ولهم قدرة عجيبة على الأفعال الخارقة، يقصدهم المريض فيشفى، ويسألهم ذو الحاجـة فيرزق، فيظل الولي ملاذ قومه ومرجعهم ومرجعيتهم في السراء والضـراء. فالمقـام والضريح رمزا له يقصد ويزار ويسأل لرفع الغبن وتخفيف الآلام والمآسي فالولي يحب

ويفعل ما فيه المنفعة للجميع، وهو رمز محبة الله بصفته النموذج الأقرب إليه ودعوته مستجابة لا ترد وكما ينفع الناس قادر أن يضرهم ويلحق بهم الأذى، فالذي يتمادى في طغيانه ويتعرض للصالحين، تصيبه اللعنة والسخط.

5/المتن:

كرامات سيدي امحمد بن علي:

الحكاية الأولى:

قال الشيخ أبو الحسن الشريف: خرجنا إلى ثغر تنس فلقينا محمد بن علي وأنزلنا بزاوية مجاجة، وكنا في جوع ونحن نحو 1300 نفس، وقصدناه للزيارة فأكرمنا خارج الزاوية لكثرتنا، وكانت خيولنا ذكورا وإناثا، فقال لنا: أتروكها من ألف بين قلوبكم يؤلف بينها وأمرنا بالجلوس في 24 جلسة، وأفاض علينا الثريد واللحم والعسل والسمن.

الحكاية الثانية:

ذكر أن سيدي امعمر بن العالية وسيدي معيزة كانا يدرسان عند سيدي امحمد بن علي في زاويته بمجاجة وعندما ينتهي الدرس ويخرجان من الزاوية يعودان إلى تنس وذات يوم رأهما راع بعدما ابتعدا عن الزاوية قليلا تشكلا في هيأة طائرين وحلقا في الجو وعادا إلى تنس. وذهب الراعي وأخبر سيدي امحمد بن علي وفي اليوم التالي بعدما خرجا لحقهما في هيأة نسر كبير.

الحكاية الثالثة:

ذكر أن المنطقة عاشت أزمة ماء فجاء الناس إلى الولي وشكوا أمرهم فجاء مع أحد طلبته وقال له: خذ العصا واضرب الأرض في ثلاثة أماكن، فخرجت كلها ينابيع عذبة، وصار الناس يشربون منها.

كرامات سيدي بن شرقي:

الحكاية الأولى:

الدرك خرج يدير دورية مع الفورستية وركبوا على الخيل ولما قطعوا الواد الشاف انتاعهم طاحلو السكين انتاعوا في الماء وداه الواد، السكين من الفضة ومربط بالذهب. كي وصلوا عند سيدي بن شرقي قالهم العربي الترجمان انتاعهم: أنا لازم نزور "**المارابو**" قالوا القاوري:أنا اليوم لازم نروح معاك نزورو، كي دخلو عليه سقس سيدي بن شرقي العربي وقلوا مال هذا الرومي مقلق كاشما ضاعلوا رد عليه لا يا سيدي لما جينا وقطعنا الواد ضاعلو السكين في الواد، وراه خايف على روحوا، دخل يدو تحت البرنوس وجبدو وعطاهلوا، خذاه الرومي وبقى يدقق فيه وانخلع وقلوا هذا هو. وبدا الرومي يقول للناس: هذا ربكم ما هوش المارابو.

الحكاية الثانية:

سيدي أبو عبد الله تاع ارزيو جاء مع زوج يختابرو سيدي بن شرقي في مسائل فقهية وقبل ما يوصلو قال سيدي بو عبد الله في نيتو راني حاب العلم وقال الثاني راني حاب الفلاحة وقال الثالث التجارة. ويلا طلع سيدي بن شرقي على نيتنا راه ولي الله. ولما دخلو عليه ما قدروش يتكلموا خبرهم سيدي بن شرقي كل واحد بنيتو وجاوبهم على المسائل بلاما يسألوه.

الحكاية الثالثة:

أم مع زوجها ادات وليدها وراحت تزور سيدي بن شرقي قطعو الواد كان حامل، الصبي طاح لهم في الماء وداه الواد. قال الرجل لزوجتوا أسكتي ماتهدريش اللي أعطاه هو اللي داه، خليفتنا على ربي، كي وصلو عند الشيخ قالهم وين رفيقكم قالوا ما عندنا رفيق يا سيدي، دخل يدو تحت البرنوس وجبدو واعطاه لإمه.[1]

الحكاية الرابعة:

يقولوا عام الغبينة والميزرية واحد سرق برنوس كحل، و كي تهموه انكر قالهم وين تحبو نروح ونحلفلكم أداوه للشيخ سيدي بن شرقي قلو نحلف بالله ما سرقتو قالو الشيخ أنا أنخبرك كيفاه تقول قول: " حق هذا العام لكحل من بعدو رايح يجي عام اللي

يقيس قصعة يدي فحل، البرنوس لكحل ماني داسو في الرحل"، أجابه السارق: " مسـلم ومكتف يا سيدي البرنوس لكحل راه في الرحل وراني تبت".

الحكاية الخامسة:

راجل حب يزور الشيخ وما قدرش انشغل بالفلاحة لقى راجل رايح عند الشـيخ فاعطاه الزيارة انتاع الشيخ." ريال " وقلو: بلغ الشيخ عذري و سلم عليه، الرجل فـي الطريق اطمع في الريال وقال الشيخ واش ايدير بيه نصنع بيه صباطي ثم خاف مـن دعوة الشيخ واعطاهاو ردولو وقالو أديه أصنع بيه صباطك.

الحكاية السادسة:

ضربت ريح عاصفة والناس خافو على زرعهم وخيامهم أركب سيدي بن شرقي على كدية وشد جلالو كي وصلت الريح عندو حبست وبدلت الجهة.

الحكاية السابعة:

جا رجل عند الشيخ يبكي وقالو يا سيدي الغنم انتاعي عندها ثلث ايـام ضـايعة يكون الذيب سلك عليها قال الشيخ لواحد من ولادو قوم ونادي الله ببركة سـيدي عبـد القادر الجيلالي يردهالو ورجعت الغنم في الليل مانقص منها حتى شيء.

الحكاية الثامنة:

يقولو الشيخ مايركب لاراحلة ولاسيارة، ولما يجيه واحد ولما يجيه واحد يدعوه لوليمة ولا مرض يقولو روح راني جاي ولما يوصل يصيب الشيخ قدامو.

الحكاية التاسعة

يقولوا واد شاف طغى وفاض ووصل حتى للزاوية كتبلو سيدي بن شرقي بيـت شعر ورماه فيه وقلوا:

ياقادر اهلك عدوي بكيده   ومقتدرا رد الكذوب المقوالا

الحكاية العاشرة

واحد انحبس وليدوا في الحرب وجا اشتكى بشوقه للشيخ، قالو روح وادعي ربـي وارجع بنو في هذيك الليلة.

الحكاية الحادية عشر:

يعاودوا علينا جدودنا قالو الشيخ كان مسافر مع واحد في الطموبيل مـع واحـد وطاحت بيهم أمبان وعرف الشوفار بلي ليسونس خلاص قالو الشيخ روح جيب المـاء من الواد و فرغ فيها وما تخبر حتى واحد وفرغ لها الما مشات وبقى الرجـل يمشـي بالما ستة أشهر، وحد اليوم تقلق وقال للناس أنا راني متعجب في روحي البومبة مانيش نروح ليها خلاص وكي ركب في طموبيلتو مابغاتش تنوض حيرة قاع الصانعين حـت بدل الموتور كامل.

الحكاية الثانية عشر:

يقولو عام من لعوام شعلت نار كبيرة في الزرع وقت الحصاد وما قدروش الناس يطفوها وراحت عولتهم راحو لسيدي بن شرقي قالهم ماتتهوولوش مايكون غير الخيـر، انفض عليها الما بيدو ثلاث مرات رجع الزرع كيما كان وما صابوش الرماد تاع النار.

كرامات سيدي امعمر:

الحكاية الأولى:

يقولو سيدي امعمر كان راعي عند سيدي يحي و كل صباح يجيه سبع للمرعـى ويسرحلو بالنعاج وفي كل عشوة يشرب الغنم ويرجعها وحد اليوم ماصابش الما وبقى حت لليل يحوس مشرب. تقلق الشيخ سيدي يحي وخرج مع القناديز يحـوس عليـه، صابو عازل النعاج ولما شافوا سيدي امعمر ادعى ربي وقالو مـا تخيبنـيش وغـرز العصا في الارض فتفجرت الارض بالينابيع وشاف سيدي يحي الغنم تشرب ورجعـت للزريبة. في الصباح ناداه وقلوا روح يامعمر والي ما يحكم في والي.

الحكاية الثانية:

مرأة استهانت بعرف سيدي معمر و قالت بنتي ماهيش معزة نزوجهـا بربعـة دورو، الصباح قامت الطفلة وشعر المعيز في ذاتها حارت الأم جاوها الناس وقالولهـا هذي ما تكون غير دعوة سيدي معمر روحي اكرميه وقوليلو يسمحلك وبعدما راحـت ليه سمحلها و رجعت بنتها شابة أحسن من الأول.

الحكاية الثالثة:

زوج نسا زارو الشيخ كي خرجو لقاو السما تلقا الارض والقطرة تسحم عـود، حط يدو عليهم وقالهم روحو راكم في حماية الله.

- **الحكاية الرابعة:** جماعة جاو يزورو الشيخ كي خرجو كانت المطـر غزيـرة ورجعوا للشيخ وقالولو دبر علينا الواد حمل وما قدرناش نقطعوا غرز العصا في الـواد غار الماء وعاد الربيع كيما كان الحال.

الحكاية الخامسة:

يقولو المطر نزل بزاف والواد فاض وحمل وجاب معاه الشـجر، والنـاس مـا عرفوش كيفاه يقطعوا، حط سيدي معمر العصا انتاعو وقعطعوا عليها.

الحكاية السادسة:

يقولو الواد حمل والناس حارو في امرهم وكي راحو لشـيخ قـال " بسـم الله " وضرب الماء بالعصا صار الطريق في الوسط.

الحكاية السابعة:

امرأة سيدي بوعبد الله انتاع غيليزان طال عليها الحال وما ولـدتش قـال لهـا روحي زوري سيدي معمر، كي راحت قال لزوجتوا وجديلها الشوالق وفـي الطريـق قبضها الوجع ولزت عن وحد الشجرة وولدت طفلا سمته عابد وكي سمعو الناس بيـه قالو هذا عابد العجب وداروله قبة وراه والي.

الحكاية الثامنة:

سيدي معيزة استخدم سيدي معمر عساس على الجنان وفي يوم جاوه الضـياف وقالوا روح للجنان وجيبلهم الفاكهة، جابلهم الرمان حامض قالوا روح جيب وحد آخر

وكان في المرة الثانية حامض وفي الثالثة كذلك حار سيدي معيزة وقـالو كيفـاه راك تجيبنا غير الرمان الحمض قالو ياسيدي أنا ما ذقتوش باه نعرف الطيب من الحامض.

كرمات سيدي مروان البحري

الحكاية الأولى:

يقولو سبع كان يهجم على النعاج والبقر والناس اشتكاو لسيدي يحي وقال لطلبة عليكم بهذا السبع واقتله وريحو الناس من فسادو و كان سيدي مروان واحد مـن القناديز وذات يوم جا والسبع يتبع فيه وكي شافو سيدي يحي سرحو وقالو روح " شيخ مايقري شيخ"

الحكاية الثانية:

البحر شح وماحبش يعطي للناس، كي راحـو لسـيدي مـروان غطـس البرنوس انتاعوا في الماء خرج معمر حوت.

الحكاية الثالثة:

طاحت نار في دار وهربو مواليها وخلاو وراهم صبي صـغير وقـوات النار وحتى واحد ماقدر يسلكو، راح سيدي مروان ودخل في النار وسلك الصبي.

كرمات سيدي يحي

الحكاية الأولى:

جات عوام القحط وكلاو الناس الحب وما لقاوش واش يزرعـوا راحـو لسيدي يحي قالهم لمو التبن واحرثو وازرعوه وقولوا:" الحرث حرثنا والسبولة والرزق على ربنا " عملوا واش قالهم جا خير كثير.

الحكاية الثانية:

سيدي يحي كانو عندوا قناديز يعتامدو على "الرتبة"* ومـرة ماصـابوش واش ياكلوا راح لشجر العليق وضرب لعراف بالعصا فصار التوت يسقط وكلاو حتى شبعوا.

الحكاية الثالثة:

يقولو الذئاب جاءت وصارت تهاجم الناس ووصل خبرها لسيدي يحـي خرج على بغلتو وهاجماتو الذئاب من كل جهة، البغلة ضربت بالحافر خرجت النـار فاللي هرب هرب والي انصعق انصعق.

6/ دراسة الكرامات:

تعتبر دراسة الكرامة حالها مثل أي نوع من الآداب العربية باعتبار المادة التـي تقدمها في شكل قصص نثري، تعابير وأفكار في قصائد شعرية تسجل مـآثر الأوليـاء تحمل دلالة المثل والحكمة والجمل الصوفية والتي بها يعبر الصوفي عن مناحي العـالم المطلق ,الفضاء والسلوك الروحي السماوي ,يعبر عن الواقع الملوث بالتراب والـدنس فينشد العالم المقدس في الملأ الأعلى ,وانطلاقا من الأهمية البالغة التي أولاها الباحثون والدارسون لهذه المادة ,حتى أن بعضهم جعلها علما قائما بذاته ,يدرسها ويحللها ويفـك رموزها ويبحث في بيئتها ومحيطها.وعلاقتها بصاحبها1 وذكـر صـفاته وخصائصـه وطبيعة علاقته بأفراد المجتمع, ويمتد البحث إلى علاقة الكرامة بالأجنـاس المجـاورة وكيف تفاعلت معها أخذا وعطاء, ملامح التأثير و التأثر في البيئة الاجتماعية والفكرية , وعلاقتها بمحيطها الذاتي الداخلي وكيف تتعاطى مع أفراد المجتمع والمتغيـرات عبـر الزمكان وسيرورتها وفق التقلبات الهندسية التي تعكف على تغيير ملامح الخريطة بين هذا الحين وذاك.

خصائص المتن:

قبل الخوض في الكلام عن طبيعة هذه النصوص رأينا من الأهمية وصف البيئة التي تعيش فيها وتحديد معالم محيطها وانطلاقا من أن جمع المادة سـابق لدراسـتها، قمنا في البداية برصد الأشخاص المهتمين من شيوخ وأئمة وأساتذة وطلبة وعامة الناس ,وبعد تحديد ملامح الخريطة بدأنا العمل الذي أبرز في طريقنا قضايا كثيرة عن طبيعـة الرواة واختلافهم من حيث الاهتمام بالموضوع، وقد سبق الحديث عن هذه الظروف في المقدمة بعد جمع المادة , كان لابد من وصـفها وتصـنيفها حتـى يتسـنى لنـا فهـم طبيعتها,ومعرفة الخصائص التي تطبع النصوص جملة ونلاحظ فيما تختلف ومـا هـي

العناصر المكونة لها ,والتي تظهر في الأشكال والتعابير عن مضامنيها ومن ثم إدراك ما يشدها إلى الوسط الذي يحتضنها، ينبغي الوصول إلى معرفة الوظيفة التي تؤديها كل حكاية.

- ما يلاحظه الباحث هو أن هذه الحكايات بلا عنوان، ونجد أفق المتلقي غير محضـر للسؤال عنه، وذهنه خاليا من هذا البيان، وكما لا يخفى فإن العنوان يدلّ ويخبـر عـن صاحبه، وفي النّص هو إحالة القاريء إلى المضمون بشكل عام، فهو الاسم الشّخصـي المميز للنّص، ويحيلنا إلى الأصل التراثي له والذي يتحدد به المعنـى العـام [219]. إن الإحالة المرجعية تكون ابتداء من الرأس " العنوان " قبل الولوج في مثالب النّص، ومن هنا تبرز الأهمية البالغة والوظيفة المركزية للعنوان، ونحن لا نقرأ في البداية الـنّص، إنّما عنوانه أو عنوان صاحبه، وبما أن العنوان هو الذي يقدم صاحبه ويميز نصه فـإن إسم صاحبه لا يكون إلاّ يافطه تخييلية تنسحب لتترك العنوان يواجهنا، يتسلل إلى النّص ويرتبط بخيوط تشابكه ليتحول بدوره إلى نص [220]، فالعنوان هو نص مكثـف للـنص ومواجهته هي بمثابة دخول أولي إلى النّص قبل قراءته، فالعنوان إن لم يعرفنا بكامـل أسرار النّص فهو على الأقل يقدمه لنا، نستخلص من هذه العلاقة الوثيقة بـين العنـوان والنص كالمخبر والمخبر عنه، وكأنّه باب ينفتح للدخول وذاك فحوى ما ذهب إليه توفيق بكار بين العنوان والنّص، تتسم علاقة مزدوجة كمية وكيفية، فالترابط يتجسـد شـكلا ومضمونا، ظاهرا وباطنا، فإيجاز العنوان يختزل في عباراته النّص مبنى ومعنـى [221] وكأن العنوان بهذا الشكل عصارة رحيق أو زبدة لبن، ولا يمكن لهذه أن تنفصـل عـن ذاك فهي خلاصة منه وهو أصلها، فالعنوان والنّص متلازمان كالوجه والقفـا لصـورة الشّيء الواحد، والعنوان يحمل ما يسعى النّص إلى تفصيله، وبهذا يصبح المقصود في مجال الدراسة والتّحليل المسمى المعطى العام أو الفكرة الشـاملة لمضـمون الـنص، والعنوان يمدنا بزاد كبير وثمين لتفكيك عناصر النّص ودراسته ويقدم لنا معونة كبـرى لضبط انسجامه وفهم الغامض، وهو المحور الذي يتنامى فيه النّص ويتوالد يقول عنـه

---

[219] انظر فريد الزاهي ـ الحكاية والمتخيل ص 11
[220] المرجع نفسه
[221] انظر بكار توفيق، قصصيات عربية ص10، ص95

محمد مفتاح " العنوان يحدد هوية النّص، فهو إن صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي ينبني عليه، غير أنّه إما أن يكون طويلا فيساعد على توقّع المضمون أو قصيرا وحينئذ فإنّه لا بد من قرائن فوق لغوية توحي بما يتبعه[222] مـن العنـوان يبـدأ القاريء النص ويدخل موالجه فهو ينشيء لغزا يعمل النّص على فكّه، ويتّضـح جليـا أهمية العنوان كتقديم مسبق للتعريف بالنص وتحديد مضامينه وأبعاده، والمتعارف عليه عند الناس إذا أردت الوصول إلى شخص فابحث عن عنوانه، فهو الطريق الذي تسلكه للوصول إليه وبدون عنوان قد يصعب الوصول إلى المبتغى.

- تبدأ الحكاية كلّها ب "بسم الله " لفظ الجلالة والعظمة، يقال في كلّ حين عند بداية أي عمل، ولعل الولي هو أقرب الناس إلى الالتزام الكامل بأدب الإقبال على أي عمل خير ومنفعة، وبفعله يريد تخليص النّاس من الأزمات والفتن ويستعين بالله وباسمه ليتحـدى بحول الله وقوته كل مستحيل، فيصبح لديه ممكنا، وقد جاء في الحديث كل عمل لم يذكر فيه اسم الله فهو أجذم، أبتر، ويبين علي زيعور وظيفة اسم الله في الكرامة فيقول:(اسـم الله ...يقوم بوظائف طلسم وكل حركة، أي قادر على اختراق الخوارق، وما الكرامـات في نهاية المطاف سوى تطبيقات لرغبات حققها للصوفي امتلاكه أو ما ظنّه امتلاكا لذلك السر أو الإسم الحاوي كل سر وكل اسم وكل قدرة.[223]

يعتبر اسم الله المفتاح لحل الأقفال، فالصوفي يمتلك الأرقام السرية للدخول إلـى الدائرة المغلقة من كل جهة، فلفظ الجلالة هو إكسير الحياة وعشية الخلـود، والحجـر الفلسفي والخاتم السحري، كلها تمظهرات لرغبة واحدة [224]. فالصوفي يأخذ بالأسـباب والعلل، ومن الله يستمد قوته وخوارقه، وبذكر الله يفك الرموز ويخلّص الناس ويحضر الغائب ويشفي المريض، ويقطع المسافات الطوال في أقل من لمح البصر.

تتشابه النّصوص في بناء الحكاية وتأسيسها على ضائع مفقود، سؤال فـي فـي حاجة إلى جواب، أزمة حلّت بالقوم لا بد لها من تدبير، فيرجع النّاس إلى الولي ليحييهم ويفك اللغز، ويكشف السر الدفين المخبأ في الرحل والدهاليز والأنفاق، يخلّصـهم مـن

---

[222] ـ محمد مفتاح ـ دينامية النص ص 72
[223] ــ علي زيعور، الكرامة الصوفية، ص 69
[224] ــ انظر المرجع نفسه

أزمة الغرق ويمنع الطوفان، ويغير اتّجاه العاصفة أن تصيبهم فهم في مأمن معه من كل بلاء.

تبدأ الحكاية بوصف الأزمة وتنتهي بالحل والتّفريج، فهي تبنى على أساس يغلب عليه طابع الثّنائية والتضاد، تحمل في طياتها الظاهر والباطن، الحقيقة والغيب والخفـاء والكشف، وجميعها تنتهي بصيغة الحل الذي يؤدي إلى الإطمئنان وراحة النّفس، فكـلّ الأسئلة في البداية تجد لها الحل في النّهاية، وكلّ مقفل يحلّ، وكـل ممنـوع يخـرق ويصبح جائزا، وكل مستحيل يصبح ممكنا سهلا، تبدأ كما تنتهي لتعود حالـة السـكون وتطمين الحاجات والسعادة الدائمة [225]، فالحكاية تبدأ بقلق وعـدم اسـتقرار وتنتهـي بنقيض ذلك.

- يغلب على الحكايات سمة القصر، فالنّص لا يتعدى في الحكايـة الواحـدة فقـرة أو فقرتين فيغلب عليها في الأعم طابع الإيجاز، جاءت في شكل حوار، ولم نعثر فيما قادنا البحث حكاية طويلة، وهو عموما تذهب ناهضة ستار "الحكاية، وهـي مجموعـة مـن الأحداث والأفعال السردية تتوق إلى نهاية، أي أنّها موجهة نحو غاية تنظم الأفعال فـي شكل سلاسل تكثر وتقلّ حسب طول وقصر الحكاية". [226] ومما سـبق عرضـه يـرى الباحث بناء على ملاحظات وخصائص أن الرواية الشّفوية لها طبيعتها وخصوصـيتها، فهي تنتقل عبر حلقات كثيرة من الرواية، فهي معرضة للزيادة والنّقصـان والتّحريـف والتّزييف، وكلما كثرت حلقات الرواية ضعفت الثّقة في صحة النقـل وتمـام الحـدث، فتتناقل الرواية عبر أزمنة متغيرة وأمكنة مختلفة، وعبر أشخاص بينهم تباين كبير مـن حيث البيئة التي نشأوا فيها وشربوا منها والثقافة التي نهلوا منها وانتماءاتهم ومـواقعهم في مجتمعهم.يذكر الباحث حكيم ميلود: " إن طبيعة الكرامة كنص شفاهي بـلا عنـوان يمحو كل هوية سابقة وحدها المواضيع هنا تقول هوية النص والولي هنا يتحـول إلـى محور لحركية السرد، إنه الذي يروى عنه ويتعدد الرواة لتفتح الكرامة للزيادة والإضافة حسب الضرورات التي يراها صاحبها"[227]،. من كل هذا رأينا أنّه لا مندوحـة مـن أن

---

[225] ـ نهضة ستار، بنية السّرد القصصي ص 69
[226] ـ انظر إلى المرجع السّابق
[227] ـ حكيم ميلود الكتاب الجديد القصص والتاريخ

يلحق الحذف والإضافة والمبالغة، وقد يكون عند البعض بحسن النية وذلك قصد تنمية عنصر التشويق والامتداد بالحكاية إلى أبعد من مساحتها، وإعطاء الولي طاقة وشحنة زائدة تزيده قوة وتنقله إلى عالم آخر غير الذي نراه ونحسه، فهو يعيش معنا لكن يتميز عنا بالارتقاء إلى الملإ الأعلى، فيصبح الإلهي الرباني بالسلوك فوق الطّبيعي، فيكتسب صفة القدرة والإجابة والإغاثة وتسليط المصائب والعقاب، ويكشف الأسرار، ويجازي ويعطي الخير، فهو يحظى بمكانة مميزة بين قومه ومريديه، يتعهدونه بالخدمة والولاء والطاعة.

1/ الشكل:

طبيعة الحكاية:

هي حكاية قصيرة، عباراتها معدودة، فقراتها موجزة غزيرة المحتوى، تتسم بالتّكثيف، وسرعة التّلميح والإشارة، وكما يقول عنها الباحث علي زيعور (إنّها بكلمات قليلة وعبارات متوالية تبدأ حيث لا تطول المسافة وتنتهي، تلخص فحوى الكرامة)[228]، إنّه القالب المناسب الذي نضع فيه المتن لتشابه كل الحكايات. إن تعريف مصطلح الحكاية (اسم عام يطلق على كل سرد قصصي يحاكي فيه الراوي الواقع أو ما يشبه الواقع، وقد تتنوع مضامينها لكن الأمر المشترك بين كافة الحكايات هو الإيجاز فلا تتعقد الأحداث فيها ولا تكثر الشّخصيات، بل مركزة على أحداث قليلة) [229].

إن طبيعة الحكاية المركزة والمتضمنة لحدث واحد يتجسد فعله في كرامة الولي ولا نجد الأشخاص الذين يربطون العلاقات في الحكاية إلاّ قليلا، فهم أهل القرية أو القوم يتكلم شخص واحد باسمهم فيصف أو يطلب الحاجة أو يقصد الولي رجل أو إمرأة لفك المقفل أو تيسير عسير، أو قصد التّفريج أو للشفاء من سقم أو علّة.

وإذا ما عدنا إلى ما تضمنه المتن من حكايات نلاحظها تضم عبارات أساسية تحيل إلى المعنى، وتقدم الأحداث الهامة وتكشف عنها للمتلقي، وهي أشبه بما لا حظه المسعودي في حكايات ابن بطوطة (أما ما هو ثانوي أو جزئي فلا وجود له فيها لأنه معرض للنسيان من جهة وقليل الاهتمام به من جهة ثانية، فجاءت الحكاية بسيطة في

---

228 علي زيعور، الكرامة الصوفية ص 107

229 ـ محمد طرشونة، مدخل إلى الأدب المقارن، نقلا عن المسعودي ص 111

بنائها تقدم المضمون وتتجاوز كلما هو زائد لا يفيد القصة)[230]، وهي بهـذه الخاصـية تختلف عن طبيعة الحكاية في التراث الشعبي بصفة عامة، حيث يركّز الراوي على ما هو أساسي.

إن الحكايات المدونة في التراث تتسم بالإستطراد وتوالـد الحكايـات داخـل الحكايـة الواحدة، فمثلا حكايات (ألف ليلة وليلة مركّبة ومعقدة البناء لأنّ الأحداث فيها تتمطّط تمطّطا عجيبا تغذيه الإستطرادات والحكايات الفرعية التي قد يلجأ إليها الراوي من تلقاء نفسه، فتصبح الحكاية حكايات عن طريق خاصية التضمين الذي يعد ميزة من ميـزات الحكايات الشعبية في ألف ليلة وليلة)[231]. وقد نعلّل لسبب قصر حكاية الكرامة الصوفية بالرجوع إلى طبيعة تناقلها بين رواة كثيرين عبر فترات زمنية مختلفة، هذا من جهـة ولشفويتها من جهة ثانية، وسيأتي الحديث عن طبيعة هذين العنصرين، (فالسمة الغالبة هي القصر وهي صفة تدلنا على عنصر الزمن ووظيفته، فوظيفـة الحكايـة وتناقلهـا متداولة عبر مسافات مختلفة المقاطع، كما أن طبيعة الراوي والتلقي لهما الأثر الكبيـر في نسيج هذه الحكايات زيادة ونقصانا)[232]. ثم إن طبيعة الراوي الـذي يمتلـك ثقافـة محدودة، ويعيش وسط بيئة لها طابعها الخاص ضمن موقع اجتماعي، وبارتباطـه مـع ذويه وأفراد مجتمعه، كل ذلك له الأثر الواضح في طبيعة هذه الحكايـة، وقـد ضـمن صبري حافظ مثل هذا العمل خصائص ومميزات تطبع النّوع وتجعله منفردا (إن قصر العمل الأقصوصي لا يسمح بأي حال من الأحوال بـالتّراخي أو الإسـتطراد أو تعـدد المسارات، ويتطلب قدرا كبيرا من التّكثيف والتّركيز واستئصال أيـة زائـدة أو عبـارة مكرورة أو حتّى إيضاح مقبول)[233]، ولهذا تكتسب هذه الحكايات طابعا خاصا من حيث حجمها وبنيتها.

شفوية الرواية:

تختلف الرواية الشفوية عن المدونة في صفات وخصائص نحاول رصدها وتقديم ما أمكن باعتبار أن الحكايات التي جمعناها في منطقتنا هي شفوية والمكتوب منهـا لا

[230] ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 95
[231] ـ المرجع نفسه
[232] ـ المرجع نفسه
[233] ـ صبري حافظ، الخصائص البنائية للأقصوصة، مجلة فصول المجلد 2 العدد4 1982 ص27 نقلا عن المسعودي 97

يتجاوز ثلاث أوأربع حكايات في مراجع قليلة [234]، ولذا انتقلنا عبر المناطق المختلفـة للولاية وقمنا بتسجيل ما أمكن من الروايات، وكما لا يخفى على أحد من أن الروايـة الشفوية معرضة للزيادة والتّحريف والتّزييف، ثم إن طبيعة الشفوية (تنمي الحكايـات وتصبغها بصبغة راويها والبيئة التي عاش فيها)[235]. ولهذا تطبـع الحكايـة بمشـاعر وأحاسيس راويها، ولذلك فالمسؤلية هنا تقع على صاحبها، والعهـدة علـى الـراوي، وستظل الرواية الشفوية في الفضاء المطلق لا يحكم بدايتها ونهايتها أحد، وربما يبقـى المضمون محافظا عليه، بينما الشّكل والصياغة خارج الحـدود (وبالتّـدوين تنغلـق الحكاية فلا يجوز فيها الإضـافات والإسـتطرادات، لأن طابعهـا الشـفوي يكسـبها خصوصية الانتقال عبر حلقات، وكلما كثرت ضعفت الثقة في صـحة النقـل وتمـام الحدث)[236].إن تناقل الرواية عبر أزمنة مختلفة يحملها رواة يختلفون في مشارب بيئتهم ونشأتهم، هو الأمر الذي لاحظناه عند الكثير ممن التقينا بهم، فهم يختلفون في روايـة الحكاية الواحدة من حيث الشكل والصياغة والبناء، وقد يكون التغيير مبعث نية ومقصد غاية في النّفس، فالراوي نراه معجبا ببعض المقاطع فيطيل الحديث ويسبغ عليها مـن البلاغة والمبالغة ما أمكنه، ويحذف أجزاء أخرى قصد تنمية وتطوير عنصر التشـويق لشد السامعين والتّأثير فيهم.

<u>الرواة:</u>

نجد الكثير من يحكي قصص الكرامات مما سمعه، ولكن هذه العملية ليس بإمكان الجميع القيام بها والوصول بها عند المتلقي إلى أبعد مدى، فهناك رواة لـديهم سـرعة الحفظ (يتمتعون باستعداد خاص يقبلون على تلقيها بشهية، ويجدون في أنفسهم مـيلا لرواية ما يسمعون عن غيرهم)[237]، ومن هنا نجد الراوي المحترف الذي يملك صـيغ وفنّيات الإلقاء، وله قدرة عجيبة على توظيف اللغة واستقصـاء المعنـى، واسـتقطاب الجمهور، فيعرف كيف يجمع بين الإشارة والرمز والتّلميح والتّصريح، وكيف يـوزع

---

234 ـ ذكرت بعض الكرامات في تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله وذكر الحفناوي وصاحب المرأة الجليلة نفس الكرامة لسيدي أمحمد بن علي

235 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 98

236 ـ ناهضة ستار، بنية السّرد، ص 134

237 ـ عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي، ص 34

مقاطع وحلقات السرد، وبذلك يكسب جمهورا يظل مشدودا إليه، معلّقـا بـين البدايـة والنّهاية، ونجد هؤلاء الرواة يتوزعون ضمن فئات المجتمع، ويغلب عليهم تقدم السن، وفيهم من اكتسب فن الرواية عن طريق السفر بغية حفظ القرآن وتحصيل العلم ومعرفة الفقه وأصوله، وارتباط السفر بالتحصيل عنصر مهم، فنجدهم ينصحون بالسفر والبحث عن شيخ للتفقه عليه، ويغلب على كلامهم صيغ مثل " اللي يبغي يقشقش لازم يبكـر، واللي يعول يحطب لا زم يبعد، واللي ما ينغبنش ما يدي والو "، وكل من سافر وطال غيابه ثم رجع ترى الجميع يسرع لزيارته وهم يسألونه: شكون هما الشيوخ اللي قريت عليهم، خبرنا عليهم بالواحد، وهناك من لهم طبيعة وتجربة سفر من نوع آخـر هـو " التجوال " وحضور المناسبات والمواسم يهتم المسافر هنا في رحلته بمعرفـة الرجـال الصالحين وشيوخ العلم ومن يملكون ذاكرة قوية في الحفـظ يحـرص علـى لقـائهم والجلوس إليهم والأخذ منهم، يملك هذا النوع من الرواة خلاصة تجربة تنقلات وأسفار إلى أماكن مختلفة، فيكتسبون قدرة فائقة في الإلقاء، وتراهم يملكون رصيدا من الأخبار والمعارف والسير، وعند الإلقاء تجد لهم أسلوبا مميزا لهم القدرة الذهاب بالحكاية بعيدا، يجمعون بين النّظم والنّثر القصصي، ويؤثرون تأثيرا عجيبا في جمهورهم.

إن مجتمع قصص الكرامات مميز، فالمهتمون بهذا النّوع يختلفون عـن أولئـك الـذين نجدهم في القصص الشعبي وحلقات المداحة عامة، فالأول يقل عددا ويتميـز نوعيـة، حيث نجد أصحابه يجتمعون لسماع القصص التي وردت في القرآن الكـريم وقصـص الأنبياء والرسل وعذاب القبر ويوم الحشر، وأخبار الجنة والنار ووفاة الرسول وقصص المغازي، ونشير هنا إلى أن الراوي يقدمها بطريقة تختلف تماما عن الشـيخ أو الإمـام الذي يعرضها على الناس في المسجد، ومن ميزة قصص وسيرة الأوليـاء أنّهـا تبـدأ بالصلاة والسلام على رسول الله بعد البسملة، ثم يسرد القاص جملة من الأحاديث فـي فضل الصلاة الكثيرة على نبينا محمد عليه السلام، ولا يتحرى فيها الصحيح والضعيف، وتقطع الحكاية بين الحين والحين لفاصل استراحة، ويكون بالصلاة والسلام على رسول الله مرات عديدة، وقبل بداية القصة يسرد نسب الولي أو الرجل الصالح الصوفي، ويكثر له من الألقاب مثل" حبيب الله، الشفيع فينا مع محمد، نصرة الله، جـار الله، فـرج الله،

روح الله" ثم يذكر شجرته ونسبه حتى يصل به إلى الرسول عليـه السـلام أو فاطمـة الزهراء، وفي كل حلقة يحكي قصة واحدة فقط لكنّها تطول لأكثر من ثـلاث سـاعات فحكاية الكرامة هذه التى عرفناها موجزة قصيرة يأخذها عنوانا لحلقتـه ولكـن تـراه يستطرد ويخرج عن الموضوع فيتكلم عن علي بن أبي طالب وسيفه ذي الشقين وسلمان الفارسي وقوته في المعارك، وهو بهذا يشد الجمهور ويغذي الحكاية بحكايـات أخـرى ليزيدها متعة، كما أنّه يجمع بين القصة نثرا والمديح نظما ينشده، وفي الغالب يصـحب معه من يضرب على البندير والقصبة.

إن طبيعة الرواية يقودنا حتما إلى الكلام عن ميزة هامة تختص بها وهي أن راويها ليس واحدا، فهي تعيش في أرشيف الذاكرة الجماعية وتتناقل من جيل إلى آخر عبر الزمان، وهكذا تقدم الحكاية الواحدة بروايات عديدة (وأن تضيع الحكاية بين رواة متعددين معناه أن تخرج عن تلفظيتها الوحيدة، وبالتالي عن مصداقيتها الحكائية، إلاّ أن النص يجعـل من الحكاية متعددة الأشكال، ولأي واحد منّا إضافة صوته)[238].

إن تعدد الرواة للحكاية الواحدة بصيغ مختلفة تلتقي في المضمون، ليس معناه أن تسـبغ الحكاية بطابع التكرار على لسان رواتها، بل إن الراوي لا يمكنه كما ذكرنا أن ينسـلخ عن الوسط الذي يعيشه فيه (... وكلّ نص يريد لنفسه أن يكون نصا لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يتفادى الطبيعة التكرارية للمقول، ولا يأخذ التكرار معناه الفعلي إلاّ في انسلاخه عن التطابق واتجاهه نحو المختلف)[239].

إن سمة تقديم الحكاية بصيغ رواتها ليس نسخا متعددا لأصل واحد بـل هـو إضـفاء وإضافة للحكاية من منظور الانبعاث والتجدد، ويجعل الحكاية الواحدة تتوالـد فتنجـب حكايات، كما أن القصة تكون مقروءة جاهزة لدى الراوي قبل نقلها وهـو مـا تؤكـده ناهضة ستار (يأتي مضمون القصة مقروءا من قبل الراوي أي جاء على وجه نظـره وخاصة فيما يتعلق بالكرامات والرؤى والمنامات) [240] .

---

[238] ـ فريد الزّاهي، الحكاية والمتخيل، ص 29

[239] ـ فريد الزاهي، الحكاية والمتخيل، ص 78

[240] ـ ناهضة ستار، بنية السرد، ص 186

إن ا لراوي هنا يفلت من تهمة السرقة الأدبية، لأن النص ليس ثابتا، والتدوين هو الذي يحفظ له الحدود، وإذا كان الكاتب لدى سعيد غانمي يخفي في السرد كنزا، وأن التأويل الذي يقوم به هو اكتشاف لهذا الكنز [241].

لا يبتعد الراوي في الحكاية الصوفية عن هذا المفهوم، حيـث نجـده يمتلـك روح الأسبقية لامتلاك الحكاية ويرويها، وكأنه هو الأول المتصل والناقل عن الولي مباشرة. تكشف الحكاية نفسها عن طبيعة رواتها المحترفين فقد جاءت في قالب سـردي مثيـر وممتع له بداية ونهاية، وهذا ما يكسبها نسيجا خاصا، ويغذيها فيطول عمرها (ولـيس من المعقول أن تموت لمجرد أنّها لم تدون وتحفظ في كتب، إن الـذي أكسـبها طـول عمرها هو اكتساحها لنطاق شعبي واسع، كما أن الذاكرة ظلت تحافظ عليها من الذوبان والاندثار) [242]. ولهذا تبرز مقدرة الراوي في التعبير عن المضامين واختيار الكلمـات ذات الدلالة على المعاني، فالكلمات كنوز وأنفاقها النّطق بها كما يقول ابن عربي.

تعيش الحكاية داخل المجتمع وتصبح ملكا للجميع ومرجعية الأفراد يتكلم بها القـوم، ينقلها راو إلى راو فتكسب طابع الشمولية وسعة المساحة، يلقيها الراوي الواحد الـذي يشترك مع الجميع في الحياة ضمن أفقها، فالكل يتنفسون هواء واحدا، وينهلـون مـن مشاربها، ويتطلعون إلى الآمال والمستقبل، وهي نور ساطع ينير لهم الآفاق والأنفاق.

إن الرواة بتناقلهم الحكاية يؤكدون رسالة التواصل بين الأجيال وكل لاحق لا بد أن يرتكز على سابق، وأن الإنسان لا يصنع حاضره ولا يتطلع إلى أفق المسـتقبل إلاّ إذا أسس وجوده على قواعد وأسس متينة تتمثل في اعتماده على مرجعية مـا تركـه لـه الأجداد من إرث (... فكل قديم أثير على النّفس، يوقظ المشاعر التي يختزنها اللاوعي عن ماض ذهبي حالم...)[243].مهما امتلك الإنسان من قدرات ومواهب فلا مناص له ولا غنى عن الموروث من معارف وخلاصة تجارب (... فالأوائل قد سـطروا حكمـتهم اعتقادا منهم أن من الأجيال من سيأتي ويفك رموز هذه الحكم، وعندئذ فإنّهم يكونون قد ماتوا بل سيكونون قد عاشوا في حياة أبنائهم الحكماء من خلال فـك رمـوزهم)[244].إن

---

241 ـ سعيد غانمي، الكنز والتأويل، ص5
242 ـ المرجع نفسه، ص 33
243 ـ ناهضة ستار , بنية السرد، ص 97
244 ـ سعيدي غانمي، الكنز والتأويل، ص 77

حكمة الأوائل رسالة لا بد أن تصل وستظل متواصلة عبر لوح نقشت عليـه أو حجـر كتبت فيه، أو ذاكرة حرصت أشد الحرص على امتلاكها واختزانها ونقلها عبـر قنـاة التداول والتخاطب والمشافهة كلما حل لذلك آن وأوان (فالمكتوب ليس ما خط في اللوح المحفوظ فحسب بل إنّه رسالة يبعثها مرسل إلى متلـق، عليـه أن يتناولهـا بالتّفسـير والتّعبير لكي تخترقه رسالة الأجداد فيخترق هو جريان الزمن)[245] يظهـر أن البطـل الفرد هنا يذوب ضمن رمز البطل الجماعي، فلا اعتبار للإنسان بمفرده كما يقول بذلك أقطاب علم النفس الاجتماعي (إن الفرد هو مختصر البشرية، يجمع في حده المنطقـي كل الصفات المشتركة بين الأفراد، على حين هي لا تختص بأحد منهم) [246] .

يبدو أن الإنسان الفرد بمفهوم الإطار الضيق هو تجريد لا أكثر ولا أقل، فالمنفرد لا وجود له، فكل ما يكتسبه يكون داخل المحيط الجماعي، فهو نسخة أصلية ومرآة عاكسة لتنظير الجميع في ذاته، فالأفراد لا حياة لهم إلاّ ضمن الجماعة وهي بذاتها النّرجسـية الجماعية عند علي زيعور حين (تصبح الأمة كلها هي البطل، فتصبح البطل فـي أنّهـا أفضل الأمم ودينها أشرق الأديان حيث عيادة الجماعة ذاتها لذاتها تتعدى علـى الأمـم الأخرى)[247]، وهكذا تصبح الجماعة ككل هي البطل، ثم إن الأمة الرمز البطل لا تلـد ولا تورث إلاّ أبطالا عظماء، ولكن بطولتهم لا تتجسد إلاّ في المنظور الجماعي.

وعودا على بدء نقول: إن الحكاية في شكلها واستهلالها تحمل صفة مهمة ومشتركة وهي أن الراوي يسند الكلام بضمير الغائب ويدعمه بالماضي المبني للمجهول " هو، هم " (جاءت الحكايات مسندة إلى ضمير الغائب المعلوم ويكون الـراوي الأول شخصـا عاش في زمن الولي أو سمعها من وقت قريب، وقد يكون الراوي واحدا ممن سمح لهم الولي بنقل الحكاية)[248]. نلحظ أن الراوي من جهة يريد أن يكون أمينا صادقا في نقـل الحكاية بالسند نفسه الذي تلقاها به، ومن جهة أخرى نراه لا يريـد تحمـل المسـؤولية فيلحقها بأصلها الأول. إن تناثر الرواية بين رواة عدة، وكما يؤخذ لهذه السـمة بعـض الجوانب السلبية، فإنّها من جهة أخرى تكسب الحكاية صفة التجدد بين الحين والحـين،

[245] ـ المرجع نفسه

[246] ـ شارل بلوندل، المدخل إلى علم النّفس الجماعي ص 29، تعريب، د، حكمت هاشم

[247] ـ علي زيعور، قطاع البطولة والنرجسية، ص 56

[248] ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، 151

فتبقى دائما حية وهذا مضمون (كل قراءة هي نتيجة تفاعل متواصـل بـين مقـروء وقاريء أو نص وتأويل له، أو كنز وإنفاق منه) [249]، فالحكاية كائن حي يولـد ويكبـر ويكسب طبيعة امتداده في الومن، فسنة الحياة وطبيعة كـل كـائن التوالـد والتكـاثر والانتشار فأعجب (... لقصة صارت قصصا تنتشر من حولها حلقا تمدد أنفاسـها فـي الزمان والمكان فهي قصة مفتوحة على وجه الدهر...) [250]، فالحكاية يحييها الـراوي ويحافظ عليها لتبقى حية تتجدد بقاء الإنسان على وجه الأرض، فهي أشبه بالحية تكسب سر حياتها وطول عمرها في تجدد جلدها.

يملك الراوي مساحة واسعة بالمناورة بالحكاية والسير بها بعيـدا، ثـم إن الصـدق ووحي الضمير أو المثل التي بها دلالة واضحة في طبيعة الشخص فـي تعاملـه مـع الحكاية (وقد يلجأ الراوي إلى خلق شخصيات لا وجود لها في التاريخ وذلك ليعزز بها موقف الشخصية المركزية ولغايات حكائية متعددة...) [251]، ولأجل هذا نجـد الـراوي يتصف بالإستطراد والمبالغة ومحاولة إفراغ محتويات مختلفة ضمن الحكاية، كمـا أن طبيعة المتلقي وروح اهتمامه وإصغائه، وهذا ما يزيد في قوة إمساك الراوي بالحكاية ثم إن (... الطابع الخيالي والمطلق لهذه الحكايات وفر لها متعة استقبالية لأن نفس الإنسان تميل إلى ما هو مغيب عنها ومستور) [252].إن الراوي يتحكم بإحساسه أكثر من عقلـه ومنطقه، والإحساس بالنسبة له مرتبط بمخاوفه وآماله ولذا فهو (... يعمد إلـى خلـق شخصيات وحكايات تقرب له هذا العالم المجهول البعيـد...) [253]، والـراوي بخلقـه شخصيات خيالية لتسند الشخصية المرجعية كما سبق الذكر حتى ينمي عنصر التشويق، ويمتد بالحكاية في أمكنة وأزمنة مختلفة، وقد تكون هـذه الشخصـيات الخياليـة مـن الحيوانات فسند إليها القول والفعل وله في ذلك غاية (... فنقل هموم التصوف وأفكـاره وطرحها على ألسنة الحيوانات يمثل إجراء احترازيا يقي أهل الطريقة سـوء التأويـل والأذى...)[254]. إن الصوفي تنقل حكايته بين الرواة فيتلقاها العامة والخاصة والسـلطة

---

249 ــ سعيد غانمي-الكنز والتأويل-ص06

250 ــ توفيق بكار –قصصيات عربية- ص55

251 ــ ناهضة ستار-بنية السرد القصصي-ص187

252 ــ نقلا عن المرجع نفسه، ص188

253 ــ نفسه

254 ــ المرجع نفسه ص 188

على السواء، فالرمز والإيحاء والتمويه والمجاز كل ذلك له أغراضه وأهدافه في شكل صياغة الحكاية الصوفية

نخلص إلى أن اختلاف الرواة باعتبار أعمارهم ومستوياتهم الثقافية ومراكزهم الاجتماعية وعلاقاتهم بمحيطهم، كل ذلك له الأثر البالغ والسمة الجلية في طبيعة الحكاية بناء ومضمونا، فكل ذلك نراه يبرز في لغتها وطريقة صياغتها ونقلها، كما تكشف لنا هذه العناصر درجة الاهتمام بهذا التراث الذي حفظته الذاكرة على مدى فترات زمنية بعيدة من الاندثار والذوبان، وبالرغم من إمكانية تعرضها للمبالغة والحشو لاعتبارات مختلفة، كل هذا لم يقف مانعا أمام الحكاية لتكسب نفسا جديدا وبها تكون قد عرفت ثراء لغويا وتعابير وصياغة متعددة ومتنوعة. فالحكاية يحييها الراوي ويمدها بعناصر الحياة والوجود، فتظل ممتدة ذات نفس طويل، فتأخذ صفة الديمومة والخلود يبعثها راو إلى متلق فيصبح راو لها فتنتشر وتأخذ مساحة أوسع نطاقا على مدى الدهر.

2/ **المضمون:**

نهدف إلى قراءة داخلية للكرامة الصوفية، فنبحث في صياغتها ومولجها الباطنية وما تحمله من معان ورموز، قصد معرفتها واكتشافها وتفسيرها، كما نبتغي الوقوف على تصنيف الكرامة من حيث العناصر التي تشارك في رسم ملامحها انطلاقا من العنصر البشري الذي يصنع الحدث، كما نحاول تفسير طبيعة الصلة التي تربط شخصيات الحكاية، وما هي العناصر أو الفواعل الأخرى التي تسند طبيعة الحكاية وتساهم في تطورها مثل وجود الحيوان، الطير، الحشرات، النبات، الجماد، ونقف مع عناصرها في المتن قصد تفسيرها مثل الخرق، الضياع، الجفاف، الفيضان وعلاقة الإنسان بما يحيط به من مظاهر الطبيعة والكون وحاجته الماسة إلى العناصر الضرورية لحياته من طعام وماء... الخ. كما نحاول تفسير العلاقات بين الأفراد داخل المجتمع ووضعها في إطارها، وتحليل طبيعة عناصر التضاد والتلاقي بين الغني والفقير، الصالح والطالح، العابد التقي والفاجرالفاسق، وطبيعة الصراع بين القوى المتصادمة بين الحاكم والرعية، القوي والضعيف بين الظالم والمظلوم، ولكن قبل هذا وذاك نرغب في تقديم الكرامة قصد فهمها ومعرفة ومقاصدها.

الكرامة الصوفية:

إن طبيعة حكايات الكرامة تجسد طبيعة العلاقة بين الولي وذاته والمجتمع الذي يعيش فيه، إنّها وسيلة للوقوف على عالمي الواقع والخيال، المعقول واللامعقول، إنّها مقولة الأزمات التي وقعت زمن الولي، سجلتها الحكاية في الذاكرة لتخبر عن حال وأحوال الناس في ذلك الزمن البعيد، إنّها حلقة تربط الماضي بالحاضر، والأمس باليوم، فهي آنية مجتمع ارتبطت بتطوره وما انفصلت ولا أبدا عن الظواهر والحوادث الإجتماعية والإقتصادية، ولا تؤخذ بمعزل عن العوامل الثقافية بمعنى أن الكرامة لم تكن بعيدة عن المجتمع ولا منعزلة عنه، بل كانت تحيا في أعماقه، تعبر عن حاجاته الضرورية، فكانت الحكاية بصمة تسجل تلك العلاقة بين الولي ومجتمعه بمختلف مظاهرها وأشكالها.

والكرامة من الناحية الأدبية التعبيرية هي (أقصوصة تحكي بالرمز إيمان البطل الديني بقدرته على الإقتراب التدرجي والشديد من الله، ومن ثمة أخذ طبيعة إلهية تتوفر له إمكانية التشبه بالله من حيث الإرادة الحرة والقدرة المطلقة)[255]. ومن هنا ارتبطت الكرامة بشخص ارتقى فوق الطبيعة البشرية وتميز بسلوكه وصفاته عن باقي بني جنسه، إنّه الصوفي وقد وسمت الحكاية بسمته الصوفية (... إنّما سميت كذلك لصفاء أسرارها ونقاء آثارها...)[256]، فالولي في الحكاية هو من أعطاها عنصر الخارق الفوق الطبيعي، ويقفز فوق الواقع ليصبح لديه المستحيل ممكنا والغائب حاضرا. للكرامة مواضيع مختلفة ومضامين متعددة، فيها الخلاص والإنقاذ والتفريج، ثم هي حاملة للأخبار والتاريخ وكشف الأسرار، ومن السمات البارزة والغايات الأساسية للحكاية الصوفية هو إبرازها للبطل الصوفي وفيما تظهر فيه خوارقه وتجاوزه لكل العقبات، إلى هذا يضاف أنّها تحوي في ثناياها الجمع بين عالمين الواقعي والأسطوري الجلي والخفي، وبها معان باطنية، وتطبع بعنصر الدهشة والإستغراب لأنّها (... تحمل خصائص الفن القصصي المثير الممتع لما تضمنته من حدث غريب ومفاجيء يسرد

---

[255] ـ علي زيغود، الكرامة الصوفية، ص 31
[256] ـ الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص9

على نحو مشوق)[257]. إن الكتابة الصوفية تمليها التجربة الذاتية التي يعيشها الصوفي ضمن أنساق ومراحل وحالات مختلفة، فجاءت الصوفية تنطلق بلغة خاصة بها داخـل اللغة المتعارف عليها (... فالكتابة هدفها تكوين إنسان كامل بطـرق خاصـة...)[258]، وهي الخاصية التي تميزها عن باقي الأنواع، إنها كتابة تدون الحكايـة مشـافهة فيهـا يتجسد ارتقاء الإنسان نحو الأعلى في أعماق يسمو ليصل ويتصل بالكمال، وحينئذ يبرز العجيب المدهش. إن الكتابة الصوفية تنتمي إلى جنس " المناقب " التي تقـدم ترجمـة وسيرة الصوفي، حياته وسلوكه وخوارقه وموته، وتظل الكرامة تعيش أطول من عمـر الإنسان، يموت صاحبها وراويها وتبقى هي حية يتناقلها الرواة، وتبقى الكرامة بشباكاتها الفكرية ومقولاتها قوية ما بقيت تؤدي وظيفة في المجتمع، وتتعلـق حكايـة الكرامـة بقصص الأولياء ضمن قصص البطولة الذي يبنى في طابعه العام على علاقتين: علاقة الولي بالله والرقي إلى السماء والملكوت الأعلى، وعلاقة الولي بمريديه وأفراد المجتمع الذين يعيش معهم، وكل هذا يدرس ضمن الأدب الصـوفي أو البطـولي والـذي مـن خصائصه وميزاته اعتماده على الواقع والشخوص التاريخية ومحاولة الراوي إضـفاء ثوب الحقيقة الخارقة كمساعدة البطل أو محاربته أو مناصرة أعداءه (... وأدب البطولة أدب موضوعي ذو طابع درامي، يجنح إلى المبالغة في التصوير ويستعين بمجموعة من العمليات السردية يسميها بورايو آلية السرد...)[259]، والتي تكرر في الكثير من الأحيان بصيغ متشابهة، يتطابق السرد القصصي مع التاريخ في صيغة الخطاب، فكلاهما تاريخ يحكي عن ماض ومن ثمة فكلاهما يستعمل الفعل الماضي المجرد من العلامات الدالـة على المتكلم وكأن الخطاب يسرد نفسه بنفسه (... إن خطاب قصص الأوليـاء يتميـز بالآنية وروح حداثة النص واتصاله بصاحبه اتصال الروح بالجسد، وكأن الراوي هنـا وسيلة ناقلة تلغي مهمته حينما تبدأ القصة، لأن المتلقي حين سماعه للنص نراه مشدودا إلى زمن الولي بكل حواسه...)[260]. يتسم القصصي البطولي لجمعـه بـين الطبيعـي والفوقطبيعي، الواقعي والخيالي يعيش الإنسان مع القوى العلوية، ويبني علاقات تتجـه

257 ـ ناهضة ستار، بنية السرد، ص 52
258 ـ محمد مفتاح، دينامية النص، ص 129
259 ـ عبد الحميد بو رايو، القصص الشعبي، ص 70
260 ـ محمد مفتاح، دينامية النص، ص 132

دائما من الأرض باتجاه السماء (وأهم ما يميز الحكايات هو الجو الخوارقي...) [261]، وقد بدت الكرامة بصفتها الخرقية كا الأسطورة أو الخرافة التي يقدم فيها الصوفي نفسه بطلا جاهزا مشمولا بالمعرفة التي تمكنه من التأثير في الواقع والإنسان، وهـي بـذلك تستجيب للرغبة الدفينة الراسخة في نفس الإنسان منذ الأزل رغبة امتلاك العـالم عـن طريق الحكي.

يختلف قصص الأولياء عن الأدب البطولي من حيث موقع الإنسان في الوجود وتجسيد فكرة الخير الذي ينتصر دائما (... لكنه يختلف عن المنظور الذي قدمتـه الأسـطورة والخرافة، فنموذج الخير فيهما لا يصلح أن يحتذى به بل إن ما يتحقق مـن الفضـيلة والبطولة في آن واحد لا نجده إلا في الولاية عن طريق العمل الصـالح والكرامـة...) [262].

الفضاء المكاني والزماني:

ارتبطت الحكاية الصوفية بدلالة المكان والبيئة التي تعيش في أكفانها، ولعـل المسـجد والزاوية هما الفضاء الأكثر رحابه وقد رأينا من الأهمية الوقوف عنـد همـا للقـراءة والنظر والتمعن ومحاولة رصد المعاني والوظائف المنوطة بهما. وان كان المكـان لا يحدد في الحكاية الصوفية ولكن يمكن اعتباره كأنه موجود فـي الجغرافيـة الرمزيـة للمتصوفين.

1/ المسجد:

بيت الله ملجأ وموطن شعبة الإيمان يجل عن المكان والزمان، بيـوت رفـع الله قواعدها ليذكر فيها اسمه وهي منذ العهد الأول يجتمع فيها المسلمون للتفقـه والنظـر والارتباط والتطهر من الذنوب والدنس، يحس الإنسان في صراعه مع الحيـاة بـالقلق والضجر فيهرب إلى المسجد ليجد الاطمئنان والملاذ والاستقرار، وليجد التوازن لنفسـه وذاته، والمسجد هو أول ما بنى الرسول في المدينة، وفيه يجتمع المسلمون ليعبروا عن ثقتهم بالله،وهو مكان يصل الأرض بالسماء وفيه العبادة والتطهر والاعتكاف فيه يحاول

---

261 ـ آمنة بلعلى، تحليل الخطاب، ص 198

262 ـ عبد الحميد بو رايو، القصص الشعبي، ص 105

المؤمن إيجاد الاطمئنان والاستقرار، ولذا فالصوفي يسكن فيه أكثر مما يسكن في بيته، يقيم الفروض والنوافل ويكثف من العبادات حتى يحقق السيطرة على عواطفه وأحاسيسه ويتصل بالكمال.

2/ **الزاوية**

هي أشبه بالمسجد لكنها أوسع نطاقا، فيها الإقامة والعبادة، تؤدي وظيفة التعليم والتكوين، يسافر إليها الطلبة من كل مكان، ويكتسح الشيخ فيها مساحة واسعة ينال شهرة كبيرة وتصبح زاويته معروفة باسم الإختصاص الذي يتفوق فيه فيقال: زاوية الأصول، الفقه، العقيدة...الخ، (إن الزاوية في الأصل مكان منغلق على نفسه كما يدل على ذلك هيكل بنائها، فلا نوافذ تفتح على الخارج ولا أبواب كثيرة) [263]، فهي مكان للتعبد والعلم والمعارف، فيها يكون الشيخ أقرب من مريديه وطلبته يسكن معهم في الزاوية ويشاركهم الهجرة وفراق الأهل، وألم الشوق ويصبح القدوة والأسوة والأهل. تقصد الزاوية للعزلة والخلوة مع النفس للتبتل والدعاء والتضرع بعد هجر الدنيا وملذاتها قصد إماتة الشهوات وقتل الغرائز، وتخليص الروح من علائق الجسد، كذا كان مفهوم الزاوية في بداية ظهورها كمرجع ومتعبد ومقام يفد إليها الناس لغايات متعددة، ومع مرور الزمن اتسع الفضاء الذي تمسحه لتخرج من عزلتها ولتنفتح على العالم الخارجي، وتصبح شريكا فاعلا في الحياة بمختلف مناحيها فكثر الوافدون عليها، وتنوع المقيمون من طالب علم إلى مسافر أو عابر سبيل إلى طالب حاجة، أو عليل يرجو البرء والشفاء بساحتها، وبعد ما كانت موجودة في القرى والأرياف والأماكن المعزولة، أصبحت تملأ اليوم ساحة المدينة وتعلو صومعتها لتدل القاصد إلى وجهتها، وأصبح لها ميزانية تصرف لحاجاتها وغاياتها بعد ما كانت تعيش على نفقات المحسنين،.إن الزوايا قد مرت بمراحل عديدة تطورت عبرها فتغيرت الغاية التي ابتغيت عند إنشائها، وكذا تنوعت الوظائف التي تقوم بها، ولكن يبدو أن عهد ازدهارها بصفة عامة " القرن الثامن الهجري " الموافق للرابع عشر الميلادي.

---

263 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 245

3/ المقام

وهو الدال على الولي وفيه الضريح، وفي الغالب تخصص له غرفة خاصة في المكان، يحاط الضريح بجلال واحترام كبير، بعضهم يغطيه بأفخر القماش ويبنى فوق الأرض فيبدو بارزا، فيكون مقصد الوافدين والزائرين يتمسحون به ويتبركون، يمسحون بالتراب وجوههم، ويسألون الولي تفريج الهموم وشفاء العلل والأسقام التي لم يجدوا لها دواء، يجلسون إلى جانب الضريح في صمت ومهابة، وقد زار الباحث بعض المقامات في المنطقة قصد معرفة طبيعة هذه الطقوس عن قرب، ومنها مقام سيدي امحمد بن علي بمجاجة وسألنا القائم بشؤونها " الخديم" عن طبيعة زيارة الناس للزاوية فأجابنا: بأن القاصد من جنس النساء أكثر من الرجال، وتكثر الزيارة يوم الجمعة أكثر من بقية الأيام، وحينما استفسرنا عن الذين يدخلون إلى الضريح أو ما يسمى هنا با" القبرية " قال: إن الناس تأتي لتطلب حاجاتها وكل واحد له غرض من الوصول إلينا، وعندما لاحظ إلحاحنا ورغبتنا معرفة الكثير، ذكر أن بعض النساء لا تلد ولم يعطها الله الخلفة فجاءت إلينا بنية خالصة، فرفعنا أيدينا وقلنا: يارب بجاه سيدي امحمد بن علي تعمرها وتثمرها ووعدتنا بالزيارة والجفنة وبعد عام جاءتنا بالصبي والأمانة، ومن بين الزائرين شخص حدث له حادث خطير بسيارته وكان معه خمسة من أفراد العائلة ولم يصبهم شيء فجاءنا بجفنة وأطعم الطلبة وأعطانا الزيارة وأفرش المسجد بالزرابي، وحكى عن بعض النساء تدخل القبرية وتغطي نفسها بأثواب الضريح ثم يسمعها تبكي وتندب بقوة فيدخل إليها وهي فاقدة الوعي ولا تستعيد طبيعتها إلاّ بعد مدة. وهناك من يزور الزاوية والمقام لأنّه أحس بالظلم، وبعضهم يطلب الحظ في الحياة، وآخر نهب ماله فقال: جيت انقيس زيارة باه سيدي امحمد بن علي يقبض في اللي اتسلّط علي. حاولنا التقرب من بعض الزائرين لمعرفة طبيعة زيارتهم، فقال أحدهم: كيف لك أن تجرأ على هذا العمل ؟ وكيف لك أن تدخل بيننا وبين الله، وقالت امرأة: اشتا اداك لغيوب ربي راك باغي الوالي يصلي عليك " بمعنى يصيبك المكروه من الولي "، والحقيقة أن وجود النساء في المقام كان مانعا، وما استطعنا إقناعهم، وفي الكثير من الأحيان كان التوتر يظهر على ملامح بعض الرجال الذين سألناهم وقد جاءوا مع زوجاتهم مما منعنا من التقدم

أكثر والولوج إلى أعماق أنفسهم، ولاحظ الباحث أمرا مهما رغب في تبيينـه وهـو أن أغلبية الناس عندنا إن لم أقل السواد الأعظم يسلم بهذه العادات ويعيشها بإيمان عميق في نفسه حتى الذين يحظون منهم بنصيب من الثقافة أو له مستوى علمي ومعرفـي يصـل حتى الدراسة الجامعية، ولكن في نفس الوقت لا يريد أن يبوح ويصرح بأي رأي فـي هذا الموضوع، وقد تبين لنا هذا الأمر حينما زرنا بعض المقامات ووجدنا من نعـرفهم فأصيبوا بحرج شديد. فالمقام هو مرجعية المريدين وملاذهم وملجأهم، والمقام يتسع سعة الولي فيقصده الناس ويقيمون فيه حينما أحسوا بأن الأرض تشدهم إليها فنزعـوا إلـى أرض ليست كأرضهم، أرض مشدودة إلى السماء، مقام طاهر وتربة مقدسـة، والـولي حاضر حيا أو ميتا, وفي المقام يتلو الطلبة القرآن ويتدارسون الفقه والأصول. وتـرتبط قصص الكرامات بالطقوس التي تؤدى في المراسيم والمواسم ما يمكـن أن نسـميه أو نصفه " بالوعدة " وهي طقس تعبيري للوفاء. ويرجع الأستاذ بورايو أن تكون معظم هذه القصص قد نشأ في مجالس الجماعات الصوفية وهي بمثابة طقوس تؤديها الجماعة في حضرة "الولي" [264]، المقام يمثل حضور الولي واستمراره في النفوس، الولي يملك النفع والضرر. إن المواسم التي تعبر عن وفاء المريدين والأحفاد للولي تقام في المقام وحوله وغالبا ما تكون مرة واحدة في السنة وتسمى "الوعدة - الطعم ". وبهذه المناسبة يوجـه أحفاد الولي وخدامه الدعوة إلى كل الذين يعرفون الولي ويسمعون عنه في كل منـاطق الوطن ويعمدون إلى طريقة البراح في السوق حيث يخبر الناس ويعلن عن أيام وتاريخ الوعدة، وصارت هذه العادة تنقص وتختفي حيث أصبحت تستعمل مكبـرات الصـوت والدعوات المكتوبة. وتكون الوعدة في يومين أو خمسة أو ستة أيام فتكون بتلاوة القرآن وينشد المديح ويوزع الطعام في شكل "الجفنـة" وتحكـى قصـص الأنبيـاء والرسـل والصالحين. وقد انتقلت قصص الكرامات من فضاء المسجد والزاوية والمقام ووجـدت لها مساحة إضافية في القصص الشعبي ,في شكل حكايات تروى ومدائح تنشد "وتمثـل المدائح جزءا من أداء مثل هذه الحضرات " وقد انتقلت من هذه الجماعات إلى الأوساط الشعبية عن طريق راو محترف يمدح الولي ويروي قصصه وكراماته " [265] ولا شـك

---

[264] ـ عبد الحميد بو رايو، القصص الشعبي، ص 108،

[265] ـ المرجع نفسه

إن الغرض من وراء نشأتها وانتشارها في الأوساط الشعبية هو تأكيد عقيدة عبادة الولي والدعاية له من أجل اكتساب مريدين جدد. ويؤدي قصص الأولياء عدة وظـائف منهـا الوظيفة التعليلية ,فأهل مجاجة يرجعون فضل البركة لقريتهم إلى الولي سيدي أمحمد بن علي الذي رفعها بين السماء والأرض وثبتها على رأس الجبل ويضـفون عليهـا مـن التسميات ما يزيد ها تجذرا في أعماق مرجعيتها مثل "النخلة - مكة الصغيرة - موطن الشرفة - المرابطين " ويذكرون من عناصر الطبيعية في المنطقة مـا يزيـدها هالـة وقداسة فيقولون بأن تربتها من تراب الجنة، وماؤها مبارك تشفى به كثير من الأسـقام، والهواء لا يلوث، ومن دخل المنطقة بنية خالصة كسب الخير الكثير، ومن تزوج مـنهم نجح في حياته بعبارة القوم " يسجى جنانو"، ومن اشترى وباع منهم غنم، وهذه الوظيفة أشبه بقرية سيدي خالد في بسكرة الذي يرجع أهلها مخطط بنائها إلى الأولياء[266].

ومما سبق نخلص إلى أن للمكان أهمية بالغة في الإشارة إلـى الكيـان والبيئـة والظروف التي نشأت فيها هذه الحكايات، لأن المكان يشي لفهـم طبيعـة عناصـرها وصفاتها، ودراسة أبعاد المكان والوسط في مثل هذا القصص ضـروري ذلـك (أن المكان دون سواه يثير إحساسا بالمواطنة وإحساسا آخر بالزمن والمحلّية حتى لتحسـبه الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه، فقد حمله بعض الروائيين تاريخ بلادهـم وملامح شخوصهم [267]. إن المكان في قصص الأولياء يأخذ طابع القداسة والتمايز عن غيـره، وتصبح كل عناصر الحياة فيه تحمل روح الولي وكرامته فيضفي عليها من قداسـته، وقد اختار الأولياء أماكن بعيدة عن بهرج المدينة وزخرف الحضارة، وهـذا مـا شـد انتباهنا عند اقتفاء أثرهم وتحديد جغرافية وجودهم، فقد لاحظنا أنهم كانوا يقيمون بعيدا عن التجمعات السكنية، وينزعون إلى الطبيعة العذراء.

4/ المناسبات الإحتفالية:

تمثل أفراح الختان والنجاح في مختلف المسابقات وفرحة الأهل لعودة الأقـارب مـن الحج والعمرة والسفر مناسبات يجتمع فيها أفراد العائلة الكبيرة، ويدعى إليها الجيـران

---

[266] ـ عبد الحميد بو رايو، القصص الشعبي، ص 108

[267] ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 124

والأحباب والأصدقاء للعشاء ويسود جو من البهجة والسرور وتعلن الأفراح وتدوم مـن ليلة واحدة إلى ثلاث يبدأ الحفل بالمباركة والدعاء بالخير لأهل الحفل والفرحة بسلامتهم وعودتهم بأمان، ونجاحهم الباهر، وتعتبر مثل هذه المناسـبات التـي تـذكر بالمـدائح والأشعار فرصة يجتمع فيه الناس ويسمرون حتى الصباح بجميل الكلام وعذب الحديث في بداية الحفل وبعد وصول المدعوين يستقبل الرجال في مكان والنساء في مكان آخر يرحب الأهل بالضيوف وتعلو الوجوه ملامح الرضا والفرحة بالوافدين فيكون التسـليم بالمعانقة والابتسامة ويقوم الصغار للكبار ويجلسونهم في أماكنهم ويحظى الشيوخ وطلبة القرآن وإمام المنطقة بمجلس وتقدير خاص يجلس الجميع وهم يسندون ظهـورهم إلـى وسادات جديدة يقدم لهم القهوة والشاي والحلويات وفي كل مرة تسمع عبارات الترحيب والفرحة بالقدوم. تعتبر هذه المناسبة فضاء لإحياء التراث الشعبي، وتـداول الحكايـات والأمثال والألغاز الشعبية وتسمع قصائد المديح. وتذكر الحاجة زهيرة درامشي وهـي إحدى ركائز التراث الشعبي في منطقة ساحل تنس والتي يبلغ عمرها أزيد من 70 سنة وقد زرناها في بيتها حيث رحبت بنا، وأجرينا معها حوارا وسألناها عن طبيعـة هـذه المناسبات قالت: يأتيني الحاج أو الحاجة مع ابنها وأذهب معهم بعد إلحاح شديد، سألناها عن طبيعة مشاركتها في الحفل وماذا تقدم للحاضرين.

ـ قالت: نذهب إليهم ونفرح معهم حتى الصباح.

ـ كيف تقضون الليلة.

ـ في الأول نعطي الفرصة للشابات والصغارات يغنوا ويرقصوا ونبداو احنا سـهرتنا بعدما لولاد يناموا نجتمع في حلقة مع احباباتنا الكبارات وتحضر معانا بعض الفتيـات ولكن قليل الي تبقى حتى الصباح.

ـ وهل يحضر معكم الرجال.

ـ لا الرجال وحدهم كاين الحرمة بينا.

ـ احكي لنا من بداية السهرة إلى النهاية.

ـ في الأول نفتح القعدة بالمقام والصلاة والسلام على الرسول ونقـول لا إلـه إلا الله ونوحدوا عشر مرات، أنا نقول أو هم يردوا من بعدي:

نقول:

الله يالله   يارسول الله

الله يالله   يـ ـ ـانبينا

ياحبيبنا   يـ ـاشفيعنا

الصلاة على محمد   الصلاة الرسول

وتشاركني وحدة بالبندير تضرب ضربة خفيفة، ونمدح لهم على الأولياء والصـالحين، نقول على سيدي امعمر او سيدي مروان وصحابهم وبين المـديح والمـديح نريحـوا بالمحاجية والبوقالة نحاجو بعضنا بعض و نعرفوا الساجية فينا مثلا نقولوا:" هايشة جات من الجبل طايشة عندها فمين وستة عشر عين " ـ الجواب:" المنطوة "[1].

و نسأل على الغايب والمسافر والمريض وندعو لهم ونذكر وهم بالخير ويدينا الحديث، نسقسوا اللي نخطبت واللي راهي بالحمل، ونحكوا على الناس اللي طعنوا وتعداو حـد سيدي معمر وانكملوا كلامنا حتى يخرج في وجوهنا الصباح ويؤذن علينا ونقوموا نلعنو ابليس و نذكرو ربي.

بعد نهاية الحفل تقول الحاجة زهيرة يأخذني أهل الحفل للحمام ويجهوزولي ويقادروني بالزيارة ويرجعوني لداري.

نموذج من مديح سيدي معمر للحاجة زهيرة:

ياعلايتي سـيدي معمر   يـاعلايت السادات

ياعلايتي بومكـ ـحلة   حرم الـحمـسيات

سيدي وسيـ ـد خوتاتو   والعالية اللي ربـاتو

سيدي مـ ـعمر قنوني   وأنـ ـت نور عيوني

أنـ ـ ـت نور عيوني   يامـ ـول البرهـ ـان

جـ ـ ـيتك بـجاه الله   ياسيدي امعمر جيتك

بجاه الله ترضى علينا   يامعمر يا نور عينينا

سيدي مـ ـعمر ياناس   راهو علينا عسـاس

سبحان من كان عليل وبرا وصاب الراحة

الـلـه الـلـه الـلـه الله يـ ـ ـارسول الله

يعتبر الزمان والمكان قاعدة الحديث القصصي ومجال خصوصية سرده، وبالتـالي (... التمهيد لعقدة القصة، والأحداث في القصة توزع ضمن تحركاتها في إطار الزمان والمكان) 268. ندرك بعد الإيضاح والتّبيين أهمية ودلالة الزمان والمكان في القصص الصوفي وبدونهما لا يمكن أن يستقيم الوضع (... فبدون الزمن لا يمكـن للقصـة أن تستقيم، وعلاقة القصة بالزمن علاقة مزدوجة، فالقصة تصاغ في داخل الزمن، والزمن يصاغ داخل القصة، والقصة تحتاج للزمن كي تقدم نفسها)269.

وما زلنا نسير مع الحكاية فنعدد صفاتها وميزاتها، فهي لا تعيش في الماضي وتنغلق على نفسها فتنحصر وظيفتها وتضمر (... إنّها حكاية لا تتخذ من الماضي منطلقا بـل تشكّل مما هو حاضر أمامها وفي علاقة معه...) 270، ومن هنا فهي تجد في نفسـها ولنفسها خاصية التّجدد والحياة والديمومة بانفعال وتفاعل مع المجتمع فهـي لا تحكـى بصيغة الماضي إلاّ لتمتد في الأفق والآفاق.

إن الأحداث التي تتعرض لها لا علاقة لها بالماضي (... إنّما هـي وقـائع لا طـابع تاريخي لها، لأنها هي التاريخ نفسه في حاضره المتشكل هنا وباستمرار أمـام عـين الحكاية...) 271. تتسم الحكاية بحملها صفات التجدد والإستمرار والمواءمة والملاءمة لطبيعة العصر مهما امتد بها الزمن وانتقلت من مكان لآخر، يستخاص منها الـدروس والعبر وفيها القراءة الأخرى للزمن الغابر واستنطاق لشخصية الغائب الحاضر في كل مكان وزمان. تمتلك بطبيعة قدرتها المساحة وامتصاص الزمن، وبذلك تضمن وجودها كحكاية تريد خلق أثر وفعالية مغايرين (... وبالزمن تتمفصل حركة الوصل بين ذاكرة النّص ومسافة الزمن، وعليهما ينهض غموض النّص وحازونيتـه) 272. إن الكرامـة أوسع نطاقا من أن يحتويها مكان يضيق بالحدود ولا زمن يحدد مسافتها فهي المطلـق

---

268 ـ ناهضة ستار، بنية السّرد، ص 72

269 ـ أحمد عبد اللطيف حماد، الزمان والمكان في قصة العهد القديم ص 65 نقلا عن المسعودي الحكايات العجيبة ص 120

270 ـ فريد الزّاهي، الحكاية والمتخيل، ص 14

271 ـ المرجع نفسه ص17

272 ـ المرجع نفسه ص 80

مكانا وزمانا، اللامتناهيان واللامنتهيان، إنّها ببساطة تكتسح الفضاء بالرمز أفقيا وعموديا بلا حدود، تعبر عن كل وضع وحالة (... فالكرامات أي العطاء الفكري السلوكي والنّموذجي بل والممثل للأنا المتصوفة واللاوعي)273، وهي ثمرة حين وعصر وبيئة وثقافة، فبها تعرف انشغالات وطبيعة الحواجز التي اعترضت سبيل أهلها، إنّها تحمل معنى أكثر من الكلمات التي تعبر بها.عرف قصص الأولياء في تطوره مرحلتين الأولى في تعبيره عن ولاية (الأنبياء والزهاد، أما الثانية فتمثلت في أصحاب الطرق الصوفية، فعمل في الأولى على توجيه سلوك الفرد حسب ما جاء في الشّرع وعلاقته بأفراد المجتمع) 274، فالأولى تصل الإنسان بخالقه، والثانية تتمثل في التزامه حدود النظام الاجتماعي، ومن هنا كان البطل في المرحلة الأولى شخصا يحترمه النّاس ولكنّه لا يقدس فهو (يعيش بينهم كأي واحد منهم بحجمه الطبيعي، يحزن ويفرح ويخطيء في حق الناس وفي حق ربه، ويتفانى في خدمة خالقه، وجاء في الثانية وسيطا بين الله والناس، احتوي طبيعته البشرية على طبيعة إلهية، له قدرات تفوق القدرات البشرية، ويظهر حتى بعد وفاته، ويتجسد في صورته في كل مكان)275. تتضمن الكرامة الصوفية المستويين، فهي كما نجدها في أدب المناقب تقدم حياة الولي وسيرته وأسفاره ووفاته، قد تتجاوز هذا لتتحدث عن الخارق في حياة الولي فهي في هذا تجمع بين الواقعي التاريخي والخارق الأسطوري، وبهذا فهي تدخل ضمن أدب العجائب والغرائب (ففي هذا النوع تلعب المصادفة كشأن الكرامات الخارقة والأحلام وتدخّل الجان، وتأثير شيء ما، والغلط وتوهم الحواس دورها كاملا غير منقوص)276، وبهذا تصبح قابلة لتطبيق المناهج التي طبقت على الحكايات الخرافية، فالبطل الصوفي (يمر بالمراحل الثلاث المعروفة، الإختيار، التهيؤ، والإختبار الحاسم وقت محاولة الإنجاز وحصول التشريف بالكرامة)277، فالكرامة من خلال هذا تحاكي الأنماط الخرافية لأنّها تحاكي الأسطورة وتعيد وظائفها، وهذا يقودنا إلى ربط الكرامة

---

273 ـ علي زيعور، الكرامة الصوفية ص 6

274 ـ عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي، 117

275 ـ المرجع نفسه ص 118

276 ـ محمد مفتاح، دينامية النص، ص 143

277 ـ المرجع نفسه، ص 148

الصوفية بحكاية العجائبي والغرائبي. إن الكرامة قطاعان: الواعي حيث يسـود الفكـر والوضوح، واللاوعي حيث المضمر والمقنع والرمزي فالأول هو (الوقائع الخارجيـة التي تجري فعلا وتحصل أمام العين، والثاني هو عالم التجارب الصميمية التي يفصـح عنها بواسطة الرموز الرموز)278. يتصل الواعي باللاواعي بمعنـى أن الصـوفي يعيش العالم في آن واحد، فالأعمال الخارقة التي يقوم بها إنّما يستمد فيها القوة من العالم الغيبي، كأن يأتيه هاتف ويقول له: بإنقاذ شخص أو تخليص أزمة أو يرى فـي نومـه رؤيا فتتحول إلى الكرامة وبهذا يبدو جليا أن الوعي لا يستغني عن اللاوعي في شـكل الرؤى أو التجارب اللاشعورية التي اختزلتها الذاكرة لمسافة من الزمن. كما أنّها تأخـذ بالصوفي ليتفوق إلى المطلق واللامحدود من جهة ونسيان الواقع والقهر من جهة ثانية فهي تحمل اتجاهين متناقضين الأول يتلخص في أن شخصية الصوفي تواجه الانهـزام فتوجه عدوانيتها إلى الداخل فتبخس الذات ذاتها بذاتها وفي اتّجاه آ خر يبدو الصـوفي منتصرا على مخاوفة وقلقة وشتى عوامل انجراحه وبذلك الانتصـار يحقـق توازنـه الانفعالي المفقود ,ويشعر بشخصية وقد تمثلت القيم العليا التي كان يرهبها. تعتبر دراسة الكرامات مثلها مثل أي نوع من الأداب العربية با عتبار المادة التي تقدمها فـي شـكل قصص نثري أوتعابير وأفكار في شكل قصائد شعرية ,تسـجل الكرامـات و تـدعمها وتبطن مادتها با لأمثال والحكم والجمل والعبارات الصوفية التي بها يعبر الصوفي عن مناحي العالم المطلق ,الفضاء والكون الروحي السماوي ,بعيدا عـن الواقـع الظـاهر الملوث بالتراب والدنس ,تقدم دراسة وتحليلا للقصص الكراماتي ودمجه ضمن المؤلف المنقبي وتتوخى معرفة وتصنيف العناصر التي تدخل في نسجه وإتمام مؤلفه فنعرض للشخصيات بشرية كانت أو حيوانية نباتا أو جمادا كل بحسب مسا همته في تطور السرد وإخراج الحكاية في طورها النهائي ,كما نرغب في تحديد طبيعة الوظائف المتضـمنة فيها." ان دراسة الحكايات يتطلب حتما إبراز عناصرها الأساسية التي تكونها عن طريق تقسيمها إلى الوحدات التي تتركب فيها ,وقد رأى بروب PROPP أن القيام بمثل هـذا العمل أمر ضروري لا يمكن بأي حال من الأحوال الإستغناء عنه، لأنّه ما لم توجـد

278 ـ علي زيغود، الكرامة الصوفية، ص 8

دراسة شكلية مستقيمة، فإنّه لا يتسنى لنا القيام بدراسة تاريخيـة صـحيحة)279. إن خاصية تشابه الحكايات من حيث الشكل واللغة التي تعبر بها حتما يجعلنا نبحـث فـي المضمون للحكاية الواحدة ثم البحث في الحكايات جملة، وقد أشارت الباحثـة ناهضـة ستار إلى طبيعة بنية النصوص بقولها (المتن نظام مترابط الأجزاء والمفاصل بحسب العلاقات التي تربطه أو بنياته التي يتكون منها نظامه)280. إنّنا نريد مـن دراسـتنا التعمق والغوص والذهاب بعيدا في المضامين التي تعبر عن حوادث مسـرحها داخلنـا وفي ذاتنا، ونقف على لغتها الرمزية وما تكنزه في أنفاق تجاويفها، هذا إذا سلمنا بـأن لغتها تختلف عن لغة التعبير المألوفة في عالمي الشعر والنّثر. إن معرفة العناصر فـي الحكاية بدءا من الشخصيات المحورية والثانوية ثم العناصر الأخرى التي تسندها مـن حيوان ونبات وجماد " الشيء" يقربنا أكثر من القصص الصوفي فنعرف المعين الـذي يستقي منه مادته، هذا من جهة وفهم الحكاية أكثر بإدراك العلاقة بين العناصر المكونة لها من جهة أخرى، وقتذاك تنجلي الحكاية فنصل ونلامس أعماقها، وبـالإطلاع علـى الجوانب المهمة في حياة الولي، طبيعة المحيط والبيئة التي يعيش فيها، نوع العلاقـات التي تربطه بغيره، ثم الصلات التي كانت ترسم طبيعة العلاقة بينـه وبـين المجتمـع والعقبات التي وقفت عائقا دون تقدم المجتمع، ومتى يتدخل الـولي ؟، هـذه تسـاؤلات وانشغالات هؤلاء لأولئك، نريد تلمسها وإخراجها من تزاحم السرد ورموز الكلمات ومن تستر المعاني إلى الفضاء الواضح الجلي، فنقرأ الحكاية بصيغتها الأخرى وهـدفنا هـو التفكيك لإعادة التركيب والفهم من قبل ومن بعد، ليس واحدا تكلم هي الغاية التي أرانني شغوفا الوصول إليها.

الكرامة وعلاقتها بالحيوان والنبات والجماد:

1/ الكرامة والحيوان:

عرف الإنسان منذ القديم بعلاقاته المتميزة مع الحيوان، فهـي تتسـم بالألفـة والمودة والمساعدة حينا وبالصراع والخوف والنّفور حينا آخر، وقـد سـكن الجحـور

---

279 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 36

280 ـ ناهضة ستار، بنية السرد، ص71

والمغاور والكهوف محاولا الإقتراب حتى من تلك الحيوانات الضارية المفترسة آمـلا كسب رضاها ومن ثم السيطرة عليها والتحكم فيها والعمل على ترويضها وإسكانها معه في الجو الأسري لتعيش جنبا لجنب مع الحيوانات الأليفة وكسر حاجز العداء والصراع بينها (لا مرية في أننا بتوحيد التناقضات نحصل على الجديد ويتم الخلاص) 281. إن العلاقة بين الصوفي والحيوان ليست مبنية على العداء، إنّما تنبع من طبيعـة سـيطرة الولي على الكائنات والتحكم في مصيرها، وهي تؤدي وظائف تجعل الكرامة تتجلى في أسمى معانيها خارقة كل الحواجز مقربة البعيد ومصيرة المستحيل ممكنا، فلعل الحيوان الضاري الأكثر ظهورا في الكرامات هو الأسد فهو حيوان مفترس آكل اللحوم، فالكـل تحت سطوته وسلطته، يفرض نفسه في مملكته، لكن نجد الصوفي يقلب المعادلة ويحوله إلى أليف مطيع تابع بعد أن كان متبوعا ومأمورا بعد أن كان آمرا.

ـ ـ في الكرامة الأولى لسيدي مروان، يأمر الشيخ سيدي يحيى طلبته بالبحث عن الأسد والقضاء عليه لأنّه انتهك حقوق الآخرين فأكل حيواناتهم، يرجع سيدي مروان والأسـد يرافقه فيتحول الأمر من النّقيض إلى النقيض، ويتخلى الأسد عن طبيعته ويصبح أليفا.

نماذج علاقة الولي بالأسد كثيرة إحصائيا، يؤكد محمد مفتـاح هـذه الحقيقـة (أهـم الحيوانات التي نجدها في كتب الصوفية، الأسد، فالصوفي يطرده ويضربه بالقضـيب، ويفتل أذنيه ويحرشه على مناوئيه ويتبعه في انقياد تام)282، وهكذا يتغير الحال فالأسد الذي نعرفه فنخاف منه ليس هو لدى الصوفي، نجد الحيوان يخدم الإنسان يتفق معه أو يحاوره، شرسا متوحشا لا يؤمن مكره يتحول إلى حيوان طائع يجيب أمر سيده، الأسـد يرعى الغنم ويحرسها من الأخطار. إن رجوع سيدي مروان والأسد يرافقـه والنّـاس ينظرون إثبات للكرامة في مساحة أكبر وفضاء أوسع، ثم إن الولي ليس في حاجة إلـى تقديم البرهان على أفعاله فهي واضحة وتصبح من الأمور العادية لديه.

تأخذ الكرامة انتشارا بجال الصوفي في المكان، ثم إن تآلف الأسد للولي يمثـل وظيفـة مصالحة، سيدي يحي يقول لطلبته: ابحثوا عن هذا الأسد، اقتلوه وبالقضاء عليه يستقيم الوضع وتأمن الحيوانات من شره، إن الولي لا يبتغي القضاء على الأسد إذا لزم حدوده،

[281] ـ علي زيعور، الكرامة الصوفية، 187

[282] ـ محمد مفتاح، دينامية النص، ص 140

وهنا يحافظ الصوفي على العلاقة التآلفية بدل العدائية، وهذه الوظيفة أشبه بما هو عنـد أبي مدين في قصة الأسد الذي أعطاه للشخص الذي افترس حماره وقـال لـه: خـذه واستعمله فيما أنت في حاجة إليه فأرجعه الرجل لخوفه الشديد منه فقـال أبـو مـدين: للأسد: (إذهب ومتى أديتم الناس سلطتهم عليكم) 283، وبهذا يـردع الظـالم ويـرد الاعتبار لصاحب الحمار بتحويل الوظائف ثم يأخذ الرد طبيعة الشرط " اذهب ومتى ".

تتجلى قدرة الولي أكثر في تعامله مع الحيوان والجن فله السيطرة الكاملة عليها، فالشيخ البربري (... يقضي على العفريت الذي يأتي ليلا إلى جزيرة " ذيبة المهـل " ويأخـذ عذراء يفضي بكارتها ويقتلها، يقرأ الشيخ القرآن وبه يقضي على العفريت وينقذ عذارى الجزائر)284، وتأخذ هذه الحكاية وظيفة الإنقاذ، فبالقرآن كانت نهاية العفريت الـذي كان يقضي المضاجع، فدخل أهل الجزيرة في الإسلام، وهنا نرى أن الكرامة تكون دليلا وحجة وبرهانا، وتتجلى وظيفة العجيب بقراءة القرآن، ويتم قهر الشر فتنجو العـذارى من القدر المسلط عليهن، فيكون أبو البركات المغربي الذي يرد العفريت ويقضي عليـه وبذلك يسلم ويسلم أهل المدينة

ـ الكاهنة تأخذ الملك سيف بن ذي يزن وتطير به في الفضاء 285، وفي الكثير مـن المواقع تساعده الجن وتعطيه مفاتيح المقفل وتساعده لفك المنغلـق وكشـف الأسـرار، وتأخذ ها قصة صورة الجنية التي تجازي الملك " سيف " فتأخذه إلى جبـل العجائـب، وينقل الباحث " حكيم " قصة طائر الحداة الذي سرق القديد فأوقه الشيخ يحـي بـن محمد المديوني في الجو فوقف وما قدر على الطيران حتى مات وثعبان عظيم يحـرس بستان ابن مخلوف، وابن جابر الرحبي يركب السبع في الرحبة 286.

من كل ما سبق نصل إلى أن الرابطة بين الحيوان والصوفي قوية، بإشارة يأمر فيطيـع ويصبح خادما له، ويصل الباحث "علي زيعور" إلى نتيجة مفادها (أن الأسد الذي يطيع الصوفي يأتي تعبيرا عن اجتياز مرحلة الصراع بـين المثـل الروحيـة والنـوازع أو

---

283 ـ آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي، 228

284 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 81

285 ـ سعيد يقطين، ذخيرة العجائب، ص 30

286 ـ حكيم مولود، الكرامة في تلمسان ص 146

الطاقات البيولوجية)287، بمعنى أن السيطرة والتحكم في حيوان مثل " الأسد " يمثـل قمة النضج في ذات الصوفي والوصول إلى التوازن وتجاوز مرحلة التوتر والقلق.

تظهر الكرامة هنا تمثيلا للرغبة في تجسيد المطلق داخل الذات، وإبداء للجزء الإلهـي القائم في الإنسان والذي يدفعه للبحث عن الخلود وتجاوز الشروط الإجتماعية والمادية، ويقدم الباحث " بورايو " قصة الولي الصوفي وهو لا يزال في بطن أمه الطفلة الصغيرة عند ما قصدت الغابة فظهر لها الأسد فخافت فناداها من بطنها وطمأنها لتستخدمه حمارا وتحمل عليه الحطب 288،على حد تعبير الراوي. إذا كان بعض القصص قـد نقـل أخبار " السبع " وهو يروع الناس ويبعث فيهم القلق والخوف مثلما ورد في أخبار الهند (أسد يهجم ليلا ويأكل الناس)289، إن الولي حوله من طبيعته الغذائية الشرسة إلـى الألفة والمودة. إن للحيوان حضورا قويا في الأثر الأدبي وظف بطرق مختلفة، في شكل رموز تحمل أفكارا تعبر عن العلاقات والصراعات داخل شبكة أفـراد المجتمـع بـين السلطة والرعية والحاكم والمحكوم، كما نجد عند ابن المقفع في " كليلة ودمنة، وألـف ليلة وليلة " وكتاب الحيوان عند الجاحظ ذكر أن: (أن حية بن العنبـر تنتصـب فـي الصحراء كأنها وتد فيأتي الطائر ويتهيأ له كذلك، فيقف على رأسها فتلتهمه، تقضي على المتوهمين بالإيماء والتمويه، ولكن في الكرامات نجد هذه الحيوانات مسـخرة للـولي، تخدمه وتلبي أوامره وتطيعه.تعددت الوظائف واختلفت وتنوعت العلاقات بين الحيـوان والإنسان، نجد الجارية في " ألف ليلة وليلة " تغمز القرد وتخبئه عنـدها وصـار لـيلا ونهارا " أكل، شرب، جماع "، والدب يقيم علاقة جنسية مع إحـدى الجاريـات، وفـي قصص أخرى تتكلم الحية وتقول: أنها من سكان جهنم290، كما قد يتحول الإنسان إلى طائر أو حيوان أو العكس. وفي حكاية ثانية من كرامات سيدي امحمد بن علي يتحـول بعض طلبته إلى طيور ويتحول هو إلى نسر يلاحقهم، وظاهر التحول والإنتقـال عبـر أكال وأجناس عديدة عرفت في التراث، في ألف ليلة وليلة، الكبش يتحول إلى إنسـان،

---

[287] ــ علي زيعور، الكرامة الصوفية، 185
[288] ــ عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي، ص 114
[289] ــ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 144
[290] ــ علي زيعور، الكرامة الصوفية، ص 48

المرأة إلى غزال، والإنسان إلى سمكة، والجارية إلى بقرة 291. يذكر النبهـاني فـي جامع الكرامات الكثير من القصص التي يتحول فيها الصوفي ويلغي الحاجز بينه وبـين الحيوان والطير، فيتقلص أمامه المكان والزمان، ويدعو أحدهم فيستجاب لـه، ويكـون غيره قادرا على إحضار الأشياء التي لا توجد عنده في

طرفة عين، وقد نبحث عن شخص منهم اختفى في المكان نفسه الذي أنت فيه، لكنك لن تعثر عليه، إنه عالم الكرامات الذي يغيب فيه الحاضر ويحضر فيه الغائـب. إن رمـز الطير في الكرامة يأخذ بعدا له دلالة المجاز والتجليات التناصية مع قصـص القـرآن، فالنبي سليمان يفقه منطق الطير ويسخّر له، والطير يرمز إلى السرعة واختراق الآفاق، والطيور الشائعة في التصوف أربعة العنقاء (وهي الهواء الذي فتح الله به أجساد العالم، الورقاء " النفس الكلية " العقاب " العقل الأول " الغراب " الجسم الكلي)292، ويرمـز الجاهليون قديما لروح الميت ب " الهامة " وهي طير ينبيء بالشؤم وسوء الطالع، وفي معتقداتنا الشعبية، الفراشة في البيت ترفرف على روح أحد الأفراد ليموت عن قريـب، وعندنا في منطقة " مجاجة " معتقد شعبي يذكر بأهل المنطقة بأن طائرا أسودا يأتي ليلا يسمى " الجفويوة" ويغرد على أرواح الصبيان الرضع ليأخذ فيموت مـن غـرد علـى روحه.

والطير عموما يعبر عن المعرفة الحدسية والطاقة الروحية، ويأخذ رموزا عديدة لـدى الصوفي، ف" الحمام " عندهم يعبر عن النفس، كما تتجسد في الطير والحيوان الوظيفة المساعدة، ونجد ذلك في قصص وحكايات كثيرة، فالملك سيف بـن ذي يـزن يسـمع طائرين يتكلمان في جزيرة الهوام ويرشدانه إلى الطريق الأصوب، وتدله الطيور علـى ينبوع الماء، ويتعلق برجل الطائر العظيم " طائر الروح " لينقله من عـالم إلـى آخـر 293. يأخذ الحيوان والطير والحشرات صفة الحامل لرسالة ردع الظالم والإنتقام منـه للضعفاء ورد الإعتبار لهم، الكلاب تتخلى عن وظيفتها في قصة القاضي العادل الـذي قدمه السلطان للكلاب لتنهشه، لكنها لم تمسه بسوء، لأنّه تقي يخاف الله، فخوف الله منه

291 ـ المرجع نفسه ؟؟؟
292 ـ علي زيعور، الكرامة، ص 179
293 ـ سعيد يقطين، ذخيرة العجائب، ص 37

كل شيء. إن تسليط الظلم على الأتقياء يأخذ فيها الفعل عكس طبيعته، وتخـرج فيهـا العناصر عن وظيفتها (الكلاب لا تنهش، وتنقلب الغايات، بدل القضاء علـى القاضـي العادل لا تقربه الكلاب، ينجو من الموت، ويرجع السلطان عن غيه لما رأى البرهـان أمام عينيه) 294، وتتجلى هنا وظيفة العجيب في الإنتصار على العدو واعتراف العدو برؤية البرهان والكرامة، وفي حكاية ضياع السكين للجندي الفرنسي بعد ما رأى أمـام عينيه من سيدي بن شرقي اعترف وقرر زيارته وقال للناس: هذا الشخص ليس وليا بل إله. إن ظهور الكرامة غير العلاقة بين الصوفية وأعدائهم، لأن صاحب الكرامة يكـون المنتصر دائما، وفوزه هذا من شأنه أن يكسبه الاحترام والتقدير، وبهذا يصـبح عـدوه خديما يلازمه ويطيع أمره، لأن الكرامة أفحمته، ولم تدع له مجالا للشك فـي مقـولات الولي الصالح. إن النجاة من الموت مع الظروف المهيأة له أمر يدعو للعجـب ويقلـب الموازين، ويصبح المعاقب المهدد بالموت مجازى، القاضي العادل يرد لـه الإعتبـار وتبنى له زاوية ويهاب شأنه، وفي (... ألف ليلة وليلة، يحكي الرواة قصصهم لتخليص أنفسهم من الموت الذي يهددهم به السلطان في كل لحظة، وقد يحصل الراوي بالإضافة إلى نجاته من الموت على هداي وعطايا، وبمقدار العجيب في الحكاية يكـون الجـزاء)295، وهكذا تصبح السلطة الدينية في الشيخ متبوعة بعد ما كانت تابعة آمرة بعد مـا كانت مأمورة، ومصدر تبرك ومهابة يخشى جانبها. إن امتلاك هؤلاء الرجال لمثل هذه القدرة على الثواب والعقاب وقلب الموازين، حيث يكون هو المستهدف بالعقاب فيصبح المجازى والمثاب، ويرد له الإعتبار ويطلب عفوه وغفرانه، وهذا من شأنه أن يجعـل الناس يتقربون إليهم ويخشون جانبهم، وقد يصل الأمر حد التقديس، وكيف لا يطاع من يحكم عليه بالقتل فيقذف إلى الحيوانات الضارية فتقترب منه وتألفه ولا تمسه بسـوء ؟، فالكرامة تغير العلاقة بين الولي وأعدائه ومناوئيه، فينقلب لديه العدو صديقا. وتأكيدا لما ذهبنا إليه من إثبات القدرة للولي نورد حكاية أخرى وتتمثل في: (أن الفيلة تأكل أولئك الذين جاءوا فمسكوا فيلا صغيرا وذبحوه وأكلوه، وقد نهاهم الشيخ عن ذلك فلم يـأبهوا

294 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 79
295 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 80

به، فكان العقاب لهم، والجزاء للشيخ بأن أخذته الفيلة إلى مكان الوفرة والنّمـاء)296، والجراد الذي يكتسح كل أخضر فلا يبقي ولا يذر من الزرع شيئا، جرادة تكلم الرجـل الصالح وتقول " أن البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعهـا " وتأخـذ هـذه الحكاية منحى الوظيفة التطهيرية 297. إن علاقة التدخل بين الحيوان والإنسان تكشف على أنها من عالم واحد ,الجماعة وجدت مكسبا في الفيل الصغير فيكـون طعمـا لهـا ,الشيخ ينهى فلم يطاع ,الفيلة تنزل القصاص با لمتعدي وتعطى المكافأة الشيخ ,والنماذج التي تحوي الجزاء والعقاب في قصص الكرامات كثيرة ومنها قصة سيدي عبد القـادر والعجوز 298 ومضمونها أن جماعة من الأولياء برفقة سيدي عبد القـادر بحثـوعمن يستضيفهم ولم يقبل أحد إلا عجوزا كفيفة مع ابنتها لا تملك إلا عنـزة وحفنـة شـعير فذبحتها لهم وحضر كل أهل القرية وأكلوا منها ,في الأخير اتفق الأولياء على إكرامهـا فواحد رد لها بصرها وآخر رد لها ابنها الغائب ,وآخر بنى لها قصرا دعائمـه مـن الذهب ,والثالث آتاها بقطيع من الغنم اقتطعه من الذين امتنعوا عن دفع الزكاة ,تنتهـي الحكاية بالجزاء والثواب للعجوز على ما صنعت معهم والعقوبة وردع الظالم بـا متنـا عهم عن استضافهم ودفع الزكاة ,وفي القرآن قوم طغوا في البلاد فأكثروا فيهـا الفسـاد فسلط الله عليهم القمل والضفادع والجراد ,وذكرت بعض الأساطير غـزو الحيوانـات والطيور والحشرات الناس عقابا لهم ,وقد يأخذ الحيوان والطير صفة العقاب للظالم في أشكال مختلفة، وقد يستهين الشخص بكلمة أو بعهد قطعه الصوفي على نفسه، فيسـخر منه ويتخذ هزؤا، فتنقلب الأحوال على الشخص نفسه لأنّه استهان بضوابط الولي ومـا قدرها حقّ قدرها، ونلاحظ ذلك في المرأة التي قالت: إن ابنتي ليست عنـزة أزوجهـا بأربعة " دورو" وبالليل نامت ابنتها وأصبحت بشعر الماعز يكسو جلدها، فالبنـت هنـا عوقبت بلفظ أمها، فقرار الولي وقوانينه قواعد وضوابط لا يجوز الحياد عنها، فالخارج عن النواميس لا يفلت من العقوبة، وينزل عليه العقاب من جنس القول " ابنتـي ليسـت عنزة ". إن المذنب تلزمه التوبة والإستغفار لما ارتكب من جرم فهو آثم، وتستدرك الأم

---

[296] ـ المرجع نفسه ص 57

[297] ـ المرجع نفسه

[298] ـ عبد الحميد بورايو ,القصص الشعبي ,ص 112

بعد تنبيه القوم لها بأنّها دعوة سيدي امعمر خرجت فيها، فقد عوقبت بلسانك فتحول النّفي بلسانها إلى إثبات وحقيقة في ابنتها، فالأم تذنب والبنت تعاقب أهي المفارقة القائلة: بأن الأولاد يعاقبون بما يفعل الآباء ؟، وفي المثل: يديروها الوالدين وتحضر للذرية، إنّها حكاية تحمل مفارقات كثيرة، وتعتذر الأم وتذهب إلى سيدي امعمر وتطلب الصفح بين يديه فيغفر لها فتعود ابنتها إلى أصلها أو أجمل، هكذا يكون نظام ردع الظالم قد أخذ مساره في هذه الكرامة، وتظل قوانين الولي قواعد لا تقبل الإختراق. وفي حكاية الرجل الذي توقفت به السيارة في الطريق وانتهى البنزين فيقول له ذلك الصوفي: املأها ماء وسر على بركة الله واحفظ علينا هذا الأمر لا تذكره لأحد ويظل الرجل كذلك لمدة أشهر لم يملأ بنزينا لسيارته، وتظل الكرامة صالحة لأنّه ما زال وفيا للعهد، ولكنه لما أفشى السر فسدت الكرامة، وتحول الأمر إلى النّقيض، فبعد أن كانت تسير بالماء، أصبحت لا تسير بالبنزين حتى غير المحرك فالحكاية هنا تأخذ طبيعة ردع الظالم لنفسه، فكان مجازا من الولي يحمل كرامته ثم حينما فسدت سريرته ذهبت كرامته. وقد يأخذ الحيوان والطير صفة الوظيفة المناقضة، فالحية تساعد إبليس على إغراء آدم وإنزاله من الجنة، وهي التي سرقت عشبة الخلود من قلقامش وظلّت تجدد جلدها علامة على خلودها[299]، فمهما تغيرت الدلالة وتنوعت الوظيفة، فإن عالم الحيوان والطير كان ضمن العناصر الأساسية التي وظّفها الصوفي لخدمتة ومساعدته في مهامه، فالطيور كلمت رابعة، والجمال تكلم السطامي وغير هذا في حكايات الكرامة كثير [300]. زيادة على ذلك، فلقد أخذ الحيوان في بعض القصص صفة العجيب، ثعابين تبتلع الناس، مثلما أخذت صفة شخصيات فاعلة، ولها دور يسند إليها في تهيئة الأفعال والإنجاز، فتأخذ بعدا رمزيا خالصا يلجأ فيه الحاكي إلى " أنسنة" الحيوان وجعله يتكلم يحاور ويفكر[301]، وتختلف صيغ الوظائف من رمز النملة التي كلمت سليمان إلى الهدهد الذي كان طائعا ملبيا لأوامره إلى الجاحظ وابن المقفع، في كل هذه الآثار نجد الحيوان والطير والحشرات تحمل رسالة لتصل بها إلى الأفق لتجلية معنى أو فك لغز أو تلميح أو مجاز أو تعبير

[299] ـ ملحمة قلقامش، ص 116، نقلا عن سعيد غانمي، الكنز والتأويل ص 49
[300] ـ علي زيعور، الكرامة الصوفية، 48
[301] ـ ناهضة ستار، بنية السرد، ص 87

عن حكمة، وفي كل الأحوال فإن الحيوان الناطق بلغة البشر والطـائر الـذي يفصـح والحشرة المتكلمة، كل ذلك صورة للتعبير عن هموم وانشغالات الإنسان المختلفة. وفي القصص الصوفي الموجه إلى عامة الناس وإلى السلطة وأهل الحل والعقد، يأخذ حضور الحيوانات فيها بعدا آخر، حيث يعمد الراوي إلى إسناد الشخصية المرجعية بشخصيات خيالية أو تخييلية لا وجود لها في الأصل وذلك من أجل توليد الأدوار وتنمية عنصـر المتعة والتشويق، وتمديد مسافة ومساحة الحكاية 302 هذه الحكايات تجعلنـا نـدرك تقارب عالم الإنسان والحيوان وخدمة كل واحد للآخر. مما سبق نستخلص أن الحكايـة الصوفية أوجدت لنفسها مساحة تكتسح عوالم كثيرة، ومن خلالها بدا الصوفي الحقيقـي هو الذي يمارس على الحيوانات سيطرة مطلقة، فيعيش معها ويفهم لغاتهـا ومنطقهـا، وظهرت له مساعدة تؤدي ما يأمرها به، وأن كل هذه الحيوانات جنود مجندة في خدمة الصوفي كما كانت سابقا جنودا مجندة في خدمة الأنبياء والرسل. إن دلالة الرمز كتعبير خاص عن محتوى النفس " الماء، النبات، الحيوان "، إن هذه العناصر يعبـر عنهـا (بالإستعارة والرمز أكثر مما تستطيعه الكلمة الشائعة أي اللغة المألوفة والعامـة)303، وقد نبه الصوفيون إلى ما يحمله الرمز من دلالة تغني عن غيره وما يحمله قدرة علـى التعبير والإيحاء والإفصاح عن التجربة الصوفية، فاستنطقوا الطير وكلّمـوا الحيـوان وتحكّموا في مصيره، وصيروه لرغبتهم وإرادتهم وبهذا صارت الكرامة معجزة يحققها الصوفي وفقا لرغبته.

2/ الكرامة والنبات:

تحكم الصوفي في النبات ووظفه لخدمته في الحكاية الثانية لسـيدي يحـي، ونظـرا للمجاعة التي أصابت الطلبة، فما وجدوا ما يقتاتون به، فيذهب بهم إلى شجر " العليق " ويضرب بالعصا أغصانه فإذا بها تعطي ثمار التوت وتحل الأزمة، وكما هو معروف عن هذا الشجر فهو مكثّف غزير الورق لا ينتج، ولكن يحوله الولي إلى شجر عجيب، وفي ذخيرة العجائب يكشف الملك " سيف " في جزيرة واق الواق، الجزيرة الخامسـة

302 ـ المرجع نفسه

303 ـ علي زيعور، الكرامة الصوفية، 173

الشجر ذي الثمار الطيبة ولغته أحسن اللغات 304، والشجرة تخاطب "الشبلي " قائلة: (أحفظ عليك عقدك لا تأكل مني) حين عقد في ذاته أن لا يأكل إلاّ حلالا 305. وفـي عجائب الهند الشجرة الخضراء التي تظل أوراقها كذلك تسقط منها كل خريف ورقـة واحدة مكتوب عليها بقلم القدرة " لا إله إلاّ الله محمد رسول الله "، يأخـذ المسـلمون نصفها للإستشفاء بها ويوضع النصف الآخر في خزانة السلطان الكافر، ويذكر أن هذه القصة كانت سببا في إسلام أحد الملوك، ولكن أحد أبنائه طغى وكفر وأمر باقتلاعهـا فاقتلعت 306، لكنّها نبتت من جديد وهلك الآثم، وتأخذ الشجرة هنا وفـي القصـص الصوفي عامة صفة القداسة والخلود، فهي تنبعث من جديد ويـردع الظـالم بهلاكـه، وتقوم الشجرة هنا بأداء وظيفة وتبليغ رسالة " الدعوة للتوحيد " وتأكيد الإيمـان فـي القلوب حتى لا يأخذها الإرتياب، كما أنّها ببقائها خضراء تؤكّد صفة الديمومة والحياة، وتقدم الشجرة وظيفة تربوية تخلّد ركنا من أركان الإسلام " الشهادتان " أهم ركن تقوم عليه القواعد، فهي تريد ترسيخه وتأكيده، كما تنبذ عبادة الأوثان والرك والقاعدة التـي تنفيها وهي الكفر. والنبات معروف بوظائفه في القصص الشعبي، ففي حكاية امحمـد بن سلطان عندما يقضي على" الغولة " ويخرج من بطنها أخوه مع الفـرس والكـلاب السوقية التي كانت تساعده في الصيد، جلس متأملا باكيا الأجساد الميتة، وبينمـا هـو كذلك جاءت أمامه نملة تطارد نملة أخرى فقال لها: احذري أن تقتلي أختك ثم تنـدمين فقالت له: أنا أقتلها وأحييها فقال لها: كيف ؟ فقتلتها ثم ذهبت وأتت بحشيشـة " نبتـة الخلود والحياة " ووضعتها في أنف أختها فرجعت لها الحياة، فقلّـدها وصـنع مثلهـا فعادت الروح لأخيه ولفرسه والكلاب. وخلاصة القول في هذا الباب أن النبات لـيس جمادا يحول إلى خشب يحرق فحسب بل تميد في الآفاق تؤدي وظائف مختلفة، يعبـر باخضراره عن بهجة الحياة وزينتها، يملأ الأرض ويشد الجبال الرواسي، ويصبح أداة مسخرة ووظيفة مساعدة تسند الصوفي كما نجده يساير البشرية فيذكر فـي ووظيفـة مساعدة تسند الصوفي كما نجده يساير البشرية فيذكر في حركاتها وسكناتها، وقد ذكره

---

304 ـ سعيد يقطين، ذخيرة العجائب، 42

305 ـ القشيري ص 173، نقلا عن نا هضة ستار، بنية السرد ص 188

306 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 67

القدماء في حكاياتهم وأساطيرهم ووشح الأدب فكان الرمز يفي بالإشارة عن التلميح والتصريح، واللغز يشتق من اللغز ليزيد عنصر التكثيف، فالرمز متجدد في النّفس يضرب في عمق الوجود كما بين الكثير من الدارسين لأدب العجائب والغرائب.

3/ الكرامة والجماد:

الماء في الحكاية:

الماء رمز الحياة، دلالة الوجود، وعنصر التعمير، وهو أكثر العناصر وضوحا في الطبيعة، وعنصر النّقاء والطهر به يتوضأ المسلم ليعبد ربه، فالماء والتراب عنصران طبيعيان للتطهر، إن فقد الأول وجب الثاني، وهو في الكرامة رمز للاوعي وإشارة إلى الحياة، والماء والتراب يدلان على التطير وهما رمز للحياة الجديدة 307. يأخذ الماء في المتن بعدا قويا وحضورا مكثفا، ففي الحكاية الثالثة لسيدي بن شرقي، الماء في أغزر حالاته فيضان وهيجان، يسقط الصبي من يد أمه في الواد ويضيع فيخرج من تحت البرنوس بعد أن فرغ قلب الأم، هنا يأخذ الماء طابع الهلاك والغرق بقوته وكثرته، ويأخذ وظيفة إنقاذ، وفي التاريخ قديما وحديثا قضى الماء على الكثير، ثم إنه يأخذ الوظيفة التطهيرية زيادة على الوضوء والطهارة فإنه يغسل به الميت ليلقى ربه طاهرا، وصفة التطهير بارزة في فيضان نوح عليه السلام، فكانت طهارة الأرض من الأرجاس والأنجاس (والطوفان ولادة جديدة ولا ولادة بدون موت)308، فالطوفان هنا يؤدي وظيفتين، الأولى هي القضاء على عناصر الشر بالعقاب والسخط بالقضاء عليهم، والثانية إعادة التعمير بعد التدمير وفي الحكاية الحادية عشرة، الماء يحل محل البنزين وهي وظيفة إنقاذ، فالماء يحل بديلا ويصبح الوسيلة المنقذة، الماء موجود والبنزين مفقود فحل ذاك محل هذا، والماء يأخذ عند الهنود بعدا عقائديا، حيث يسود الإعتقاد بأن نهر الكنك من أنهار الجنّة فيلقون بأنفسهم فيه للغرق وللقاء كساي إله الماء 309، ويهتم الهنود بإضفاء هالة وقداسة على الماء اعتقادا بأنه أول عنصر وجد في الكون. أما في الحكاية التاسعة لسيدي بن شرقي فتتمثل في أن الماء

---

307 ـ علي زيعور، الكرامة الصوفية ص 176

308 ـ فريد الزاهي، الحكاية والمتخيل، 59

309 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 230

يكتسح المكان ويصل إلى زاوية الشيخ، فيكتب له رسالة ــ الولي يملك لغة التخاطب والتحاور مع عناصر الطبيعة ــ فيأمر الماء بالانحصار والجـلاء " ياقـادر اهلـك عدوي بكيده " بيت شعري مضمون الرسالة، والشعر يأخذ صفة المجـاز والإيحـاء، فيعمد إليه الصوفي باعتبار أنه أسرع وقوعا في النفس وأسهل فـي الأخـذ وأطـرب وأرغب للأذن، وقديما قالوا: الشعر سبق من النثر لسهولة أخذه وميـل الـنفس إليـه، وتأخذ صيغة الرسالة طابع المناجاة لله فتبلغ المرسل إليه المخاطب والمتلقـي وجهـا لوجه وبهذا فهي تؤدي وظيفتين: إخفاء الكرامة لأنّه لا يريد لها الكشف فهي سر بينـه وبين الله ليس للناس الإطلاع عليها، وثانيا إن مضمون الرسالة وصل المرسـل إليـه، فأجاب الأمر وانحصر وابتعد عن الزاوية، فالحكاية هي قيمة وفائدة وحاجـة. وفـي الحكاية الثانية عشرة، بثلاث حفنات يطفيء النارالقوية، الماء والنّـار نقيضـان الأول يلغي الثاني ويقضي عليه، وظيفة دفع الهلاك والكوارث تأتي النار على الزرع، مـاء قليل من يد الولي يرميه عليها تنطفيء ويعود الوضع إلى الأصل ويستقيم، الناس لـم يجدوا رماد الزرع الذي احترق.

سارت الكرامة قدما في طلب الماء كندرته وانعدامه أحيانا، تبحث عن مسـاريه فـي تجاويف الأرض، ففي الحكاية الثالثة لسيدي امحمد بن علي، النـاس تطلـب المـاء، يضرب الولي بعصاه فينفجر الماء ينابيع، الماء عنصر مفقود قليـل الوجـود، الـولي حاضر في النكبات والأزمات، هو المرجعية والملاذ.

ينقل محمد مفتاح 310 قصة أبي الوكيل المتصوف الصالح الذي أعـد حفـرة لمـاء المطر، حيث احتبس في وقت نزوله فكان الناس يرحلون من بلادهم إلى موضع الماء، أمر أبو الوكيل قومه أن يسقوا من الحفرة، وتحاول زوجته أن تمنعه فيعرض عنهـا، انتهى ماء الحفرة فدعا الله ليغيثه، فنشأ السحاب وهطل المطر، الجزاء بالجزاء " وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان " لا يمنع الماء عن الناس فلا يمنعه الله إجابة الدعاء، الولي يعيش مع الناس أزماتهم وهمومهم، فهو لا يعيش منعزلا ولا منفردا. يكتسي الماء في الحياة أهمية بالغة، وفي الحكاية يحضر كعنصر وفرة مقابل الندرة ويزيد عن الحـد

[310] ــ محمد مفتاح، دينامية النّص، ص 144

حتى يصير فيضانا، فيقف الولي في مواجهته لدفع الهلاك إنّه العنصر الـذي يحمـل النّقيضين وبهما يؤدي إلى نتيجة واحدة هي عدم وجوده تنعدم الحياة ووجـوده بقـوة يؤدي إلى هلاك وغرق، فهو عنصر الوجود والعدم.

الكرامة والنّار:

النّار رمز الأنس والوجود وامتلاء المكان بأهله، وللنّار رموز ووظائف عديـدة فـي الحكايات والأساطير، وقد ذكرت النار في القرآن الكريم، نار إبراهيم عليه السلام التي كانت بردا وسلاما فصارت معجزة، فالنّار لم تؤد وظيفتها، حرق الأجسام، تحويل كلّ شيء إلى رماد، ويقف الولي للنارالند للنّد في الحكاية الثانية عشرة لسيدي بن شـرقي، حفنات من ماء تقضي على النار، الماء يأخذ طبيعة النّقيض فبه تموت النار وتخمـد، والنار تقتل وتحرق، وبها تعالج الكثير من الأمراض والإلتهابات، فالتطهر من الأورام يتم بالكي، وتحرق الجثّة لتطهر، والخور دخان نار حرق مواد تعطي رائحة يتعطّـر الناس بها فيتطهرون (وحرق الجثة هو تطهير لها، فإذا انتقلت إلى العالم الآخر فهـي كذلك)311، كما أنّها تناسب من يقولون بفناء الأرواح بالقضاء على الجسـد يصـبح رمادا لا بعث ولا حياة بعد هذه، وبعد الحرق يتم تطهيرها ثانية فيرمى رمادها في نهر الكنك وهناك تلتقي بكساي " الله "، أو لاعتقاد أنّه لا وجود لعالم آخر فتحرق الجثّة حتى تصير هباء، وبالنّار نقضي على الألآم " فعل الكي "، وبالنّار تفك العناصر في المعادن والتراب في عملية الانصهار. وفي الحكاية الثالثة لسيدي يحي، فإن شرارة النّار تقضي على الحيوان الضاري، الذّئاب لا تؤمن مكرها ـ جائعة تجتمع وتهاجم ـ وأخوف ما يخاف الذئب النار، يتم القضاء على الحيوان المعادي فلا يبقى له أثر، ويصبح الطريق آمنا، فالحكاية تأخذ طبيعة الصراع من أجل البقاء، الذّئاب إذا جاعت هاجمت وافترست حتى البشر، ويأخذ الولي صفة المنقذ والمخلّص، وتأخذ النار طابع الطقس عند الهنود، المرأة التي مات زوجها تتزين في احتفال بهيج، ثم تتقدم إلى النار والناس يأخذونها في موكب الفرح، وتتصدق بلباسها وحليها ثم تلقي بنفسها عارية في النـار وذكـر أنّهـا تتطهر في صهريج ماء قبل ذلك، ثم يرمى رمادها في نهر الكنك المقـدس، نجـد أن

---

[311] ـ يوسف سلحت، نحو نظرية جديدة، ص 17

وظيفة التطهير حدثت مرتين، قبل النار وبعدها، حية تطهر نفسها وميتة يطهر رمـاد جثتها فيلقى في النهر وهناك تلتقي بروح زوجها 312. ونعـود إلـى شـرارة النـار باعتبارها اكتشاف الإنسان الأول كما تذكر بعض الأساطير القديمة، فضـرب حجـر بحجر تتولد منه الشرارة، فالنّار مقدسة لها وظائف عدة في حياتنا الأولى ولها وظائف أخرى في الآخرة، يحرق بها الميت فتحضنه وتلفه بلهيبها، وفي النار تقدس روحـه، وقد شد انتباه ابن بطوطة عجائب النار في الهند، يرقص الناس فيها وهي ملتهبة ولكنّها لا تصيبهم بسوء، ولا تحرق ثيابهم، وتضرم حتى تصير جمرا يتمرغون فيها دون أن تؤثر فيهم. نجد النار كذلك عنصر فعال عند الساحرة، فقد عرف عن بعضـهم أكـل الجمر والنّار، ففي الحكاية الثالثة لسيدي " مروان " يتم اختـراق اللهيـب مـن أجـل التخليص والإنقاذ للصبي، وتمثل النار هنا حاجزا ومانعا لا يستطيع أحد القرب منهـا، فهي تحرق وتخرب وتدمر وتحول كل الكائنات إلى رماد، الولي يدخل وسط النار ولا يصيبه منها شيء، إنّه يملك القدرة على الإختراق،فهو الذي يصير المستحيل ممكنـا، فالنّار وظيفتها الإفساد والحرق، تحول كل شيء إلى رماد تذروه الريـاح. ومضـمون الكلام عن الماء والنار أنّهما عنصران يرمزان إلى الوجود والحياة وكلاهما يحمـلان الوظيفة التطهيرية، والماء نقيض النار، وأن الولي بكرامته يخترقهما ويحولهمـا عـن مسارهما، فبضربة عصا ينبجس الماء من الحجر، كما نسـتخلص أن الـولي يـؤمن حاجات الناس وانشغالاتهم فيحقّق لهم الأمن والإطمئنان، كما يتمتع بقدرة خارقة علـى رفع التحديات، وفي كل هذه الصفات أخذ الطّبيعة الإلهية.

الأشياء في الكرامة:

اتسمت الحكايات بطابعها المنقبي الذي له صلة قوية بالصوفي، عبرت بجـلاء مميز عن القدرة الخارقة والفعل العجيب الذي يقفز به في المكـان والزمـان، وردت الحكاية في نسيجها كلا متكاملا، وكانت الشخصيات فيها فاعلة مؤثرة " إنسان، حيوان، نبات ن جماد "، ونأمل الوقوف عند بعض الأشياء التي جاءت في الحكايات، ولم تكن جامدة، إذ كانت هذه الصفة من طبيعتها عامة، فهي رموز فاعلة أدت وظائف ساهمت

312 ـ المسعودي، الحكايات العجيبة، ص 235

في نمو وتطور الأفعال داخل السرد، وأغنت عنصر المتعة والتشويق، وزادت مساحة العجيب والغريب في النفس، فطبعت الحكاية بسمة لا نجدها في غيرها، وحتى لا يكون كلامنا نظريا يحلّق في الأفق بعيدا عن واقع الحكاية، نعرض لبعض الأشياء والتي أدى فيها الخيال دورا معينا ليخرج المكان أو بالأحرى " الشيء " الموجود فيه مـن طـور القرار والجمود إلى حال الحركية والتحول، لقد أكسبتها القدرة الخارقة للولي خصائص مميزة.

العصا:

يظهر في التراث الشعبي الكثير من تفسيرات الأحلام والأساطير والكرامات
، إن العصا رمز لاتصال الإنسان بالطبيعة وحاجته إليها، وكأن الأمور لا تتم
والغايات لا تبلغ إلاّ بها، وتظل العصا إلى يومنا هذا رمزا لشحذ الهمم، فإذا
عزم الرجل على أ مر تراه يبحث عنها، فهي رمز الذكورة والرجولة، إنّها تسند
صاحبها وترفع شأنه، فهي الأليفة والصاحبة، فقد وجدت في القصص القرآني

فكان لها وظائف عديدة , منها ما علم فصرح به منها ما خفي لحكمة وغاية لا نعلمها , عصى موسى يهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى تتحول إلى أفعـى فتلـتهم أفاعي السحرة قصد إبطال فعلهم ,الحجة با لحجة ,وهم باطل وحق قائم وتأخذ العصـا في بعض الحكايات وظيفة محورية وتصبح خصية تملأ الحدث. في الحكاية الثالثـة (سيد محمد بن علي) العصا تنبط الماء في الحجارة ,منها ينـبجس المفقـود الضـائع المبحوث عنه ,الضرب بالعصا يأخذ دلالات عديدة ,للعقاب والزجر ه الشيخ في الجامع والزاوية يحمل عصا أمام طلبته ليتميز عنهم با السلطة والأمر ,وهـي رمـز للإمـام والقائد لفقهه وعلمه ,هو الفينة يقودها وسط الأمواج والأعاصير ليسلك بها الى الشاطئ الأمان درجة البلوغ والتمكن وتأخذ العصا صفة الحامل لعنصر التفاؤل والبشـرى ,لا حياة بلا ماء والعطش يهلك فالعصا حينما ضربت الأرض أنقذت الأرواح فهي كـائن ذو روح ,يحملها الراعي لينة في نفسه ويحملها المسافر يتوكأ عليهـا ويسـتأنس بهـا ,ويصحبها الأب والمسن وصاحب السلطة " وهي رمز جنسي ذكري ورمز للانبعـاث

والتجدد (........)"313وفي الحكاية الثانية (سيدي يحي) يضرب شجر العليق فيعطي ثمار التوت،شجر العليق معروف عنه الذكورة أي لا يثمر ولا ينجب فهـو عقـيم، لا يحمل صفة التوالد والتكاثر،العصا كائن حي فاعل يؤثر في الأشياء فيحولها إلى فاعلة موسومة بالسخاء والعطاء. وفي الحكاية السادسة (سيدي معمر) يضرب الماء بالعصـا فيشق طريقا يبسا فيه،وعند موسى عليه السلام حينما فر مع الفئة المؤمنة من فرعون، يضرب البحر بعصاه فيصير طودين والطريق بينهما، بالعصـا ينـبجس المـاء مـن الأرض، فالحياة تنبع من باطنها وهي الصحبة ورمز الساطة وسند الخطيب، العصـا واحدة ودلالاتها مختلفة أصبحت رمزا للصراع والنزاع وأداة بعض الرياضات "كـرة المضرب" و"لعبة الصاب" تقابل اثنين بعصيهما كما تضمنت لغة الحكيم ونصيحته إلى ابنائه وأحفاده،مجموعة عصي ماستطاعوا كسرها. ومن ما سبق فـإن العصـا رمـز الوجود والإرتكاز والقوة، وجدت منذ أمد بعيد تزين المقام وتأخـذ بعـدا حسـيا فـي ملازمتها لصاحبها، علاقة الأنس والقرب، أقرب شيء إلى الرجـل سـيفه وعصـاه لاتفارقه في الحل والترحال، فالعصا كائن ورمز ولغة ورسالة تضرب فـي الأسـفار وتحمل اللغة وتشير إلى المكان المقصود.

الـبرنـوس:

هو لباس عربي يتوشح به الرجل للزينة وتزف العروس وهي ترتديه، أفضـل هدية تقدم مع الفرس، رمز السلطان والإمام وشيخ القوم وكبيرهم وقد جاء البرنوس في بعض الحكايات رمزا فاعلا متحركا سيدي بن شرقي يخرج الصبي من تحت البرنوس وكذا السكين الضائع وسيدي مروان يقذف بالبرنوس في البحر فيهتز كالشباك ويمتلـئ سمكا، وهكذا تتحول هذه العناصر المادية الجامدة أو الميتة إلى فواعل تتحرك وتشارك الإنسان وتنجز له الفعل وتبلغ بالعجيب والغريب أقصى مداه. إن البرنوس لباس ساتر وقد يقي من البرد فهو يلف صاحبه ويستره ويقيه ولكن في الحكاية يأخذ بعدا أكثر من هذه الصفات التي يعرفها العام والخاص، إنه يخفي ويستر الضائع بين ثناياه و ونسيجه تنسج الكرامة ويجد الولي نفسه هو المقصود بالإطمئنان بعـد القلـق فيـرد الضـائع

---

313 - علي زيعور , الكرامة الصوفية , 220

والبرنوس هو الأداة الفاعلة والتي يبنى عليها السرد ويصبح البرنوس مالكا صفة تنمية عنصر الحبكة - ماذا يخفي داخله - لباس الولي مقدس يحمل طابع صـاحبه وبـه يصبح معروفا له العباءة أو الجبة و الطاقية، وعرفت هذه الأدوات بوظائف خرجت بها عن العادة والطبيعة فذكرت أفعالها من الخوارق "طاقية الخفاء" و"السجاد الطائر" تساهم هذه العناصر في الدفع بالحركة القصصية فتتحول بذلك إلى فواعل تؤثر في مجـرى الأحداث بعدما كانت أشياء مفعولا بها (....)"1 فالصوفي يتعامل مع هذه الأشـياء لا باعتبارها جامدة سلبية في الأثر بل إنها كائن حي محملا روحا و وظيفـة فـالبرنوس يحمل السر المفقود في ثناياه الأمن والأمان، يقضي على الحيرة والتردد، عالم العجائب حيث تنقلب المعطيات وتتغير البديهيات، والنتيجة التي يمكن أن نخرج بها من عرضنا هذا هو أن الأشياء في يد الولي يحملها أو يستعملها أو أثواب يلبسـها تحمـل صـفة القداسة وتنزع إلى العالم البعيد عن الأرض فقد ذكر عن الشافعي حينمـا سـئل عـن العصا التي كانت تلازمه قال:"كي تذكرني بأني مسافر" التوق إلى العالم الآخر لايريد أن يبقى مشدودا إلى الأرض، طبيعة الانتقال من مكـان إلـى آخـر عبـر العصـا وبمصاحبتها، إنه رمز يشي بحاجات كثيرة.

الـزاوية أو الـبـيت:

قد سبق الكلام عن الزاوية باعتبارها المقر والإقامة فيها يؤسس الولي وجـوده، ومنها يشع العلم، ويقصدها التائه السائل وكل ذي حاجة، فهي هنا ليست منغلقا جامدا، إنها تحوي في المكان مقيمين يحتمون بجدرانها تحصنهم بالعلم والمعرفة والفقه وتحت سقفها الذي يسترهم ويقيهم الحر والقر وتخترقه الأرواح لترتقي وتصل الأجواء العليـا في السماء،فالزاوية ليست أبوابا ونوافذ، إنما رمز ومقصد ومبتغـى إليهـا تضـرب الأسفار ويطلب الشفاء من الأسقام والعلل وبين جدرانها وتربتها يلامسها الزائر فيجدها رطبة ناعمة في الأنس والأمان والإطمئنان. والبيت أشبه بالزاوية فالولي يزوره الناس فيهما وبيته مفتوح للجميع، لكنه في الحكاية ينضوي على وظيفة الصوفي فيه يعـيش العالم الروحي السماوي بكراماته وتجليات ذاته،يخفي وظيفة حكائية تتجسد في الكرامة التي يبقى سرها مخبأ في صدر صاحبها، فهـي أشـبه بصـندوق "وضـاح الـيمن"

والصندوق في البيت إنها لعبة الصناديق الصينية،كل صندوق يحيل علـى صـندوق، والبيت صندوق أكبر يحوي صناديق، الولي تزوره النساء في بيته فهو موطنه الخاص وعالمه لا يعرف خباياه إلا هو، لايعرف حقيقة التجربة إلا من عاشها فهو بيت يـدخل إلى بيت وسر يحيل على سر، وبهذا يظل الصوفي يعيش في عالمه بتجربته يعيش مع الناس ويختلف ويتميز بسموه فيخلق عالما خاصا يصبح فيه المستحيل ممكننا فينتقل من الطبيعي إلى الفوقطبيعي ويبتعد عن عالم الواقع والأرض إلى عالم الرقـي والسـماء فيلغى عنده عنصر الزمان والمكان فيقفز على السببية والعلية، إنها حاجة المدنس إلـى المقدس والواقعي إلى اللاواقعي، والأرضي للسماوي، إنها تركيبة العنصر الذي يكتمل إلا بنقيضه. وخلاصة المبحث هو أن الأشياء الجامدة لا تعرف الحركة بطبيعتها لكنها في الحكاية الصوفية فاعل وصانع للحدث إنها أشياء غير طبيعية، والحقيقة أن المحيط أو البيئة التي يعيش فيها الولي كلها تحمل صفته فالبحر الشحيح أصبح سـخيا حينمـا تعامل معه الولي والشجرة أعطت ثمارا لما حرك أغصانها، إنها طبيعة الأشياء لـدى الصوفي مواد متحركة تبعث برسالة وتؤسس لتاريخ خصـيته وتخبـر عـن أشـياء الولي،أدوات،لباس، تراب يمشي عليه أو أرض يحرثها أو نبات بزاويته أو بمحيطهـا، الشجرة المقدسة تبقى خضراء دائما، النخلة تظل باسقة عالية في السماء الأشياء التـي يستعملها الولي لها دلالة خاصة، الماء الذي يغسل به والسجاد الـذي يصـلي عليـه والأواني التي يأكل فيها وتصبح المسبحة التي يذكر بها مرجعية المريدين وكـل مـا لمسه يظل رمزا للشفاء ومقصدا للتائهين يعتبر إتصالا مباشرا بالولي.

الشخصية في الحكاية المنقبية:

تبعا للمقولة المؤكدة أن لكل فعل فاعل يقوم به، فإن الشخصيات هي الفاعلة في أحداث الحكاية، وهي التي تنطق بها من مبدأها إلى غاية منتهاها، إن أي عمل لا يقوم بمفرده مال يوجد خلف الأحداث القائم بالأفعال، تعتبر الشخصية أهم مكونات العمل الحكائي لا أنها تمثل العنصر الحيوي الذي يضطلع بمختلف الأحداث التي تترابط وتتكامـل فـي مجرى الحكاية، لذا وجدناها تحظى بالأهميـة البالغـة لـدى المهتمـين والمنشـغلين والدارسين."إن كل عمل قصصي يتطلب أشخاصا يقومون بأدوار فـي أمكنـة معينـة

وأزمنة محددة (....)"1 إن أمرا كهذا لايمكن أن يقوم بنفسـه، إن الشخصـيات هـي صانعة الحكاية وعلاقتها بها كالشخص وظله أينما سار فهـو معـه. وقبـل وضـع شخصيات المتن قيد الدراسة والتحليل، لابـد مـن الإهتمـام بالجوانـب التاريخيـة والاجتماعية والاقتصادية في التدليل على الشخصيات خارج الحكاية، ووضـعها فـي إطارها وبيئتها التي نشأت فيها."إن إيلاء الجانب التاريخي المقـارن والموضـوعاتي والنفسي ما يستحق العناية في تناول الشخصية أمر مهم، إنه يضيء جوانب مهمة عن السيرة وتشكلاتها وتحولاتها وصلاتها بالسياقات الاجتماعية والتاريخية التي تبلـورت فيها."2 إن لتكوين الشخصية وأخذها سمات معينة في الوسط الذي نشـأت فيـه بـالغ الأهمية في إكتشاف قطاعات مهمة في الحكاية وقد إختلفت المدارس النقدية المعاصرة في نظرتها إلى الشخصية داخل الحكاية، فمنها التي "اعتبرته كائنـا حقيقيـا واهتمـت بدراسته نفسيا اجتماعيا وتاريخيا، ومنها التي اهتمت بالفعل والوظيفة خارج الشخصية، وأبرز الذين اهتموا بهذا الجانب الباحث الروسي فلادمير بروب(....)"3 إنه لايمكـن دراسة الشخصيات وفصلها عن مرجعيتها أحيانا يعطي الراوي للشخصيات بعدا خاصا وملامح مميزة بغض النظر عن مرجعيتها التاريخية، وقد أشار الكثير مـن الدارسـين إلى ضرورة ربط الشخصية بأبعادها، يعتمد الأستاذ بورايو السياق النفسي والاجتماعي والثقافي في التدليل على الشخصيات."يتم الكشف عن الحـالات والتحـولات النفسـية المعبر عنها في الخطاب و بيان علاقتها بالنظام الاجتماعي الذي تصفه الحكاية "1 هذه الجوانب تضيء لنا الدرب في مسارنا للبحث عن معالم الشخصيات، وقد يسأل سائل ما الدافع إلى دراسة الشخصيات. إن الإهتمام بهذا الجانب يساعدنا في الوصول الى تحديد طبيعة النص فقراءة النص "تهدف إلى الكشف عن مختلف بنياته الداخلية."2 والشخصية هي المكون الأساسي لبناء النص، فإذا أهملنا هذا الجانب ولم نوله أهمية فكأنما نريـد فصل الهواء عن الحياة.

لقد جعلنا هدفنا المركزي الامساك بالشخصيات في الحكاية المنقبيـة وتحديـد البيئـة والمحيط الذي نشأت فيه وماهي المشارب التي نهلت منها هذه الشخصية والروافد التي كانت دعامة في تكوينها عبرمسار التاريخ والتغيرات التي اعترتها في الزمان والمكان،

والظروف الاجتماعية ونوع الثقافة ومستواها المعرفي، كذلك له الأهمية البالغة في تحديد فواعل الشخصيات، مع رصد ومعرفة طبيعة الوشائج التي تحكمها وتوزع الأدوار فيما بينها، كما تبرز الكرامة في نسيجها الحكائي متكاملة العناصر، عند دراستنا لهذا الجانب لايجب أن نغفل تحديد جنس الشخصية باعتبار مساهمة كل العناصر في حكاية الكرامة (بشرية حيوانية نباتية جمادية، شخصيات غيبية من عوالم أخرى) هذه هي الأسس التي نعتمد في اقتحام عالم الشخصيات نحاول تحديد ملامحها بمعالمها وظروفها البيئية، نتتبع فعلها في المكان والزمان، نرسم الموقع الذي تحتله بكل أبعاده، الوظائف المنوطة بها، نتتبعها في مسارها الحكائي من البداية إلى النهاية، تحديد إطارها وعلاقتها مع الحدث. يتم النظر إلى الشخصية"كمجموعة من العلامات والبنيات التي تستمد وجودها وكيانها من داخل النص."3 وينصب انشغالنا على الشخصية في ذاتها ومقوماتها التي تمنحها صفة الشخصية المميزة التي تكسبها في علاقتها مع غيرها من شخصيات يزخر بها النص الحكائي، ويعتمد سعيد يقطين في دراسته للشخصيات في السيرة الشعبية ثلاثة أنواع: المرجعي، التخيلي، العجائبي 4 وتنحو الباحثة ناهضة ستار نفس التقسيم إلا أنها تسمي النوع الثالث الرؤياوية في الكرامة الصوفية، إبان تناول كل نوع سنقف عند الخصوصيات التي تمكننا من ملامسة مختلف الجزئيات والتفاصيل،ومن الضروري رصد الصفات المختلفة لهذه الشخصيات، فهي تمكننا من تبين الأفعال التي تقوم بها ومعرفة الصفات المميزة لها وتمكننامن تحديد الدور الذي قام به الراوي في رسم شخصياته بأبعادها وملامحها، واظفاء الطابع الذاتي عليها، وتجديد القيم التي سعى إلى تجسيدها بصورة حية.

1/ الشخصية المرجعية:

لها وجود في الواقع يستقيها الراوي من عوالم تاريخية، مانحا إياها في الحكاية صفات وأبعاد خاصة، ولمعالم البيئة والمكان الذي نأت فيه دلالات عدة، كما أن هذه الشخصية تدعم بالند التاريخي، فقد يتطابق الحدث الفعلي للشخصية المرجعية مع الحوادث التي يتحدث بها التاريخ عن تلك الفترة مما يزيدها قوة وتمكنا في الحكاية وتجذرا في الواقع والإمتداد على مدى الحياة.هي بعض السمات التي توسم بها هذه

الشخصية التي استمدها الراوي من الواقع، ووظفها في الحكاية محافظا على ملامحها الخاصة التي تعرفها وتميزها، وقد استقاها من مصادر كتابية أو شفوية، فالأحداث في الحكاية تبنى على الشخصية المرجعية فهي أساسية تتفاعل مع الأحداث، تصبغها بذاتها وتعطيها بعدا فنطاسيا، ونجدها حاضرة في كل دقائق ولحظات الحكاية، ولا ينبعث الحدث إلا وتجدها فاعلة له، أو تختفي وراء الشخصية التي قامت به فتمدها بعناصر لاغنى لها عنها وكلامنا عن الشخصية المرجعية لا يعني إلغاء دور باقي الشخصيات بنشاطها وأفعالها، بل هي كل متكامل تساهم بحب مركزها ووجودها في الوسط وعلاقتها مع الشخصيات الأخرى،وقد "تقدم لنا الشخصية المرجعية من زاوية مغايرة وتفاصيل وجزئيات يقتضيها العمل الحكائي"1

بهذا تصبح الشخصية المرجعية مرسومة بالحكاية التي تتصدر أحداثها وتعرف بها وتحمل اسمها وهي المحور الذي يشد أجزاءها وبدونها لاوجود للحكاية أصلا.

2/ الشخصية التخييلية:

تأخذ ملامحها وصفاتها من مخيلة الراوي ولاوجود لها في الواقع التاريخي وقد يكون لها مواصفات الواقعية، ويعمد إليها الراوي ليعزز موقف الشخصيات المركزية ولغايات حكائية متنوعة. قد يعمد الراوي " إلى خلق شخصيات غير حقيقية أو خيالية،لأن الطابع الخيالي والمطلق لهذه الحكايات وفرلها متعة استقبالية لأن نفس الإنسان تميل إلى ما هو مغيب ومستور عنها."وهكذا يطلق الراوي العنان لخياله، فيعمد إلى إظفاء طابع خاص على جوانب ومناحي السرد، فيطعمه بشخصيات لا وجود لها أصلاّ،يجدلها فسحة في الحكاية، ويمد لها علاقة مع غيرها، قصد تنمية عنصر التشويق و المتعة.

ومن الغايات الأساسية لخلق مثل هذه الشخصيات هو الذهاب بالحكاية إلى أبعد مدى في التعبير عن رغبات الراوي وملأ فجوات الحكاية مما يفسح المجال أمام الراوي للإبداع في خلق وظائف جديدة وأدوار متنوعة تملأ المساحة وعرف هذا مجازاً بعملية التأثيث."2 ومن شأن هذا الفضاء الجديد الذي يخلقه الراوي لشخصيات خيالية، إيجاد مساحة"أوسع في التعامل مع الشخصيات المرجعية،"فالإنسان يعمد بأحاسيسه وعواطفه

ورغباته إلى خلق لا شعوري لشخصيات وحكايات تقرب له هذا العالم المجهول البعيد الذي يتصور أنه يتحكم في مصيره وقدراته وأحلامه"3 إن الشخصيات التخييليـة قـد تخرج عن طبيعة الإنسان وتتحول إلى خلق الراوي لرمز في شكل حيوان أو طيـر أو نبات وجماد متحرك أو شخصيات غيبية مثل الجن وصدى الهاتف أو أجسام غريبة من عوالم أخرى غالبا ما تكون وسيلة مساعدة للشخصية المرجعية.

3/ الشخصية الرؤياوية:

وتكون عبر التحولات الغرائبية والغيبية للشخصية المرجعية، وتكـون هنـا الأفعـال خارجة عن الطبيعة المألوفة ويكون هذا دليلا على صدق دعـوى الصـوفي وصـحة مذهبه وطريقته التي "تدهش أو تذهل ليس عامة الناس فحسـب بـل أهـل الطريقـة أيضا."1 إن مدينة الأولياء فيها كل حسب مرتبته ودرجته وما بلغ ارتقى ففيهم القطـب والغوث والولي وتبعا لهذا فكراماتهم ليست واحدة، وهناك مـن ينـدهش ويسـتغرب لكرامته الأولياء أنفسهم.

وقبل أن نبرح المكان رأينا عرض نظرية (غريماس) لأهميتها فالبحث عن الشخصـية فهو يعتبر الأشخاص فواعل حدد لها عوامل ستة تتحرك ضمنها. الذات والموضـوع المساعد والمعارض 2

- الذات والموضوع: تبرز هذه الثنائية في الحكاية الصوفية جليا، فالذات هي الصوفي الذي يعيش تجربته بمفرده ولا يعرف طبيعتها وكنهها الا هو، وكل من سـمع عنهـا يصفها ويخبر عنه لا كنها تبقى مجهولة بعيد إلا في عالم الصوفي نفسه.أما الموضوع فيكمن في الدرجات التي يرتقي إليها الصوفي، ويحلق في عوالم غيبيـة، تسـمو بهـا الروح إلى الصفاء، فيخرج بطبيعته عن العادي المألوف يبتغي الوصول والاتحاد عـن طريق معرفة جواهر الأشياء ورموز الكون - فالذات والموضـوع - تتجسـد فـي شخصية واحدة.

- المساعد والمعارض: يتخذ الصوفي وسائل تساعده في رحلته، والمساعد هنـا هـو النفس المرتقية بالتجربة الصوفية وتطبع بصفات مناسبة وملازمة لهـا مثـل التقـوى والزهد والورع والصدق ويتمثل المعارض في النفس ذاتها في جانبها الأمارة بالسـوء

وتشبثها بالأرض والتراب، والنوازع الشهوانية التي تغذيها والضـعف البشـري فـي الإنسان، فهو مجبول عليه، يتحداها الصوفي كلها يتجاوزها ويجتازهـا ليصـل إلـى مبتغاه.

ـ المرسل والمرسل إليه: قد يكون المرسل شخصا أرسل لاستطلاع أخبار الصـوفي البطل وقد يكون الرائي للرؤيا مرسل حيث يبلغ ما رآه عن الصوفي بعد مماتـه ومـا صنع الله به، وقد يكون الصوفي هو نفسه المرسل، فيبلغ الناس ما تعذر عليهم الوصول إليه لطبيعة أنه يبصر مالا يبصرون ويدرك مالا يدركون. والمرسل إليه هم كافة الناس الذين يتلقون أخبار الصوفي ويقتفون أثره وقبل الخوض في دراسة هـذه الشخصـيات لابد من الفصل بين الشخصية البشرية (الإنسان) وغيرها من الشخصـيات الأخـرى (حيوان، نبات، جماد، قوى أخرى خارجة عن عالمنا) باعتبار أنها تدخل كلهـا فـي علاقته مع الإنسان باعتباره مركز مختلـف الشخصـيات. ارتأينـا اعتمـاد مـنهج "غريماس"(العوامل الستة) في ملامسة الفواعل في المـتن، وقـد لاحظنـا أن عـدد الشخصيات فردا أو اثنين أو شخصية تتكلم باسم القوم، وتبدو شخصية الولي طاغيـة تملأ فضاء الحكاية، تتصدر الأحداث وتقدمها وتتفاعل معها إلى غاية منتهاهـا. فـي حكايات ابن بطوطة " تقل الشخصيات وتكثر حسب ما يقتضيه الحدث، تكثـر وتقـل بحسب المكان الذي يحل به، إذا انتقل تغير المكان ومعه الأشخاص وطبيعـتهم." فـي حكاية سيدي بن شرقي نجد الدرك الفرنسي في دورية غالبا ما يكون العـدد(2، 3) والعربي المترجم، حينما يمرون بزاوية الولي يزوره العربي عادة، سيدي بن شـرقي "الشخصية المرجعية" يسأل العربي" شخصية تأخذ عامل مسـاعد " واش ضـيع هـذا القاوري " سيدي بن شرقي يملك صفة الحدس له القدرة على رد الضـائع واكتشـاف المجهول، الشخصية المحورية الفاعلة والقائمة بكل الأدوار فـي الحكايـة بجزئياتهـا وتفاصيلها، ويبدو الدرك الذي ضيع السكين هو الشخصية المواجهـة يمثـل السـلطة الاستعمارية المحتلة المنتهكة للحقوق، الولي يخرج له السـكين الضـائع مـن تحـت البرنوس، رد الأمانات إلى أهلها من صفات المؤمنين، الدركي يقر بقوة الولي ويحوله عند الناس إلى إله قال لهم هذا ربكم وليس وليكم، فيما سبق لم يكن يأبه بـالأمر ولا

اعترف للولي بفضل كرامته، الولي شخصية فاعلة مؤثرة في المجتمع تصير الحاضر غائبا و الغائب حاضرا، إن الكرامة أفحمت من كان يتضلل بالشك وعـدم اللامـبلاه، الحجة والبرهان لم يدع له مجالا للتردد، من قبل كان الولي واحد من عامة الناس التي تفرض عليهم السلطة الاستعمارية قانونها وجبروتها، بعد الحصول على السكين ينقلب الأمر من النقيض إلى النقيض الدركي يتحول من معارض إلى مساعد و مرسل، مـن مسيطر إلى مسيطر عليه، مقر معترف، من الظلم والكبرياء والطغيان إلـى الإذعـان والإقرار. في الحكاية الثانية يزوره سيدي أبو عبد الله مع رجلين قصد اختباره، هنـا يضمر دور الشخصيات، تخرس ألسنتهم عند المثول بين يديه ويصـبح هـو السـائل والمجيب في آن. يرتقي بتجربته ينبئهم ويفصح لهم عما في صدورهم يتحقق فيه عامل (الذات والموضوع) الشك ينقلب على صاحبه ويصبح يقينا، سمع جواب سؤاله قبل أن يبوح به." فالبطل يتمتع بأداة خاصة تتيح له رفع التحديات "1 الصوفي هنـا شـبيه بالنبي في معجزاته التي بها يصدقه الناس ويقرون له بالنبوة، فيصدقونه ويهتدون الـى الدين الذي يدعوهم اليه، وقد كان بعض المتشككين يطلبون منـه البرهـان لتصـديق دعواه، تبدو شخصية سيدي أبو عبد الله دليلا في الطريق يريـد للنـاس أن يعرفـوا بأنفسهم ما يعرفه، يريد لقلوبهم أن تطمئن، وليس من رأى كمن سمع، فهـم قـد رأوا بأنفسهم ما لايدع مجالا للزيغ والريب ويعتبر سيدي بن شرقي الشخصية المركزية في الأحداث و الشخصيات الأخرى مكملة ومتممة لها. في الحكاية الثالثة نجـد الأم التـي ضيعت ابنها تدخل على سيدي بن شرقي وقد أسرت في نفسها مـا حـدث وكتمـت غيضها، ويسألها الولي عن رفيقها فلاتبوح له بشيء ويبدو الزوج بحضـوره مرافقـا لزوجته مراقبا لتطور الأفعال ومسارها. يخرج الولي الصبي من تحت البرنوس يفاجئ الأم بما لم تتوقعه، فقدت ابنها وأصبح قلبا فارغا، تعود وتشاهد ابنها حيا بين يدي الولي، فهو يواجه ويجابه الفيضان ويخلص الصبي من الغرق، يمثل البرنوس شخصية فاعلة متحركة تساهم في الحدث ويصبح الضائع المفقود موجودا مخبأً تحت البرنـوس (السكين والصبي) ويكون الصوفي بصفته هو (الـذات والموضـوع) وأم الصـبي و زوجها شخصيتان متممتان وتصبحان (المرسل) إلى الناس كلهم(المرسل إليه)،ويمثل

السارق في سنوات الغبن الشخصية الشاذة بسلوكها، تلجأ الجماعة إلى الولي للفصل في النزاع فإما الإدانة وإما البراءة، فالولي هو نجاح وأمن و ملاذ واطمئنان، فهو بقدراته وكونه الإنسان الرباني يمتلك صفة التنبأ والحدس، يعرف ما يضمره المتهم في نفسـه، ويطلع على نهاية سنوات الجفاف لعام فيه محصول وفير، يحضر قسما خاصا، صيغته اللفظية في صدرها الإدانة، تفصح عن طبيعة ومكـان المكنـون المخفـي، ويفضـح السارق، فلا مناص له من الاعتراف والإقرار. "إن الكرامات بصفة عامة تمثل تكريما غيبيا لأصحابها، نتيجة ما قدموه من أعمال روحية، ترقى بهم إلى مصـاف يتجـاوز منزلة الناس العاديين."[1] الولي هو القاضي الذي يفصل بـين المتخاصـمين، ينصـف المظلوم ويرد له حقه واعتباره يدان الظالم وتثبت عليه الحجة والدليل. تظهر الشخصية المركزية هنا حاملة لهموم وانشغالات الناس، يعيش معهم ويحظى لديهم بمرتبة السلطة العليا، يتحاكم الناس لديه ليستتب الأمن والأمان والاستقرار، وبمعاقبة المعتدي وإنزال السخط والغضب عليه في حالة التمادي والنكران والجحود، الولي يهدف إلـى إقامـة التوازن في بث روح العدالة الاجتماعية والقيم النبيلة لبناء مجتمع فاضل. في حكايـة الرجل الذي ضاع قطيعه، يأخذ الولد صفة العامـل (المسـاعد) سـدي عبـد القـادر الشخصية المنقذة، ولا غرابة فالأولياء يلجأون إلى بعضهم الـبعض لطلـب المسـاندة والمساعدة، يظهر الولي سيدي بن شرقي الشخصية المحورية بطلا مطاعا، يلبي سيدي عبد القادر نداءه ودعوته، ويظفر الرجل بعودة قطيعه كاملا دون أن ينقص منه شيء." البطل يحقق الأماني كلها مهما صعبت واتسعت."[1] في الحكاية المنقبية العاشرة يشـكو الرجل شوقه لابنه يقول له الولي: عليك بالدعاء ويعمل بما يأمره به، فيدعو الله ويعود ولده، يصبح الرجل بعد رجوع ابنه (مرسل) للكرامة شاهدا عليها يبلغها إلى كافة الناس (المرسل إليه). يمثل سيدي مروان الشخصية المركزية، طالب يدرس عنـد الشـيخ سيدي يحي (قبل أن تكشف كرامته وولايته) طلب سيدي يحي من الطلبـة (شخصـية جماعية متممة) امسكوا بالأسد واقتلوه وأريحوا الناس منه. هذه الجملة تكشف عـن طبيعة سيدي طالب ليس كسائر الطلبة، هم يبحثون عن الأسد ليظفروا بقتله ووضع حد لشره وهو يبحث عنه ليألفه ويصاحبه.الأسد شخصية الحيوان الشرس الضاري، يتحول

إلى صديق أليف للإنسان، وبذلك تثبت الكرامة ويقرها الشيخ سيدي يحي ويرخص له بأن يضرب في الأرض "روح شيخ ما يحكم في شيخ، والي ما يحكم في والي" هكـذا يصبح الطالب واليا من الأولياء ويأخذ عامل (الذات والموضوع) وتأخذ شخصية الشيخ سيدي يحي العامل "الساعد" وهكذا تأخذ الشخصية المحورية في الأخذ بناصية الحكاية من بدايتها إلى نهايتها. نجد هذه الحكاية في طابعها العام وبتنقل شخصـياتها وتبـادل المراكز والأدوار تتسم بنمطين وحالين ووضعيين.

النمط الأول: ـ الشيخ سيدي يحي ـ سيدي مروان طـالب يدرس

لدىالشيخ ـ الأسد يبث الرعب في الناس عدم استقرار

(لا أمان مع الأسد).

النمط الثاني: ـ الشيخ سيدي يحي ـ الشيخ سيدي مروان ـ الأسد

يتحول من عدو إلى صديق وبفعله تحصل الولاية لسيدي مروان.

الحال الأول: سيدي مروان ولي كرامته مستورة مخبأة لا يعرفها أحد،

ولا تظهر للناس الولي لا يريد أن يكشف يعيش في عالم خاص.

الحال الثاني: يدخل إلى القوم والأسـد يـرافقه يـصحبه ويألفه، طبيعة

شخصية الأسد من حيوان يخيف، يفترس ويهجم إلـى حيـوان يبعـث الأنـس والأمان.

الوضع الأول: عدم استقرار، مجتمع غير آمن، الأسد يقض المضاجع

لا يؤمن مكره، لا قبل للناس بمواجهته، اختلال موازين الـقوى.

الوضع الثاني: يحل الهدوء بدل التوتر ويسود الاستقرار، من غـايات

الكرامة بث روح الأمن والأمان والسعادة " يصبح البطل في تعامله كأنه امتزاج الحكمة بالفضيلة والشجاعة بالسعادة، إنه الخير الأسمى."1

وخلاصة القول هو أن الولي قد يند الأمر إلى شخصية مساعدة (قـال لأحـد طلبتـه، أولاده...) كراماته تتجسد في مريديه وأتباعه المعتنقين لمذهبه وطريقته، كرامته تتوزع على من يلازموه ويصحبوه بالطريقة والولاء، كرامة سيدي مروان تكشف عن غيـر

قصد، سيدي يحي يقول: اقتلو الأسد، سيدي مروان لا يملـك عـداء وحقـدا للأسـد، الصوفي صديق الحيوانات حتى الضارية منها يعيش معها في كنف واحد.

في الحكاية الثانية البحر مصدر رزق ونعمة لا تعد ولاتحصى، يشح علـى النـاس لا يعطيهم مثل ما عهدوه، أزمة تحل بالقوم، يقذف الولي ببرنوسه في الماء يتحرك صفة الحياة الشباك تقذف في البحر جامدة فإذا لامس خيوطها السمك اهتزت دلالـة علـى وجود العطاء والرزق. تستحوذ الشخصية المركزية وتملأ المكان و يحصل اليسر بعد العسر والعطاء بعد المنع، ولايتسع الأمر إلا إذا ضاق. البرنوس كائن متحرك له أكثر من دلالة يأخذ وظيفة شباك الصيد، يتحرك فيمتلأ سمكا، يغلب على شخصيات الحكاية طابع الواقعية، انتقل الولي مع الناس إلى البحر ولم يخرج لهم سمكا بيده، ألقى بالشباك في الماء، أخذ بمبدأ العلية، وفر للناس ما هم في أمس الحاجة إليه، الطعام ضرورة من ضرورات الحياة. في الحكاية الثانية "القناديز" (شخصية جماعية مكملة) في حاجة إلى طعام، يتوجهون إلى الولي لعلهم يجدون عنده ما يطلبون، يتوجه الـولي إلـى شـجر العليق ويضرب الأغصان، العصا عامل "المساعد" تحمل بشرى الحل والتفريج يشـي بدلالات شتى، شجر العليق يعطي ثمارا ليست له أصلا. وفي الحكاية الثالثة في قلـب الأحداث ويمثل الشخصية المرجعية أزمة تحل بالقوم شكوى من عداء ذئـاب جائعـة اجتمعت وصارت تهاجم، يخرج سيدي يحي على بغلته (شخصية حيوانية) أداة مكملة ومساعدة تمثل مواجهة الذئاب تضرب الأرض بحافرها فتخرج شـرارة النـار مـن الحجر، فتصعق الذئاب وتموت، الكرامة تنفذ في اللباس والحيـوان والأشـياء. فـي الحكاية الثانية لسيدي امحمد بن علي الشيخ الإمام يرجع الناس إليه في الفتوى وحـل المسائل وتعلم مبادئ الدين وأصول الفقه من بين الطلبة (الشخصية الجماعية) يبـرز طالبان في شخصية واحدة حينما ينتهي الدرس يخرجان ويطيران من مجاجة إلى تنس مسافة معتبرة، التحول إلا طبيعة الطيران، اختزال المسافات، يقربها ويلغي أبعادهـا. وتبرز في الحكاية شخصية الراعي تقوم بدور واحد ثم تختفي تمامـا يبلـغ بطيـران الشخصين، يتحول سيدي امحمد بن علي(الشخصية المحورية) إلى نسر ويلحقهما صفة التحول والطيران من طبيعة الولي، الراعي(المرسل) للكرامة التي شاهدها فهو مبلغها

إلى الناس كافة(المرسل إليه). تأخذ سيدي معمر نموذجين نلاحظ ذلـك فـي أغلبهـا المكافأة والجزاء والردع والعقاب، يقتحم فضاء الولي امرأتان تقصدانه للرقية والدعاء لتطمئن النفس وتسكن الآلام، ويجد المرء ضالته في دعاء الولي، المرأة تأخـذ قسـطا وافرا من الاهتمام منذ فجر التاريخ فلا يذكر أدم بلا حواء، حاز نصيبا بـارزا لـدى الجاهليين فمجدوها في أشعارهم وأخبارهم وذكرت في تاريخ البطـولات والقصـص والأساطير، وإذا كانت قد استحوذت على خيال القاص في السيرة الشعبية، واسترسـل يعرض مفاتنها ومحاسنها الجسدية يفضح علاقتها مع الأبطال ويصور طبيعة الصراع بين الرجال من أجل الفوز بأنوثتها وذكرت الأهوال والمسافات تطـوى فـي سـبيل الوصول إليها، وإذا كان ابن بطوطة قد "اعتبرها في سفورها وانتهاكها لحرمة الـدين والتقاليد في الهند، وعنصر اللهو والمتعة، تجالس من تشاء من الرجال رغم انتمائهـا للدين الإسلامي (....)"1 إنها في الكرامة لم تتخـذ أداة للتشـويق والإغـراء، ومـن المتصوفين خوفا من فتنة المرأة. إبراهيم ابن أدهم يتزوج يجامع زوجته ثـم يغتسـل ويتوضأ ويصلي وعند السجود يزعق زعقة ويموت. الولي يعيش مع النـاس يحمـل آمالهم ويحس آلامهم لكنه يختلف عنهم فهو يرحل ليعيش في عالم آخـر يقفـز فـوق المكان والزمان، البطل الذي لا ينهزم، تتحقق آماله ورغباتـه فـي تطلعـات قومـه وانشغالاته، يظل حاضر لديهم حيا ولو واروا جسد التراب وهم يتصلون ويتعلقون بـه باعتباره المتصوف الزاهد العابد المنصرف عن الدنيا إلى الله، كل ما يريـده صـرف نفسه عن مغريات العالم لكي يفد على الله بريئا من الذنوب خالصا من الخطايا ينظـر إلى الدنيا باعتبارها دار القرار.

الفصل الثالث:

التحليل الموضوعاتي لحكايات الكرامات

الإنسان والطبيعة:

في الكثير من الأحيان ينتابنا التفكير من نشـأة الكـون، وتخـتلج صـدورنا، وتساور أذهاننا تساؤلات فيما نراه من الطبيعة، كيف نشأ الكون ببحـاره وأنهـاره، بسمائه وأرضه هذه الكواكب السائرة إلى أين. وفي الكثير من الأحيان نجـد أنفسـنا نسلم بها دون إرهاق في البحث عن كنهها وطبيعتها، إن العلم قـد خطـا خطـوات معتبرة في الكشف عن أسرار كثيرة وقدم التفسير لألغاز حيرت الإنسـان لفتـرات طويلة ولكن هذا لم يغير من الدهشة والاستغراب اللذين يلفان الإنسان من كل جانب، وهو مضمون ما ذهب إليه عبد الفتاح إمام " تمكن الإنسان في النهاية مـن الهبـوط على سطح القمر مرات عديدة وسوف يواصل العلم انتصاراته في هذا الميدان لكنـه لا يملك حتى الآن الوسائل و الأجهزة التي تمكنه من أن يسـبر أغـوار الماضـي الكوني ليعرف مصيره."[314] إن مفهوم الأسطورة جسد بجلاء علاقة الإنسـان بهـذا العالم الذي يحيط به " فالأسطورة مجموعة تصورات عن الآلهة والدنيا وعن علاقات الفرد بالمجتمع والطبيعة وما وراء الطبيعة."[315] إن الأسرار تحيط بنا من كل جانب وتكتنفنا الغوامض من كل حدب يقول ماكس مولير" إن حواسنا تدلنا على ماله نهاية ولكن ما بعد النهاية ووراءها وما فوقها وما تحتها وما بداخلها، نـرى أن اللانهايـة ماثلة أمامنا تضغط على حواسنا، ومع ذلك فإننا لا نستطيع فهم كنهها ولا الإحاطـة بها."[316] وظل الإنسان يعبر عن هذه المتاهات والتي ما وصل إلى نهايتها ولا عرف لها حدا، فبقى يسبح في الخيال ينتقل من القريب إلى البعيد ومن الواقع إلى اللاواقع. إن موقف الإنسان منذ القديم من الطبيعة يكتنفه الجهل بأسـرارها و العجـز أمـام ظواهرها. " كان الأقدمون يعجزون عن تفسير بعض الظواهر الطبيعيـة فشـعروا بأشياء لم يتمكنوا من التعبير عنها فرفعهم ذلك إلى تكريم المجهول."[317] لقـد نظـر الإنسان إلى ما يحيط به من عناصر الكون والحياة من شمس وقمر، بـرق، بحـار

---

[314] إمام عبد الفتاح – مدخل إلى الفلسفة – ص181
[315] شلحت يوسف – نحو نظرية جديدة – ص85
[316] نقلا عن المرجع نفسه- ص95
[317] نقلا عن المرجع نفسه

وأنهار ولما عجز عن التفسير رأى سلطة أقوى منه فعبدها وجعل نفسه في خـدمتها وطاعتها، إن اعتقاد الناس الآلهة في عناصر الطبيعة يبرر عجـزهم عـن تفسـير رموزها، ومعنى أن يتخذوها آلهة،هو التسليم لها بكل شيء، يجـد الإنسـان نفسـه محاطا بالأخطار تحدق به من كل جانب: حيوانات ضارية مـن جهـة، وعناصـر الطبيعة أمطار غزيرة، سيول، عواصف، برق ورعد من جهة ثانية وامـتلأ الكـون بقوى عديدة تهدد حياته وتعطف عليه، منها العدوة ومنها الصديقة، فيتضـرع إلـى الثانية لترد عنه كيد الأولى ويتقرب إليها بالصلاة والذبائح والقرابين." [318] وهذا الذي دفع إلى ظهور الكهنة والسحرة ومن جملة طبيعة فعلهـم تسـخير هـذه القـوى لمصالـح النـاس، يعتقـد يوسف شلحت بأن " السحر في بادئ الأمر لم يكـن إلا ضربا من الوسائل التي يستعملها المرء في حياته العملية لتـأمين معيشـته ونفـس الأسباب التي قادته إلى الصلاة هي نفسها التي قادته إلى السحر"[319].يظـل الإنسـان حائرا في الكثير من طلاسم الحياة وقد تأخذه روح المغامرة لولوج المجهول ولكـن ينتابه الخوف ولكن يبقى مترددا آملا الوصول إلى الاستقرار وإلى غاية ذلك يظـل معلقا بين هاويتين يحيط به الخوف من كل جانب. " الخوف من الحياة يعتري الأفراد ، فقر مرض وكوارث طبيعية ولم يكن لهم ملجأ ولا ملاذ(....)"[320] نلاحظ في المتن الولي وانتصاره على مظاهر الطبيعة، مصدر الخوف والقلق الذي يواجه المجتمـع فنجد قوم سيدي بن شرقي يسرعون إليه خوفا من عاصفة رأوها متجهـة نحـوهم، فوقف فوق ربوة ينتظرها وحينما وصلت صدها بجانب ثوبه فتغيـر منحاها،فـالولي يواجه المخاطر و العواصف التي لا قبل للقوم من مجابهتها و صدها." إن عوامـل الفشل والخوف والعجز تسحق الفكر وتبرز الطبقات التحتة في تكوين الفرد ذاك مـا يبقي الكرامة حية"[321] إن الولي يؤمن الناس من المخاطر فـيجعلهم يعيشـون فـي اطمئنان ينتقلون من هذه الضفة إلى تلك عبر العصا المقدسة والتي لولاها لما وصلوا

318 شلحت يوسف – نحو نظرية جديدة – ص 106

319 نقلا عن المرجع نفسه – ص171

320 مفتاح محمد- ديناامية النص- ص 137

321 علي زيعور – الكرامة و الأسطورة و الحلم – ص 36

حقولهم ولا عرفوا الاستقرار في مساكنهم." ولا ريب أن هذه السلطة الرمزية التـي يمتلكها الولي تجعله حامي حمى المدينة، فلكل مدينة أولياؤها الذين يحمونها ومازال هذا الاعتقاد سائد إلى اليوم(...)"[322] ما زالت الكثير من العـادات تحمـل أشـكال طقوس تعبر عن الوفاء والتواصل بين المجتمع والولي فيقصدون ضريحه بالهـدايا والصدقات لأزمة استعصم عليهم حلها وداء ما وجدوا له دواء، إن الولي حاضـر، يتكلم من قبره ويجيب السائل يفـرج الكـرب ويبعـد المصـائب ويهـب الأمـان والاستقرار." إن الطبيعة صديقة الإنسان الصوفي مطيعـة تتـداخل فيهـا العـوالم الحيوانية والنباتية والبشرية والغيبية، فكل عالم فيها منفتح على الآخر ومساعد لـه، وبذلك تلغى السببية وقوانين الطبيعة."[323]

يمثل الولي المرجعية لتحقيق التوترات النفسية ورد الاعتبار للقوى الداخلية المقهورة في أعماق الفرد، إن الكوارث بطبيعتها تقضي على الأفراد، النار تحرق وتأتي على الأخضر واليابس وتحوله إلى رماد، والولي ينقذ هذا وذاك ويعود الوضع إلى أصله قد" يتعرض البطل الصوفي لحواجز طبيعية كثيرة، لكن فلن ينهـزم أمامهـا فهـو يجتازها لا تقف أمامه"[324] ، يدفع سيدي امعمر خطر المطر الغزير عـن المـرأتين ويضع يده فوق رأسهما فتسيران في ربيع وشمس مشرقة وبجانبهما مطـر غزيـر وعواصف ورعد وبرق.وقد عبرت الحكايات عن مضامين مختلفة واتسمت بـبعض الخصائص المشتركة بينهما:

التصنيف الموضوعاتي لحكايات الكرامات:

لاحظ الباحث مجموعة من الصفات والخصائص تشترك فيها حكايات المـتن حاول رصدها والوقوف عند عناصرها بالتحليل والنظر والإسـتنتاج ولعـل طـابع الخوف في مختلف مظاهره وأشكاله هو السمة البارزة في هذه الحكاية.

[322] ميلود حكيم-الكرامة في تلمسان-139
[323] علي زيعور-قطاع البطولة والنرجسية – ص40
[324] نقلا عن المرجع نفسه.

1/ الخوف ومواجهته:

يطغى الخوف على النفوس حتى يحسبه الناظر ظـاهرة تتجسـد بقـوة فـي المجتمعات، فالطلبة يشتكون من ذئاب جاعت فاجتمعت وصـارت تقطـع الطريـق وتهاجم الناس، والنار مصدر خوف، تحول كل شيء إلى رمـاد وهـلاك ودمـار. والفيضان عنصر بارز في المتن يحضر في أكثر من نموذج" إن تاريخ الخارق هـو تاريخ الخوف."[325] كل حكاية يتجسد فيها الخوف يسيطر على الناس حتى يتحول في بعض منها إلى أزمات تعطل القوم عن بلوغ غاياتهم، قوم سيدي أمعمر يعجزون عن الوصول إلى حقولهم يمتلكهم الخوف من الغرق، يخاف الناس الأسـد الـذي يهجـم ويقضي على الحيوانات، فلا قبل لهم برد العدوان، تتمظهر أشكال و أنواع المخاوف من الطبيعة و من الحيوانات الضارية ، من الأمراض والكوارث التي تحلـق فـي فضاء مخيلة الناس من المجهول القادم، في كل الحالات نجد الانتصار لسلطة الولي عنده الحل، يملك أدوات الإنجاز و الاختراق و له القفز فوق الزمان و المكان ومـا يستخلص مما هو أمامنا من نماذج يبين لنا غنى و ثراء المخيلة الشعبية التي نسجت هذا الإبداع الفكري و أعطته بعدا خارق، حضور الولي يمثل درعا واقيا و حصـنا منيعا يحس القوم أنهم محاطين من كل جهة بتهديـد الطبيعة و يحسون باللأمن مـن (الحيوان ، حشرات ، الغيبيات التي لم يجدوا لها تفسيرا فتزداد مخاوفهم).

2/ التعليمية:

هناك كرامات يمكن تصنيفها ضمن العلم والتعليم في حكاية سيدي بن شـرقي تكشف عن قوة حدسه وسعة إطلاعه من بحار العلوم والمعارف، صفات تميز بهـا، حينما عرضت عليه مسائل فقهية لاختباره ولما وقف السـائل أمامـه عجـز عـن الإفصاح فكشف له الصوفي طبيعة الخبر المكنون في نفسه، وينبئ عما في صـدر

---

[325] ميلود حكيم –الكرامة في تلمسان-ص137

الجماعة التي أقبلت عليه، إنه الجواب الذي أبان عن سريرتهم وكشف طبيعة زيارتهم له، فخرس لسانهم فما استطاعوا البوح بما في نيتهم، فاطلع الولي على ما في النفوس فأعطاهم سؤالهم ثم أجابهم، وأخبر كل واحد ما ينوى أن يكون في المستقبل من قسمة الرزق ونصيب العلم والعمل "فحينما كانت تعتاص المسائل على الدارسين يتوجهون إلى قبر الصوفي فتذكر له المسألة فيتكلم من قبره ويحيلهم على مضانها"[326]. وقد ذكر أن الولي سيدي امحمد بن علي كانت ترد عليه الفتاوى ويجيب عنها وقد تميز بعلم التفسير وأصول الفقه[327] وقد سأله مفتى الجزائر سيدي الحاج محمد المطماطي عن الحكم في العبيد.

بأي وجه ترى استخدام أعبدنا	والخير فيهم بدا لنا منهم سرج
كيف التملك والرسول أخبرنا	بعد الشهادة لا ملك ولا حرج

فأجابه سيدي امحمد بن علي:

فرددنا القول يكفى فيه ما شرحوا	أهل الكلام فهم لجمعنا سرج
أسعى سريعا لسبق النصر مجتهدا	في فكهم من رياق الرق ينزعج[328]

وذكر أن بعض الفتاوى كانت ترد عليه شعرا فيرد عليها شعرا." فالكرامة إذن تزكية وتثبيت لمختلف مؤهلات الشخصية الصوفية ومن ثمة يستحيل أن تأتي مكذبة لدعوى الصوفي،"[329] إن المتشككين يقصدون الولي للإيقاع به فتنقلب عليهم الأمور ويكشف الولي نواياهم ويفحمهم بالحجة والبيان" إن وظيفة العجيب في مثل هذه الحكايات لم تكن تهدف إلى التسلية والإمتاع، مثلها نجد ذلك من الكثير من حكايات ألف ليلة وليلة، ومائة ليلة وليلة، وإنما جاءت تعليميه تقصد الوعظ والاعتبار وملازمة للجد بعيدة عن الهزل"[330]. فتقديم النصيحة والوعظ ينبعث من نفس عرفت

---

[326] محمد مفتاح –دينامية النص – ص138

[327] ذكر أبو القاسم في تاريخ الجزائر الثقافي وصاحب المرآة الجلية ما لهذا الوليّ من فضل في العلوم والمعارف والفقه والتفسير

[328] الحفناوي –تعريف الخلف برجال السلف- ج 447/2

[329] محمد مفتاح –دينامية النص – ص 139

[330] حمادي المسعودي – الحكايات العجيبة- ص86

الله فتفانت في حبه وخدمته فهي تقدم صورة التعليم في السلوك والأسـرة والقـدوة " كأنها طريقة تربوية ترنو لاستدعاء العامة أو المريد أو المتشكك إلى عالمها تخلـق توترا نفسانيا وتخل بالاستقرار الانفعالي عندما ترمي في حقل المسـتمع إشـارة أو لطيفة أو رمزا فبذلك تبدو وكأنها تدعوه فتثير اهتمامـه، تجـذب نظـره، وتشـده إليها"[331]. ومجمل القول هو أن شخصية الولي ليسـت مطعمـة بالخيـال السـاذج والمعرفة الوهمية السماوية بل هو من أولي الألباب والقارئين لكتاب الله، أفنى كـل حياته بالنظر في المسائل ومعرفة سير وأخبار الصالحين. إنـه ذو معرفـة واسـعة شاملة، فهو يثبت قدرته على حل المسائل العويصة، ذو بديهة حاضرة "ممـا يجعـل عمله لدينا مقذوفا في قلبه كالنور"[332].وهكذا ينتصر الولي على مناوئيه ممن ينتابـه الشك فيقصد الولي لاختبار قدراته والزج به في مسائل عويصة ليس بمقدوره حلها، فتنقلب المواجهة إلى صورة البطل الناجح فيفاجأ السائل، بما لم يكن يتوقعه وليس له بعد ذلك إلا أن يقر ويذعن ويطيع.

3/ الظروف الإجتماعية ومتطلبات الحياة:

ما يثبت لنا أن الصوفي كان يعيش وسط المجتمع وفي أعماقه النماذج العديـدة التي جاءت لتظهر الصوفي في مقام المتولي لهموم المجتمع يوفر الطعـام والمـاء ويمثل صفه القاضي ليحكم بين الناس، فينصفهم ويعاقب المعتدي ويجازي المظلـوم ويرد له الاعتبار، فيبحث له عن الحقوق الضائعة أو يعوضه، فقد ذكر عن السـارق الذي ذهبت به الجماعة إلى سيدي بن شرقي ليقسم على براءته، فنظر إليه فعرفه بأنه هو السارق، فاشترط عليه صيغة القسم ومن مقاطعها التصريح بالمكان الذي يخبـئ فيه البرنوس فارتعد وتاب، ويذكر أن صفة الحدس كانت من أهم ما تميز به سـيدي بن شرقي فقد أسرت الأم التي ضاع منها ولدها وما أخبرت أحدا وحينما دخلت عليه سألها عن ولدها" وين رفيقكم "وقد سأل الرجل العربي عن طبيعة الجندي الفرنسـي الذي ضيع سكينه "هذا القاوري راه مضيع حاجة " كما أنه كان دائمـا إلـى جانـب

---

[331] علي زيعور – الكرامة والأسطورة والحلم – ص177
[332] ميلود حكيم – الكرامة في تلمسان – ص141

المضطهدين المقهورين اجتماعيا، فقد اطلع على نية الذي أتاه بالدرهم أمانة، فـرده إليه وقال له:" خذه واصنع بيه صباطك " ويظهر لمساعدة ذلك الطالب الذي ناداه يـا شيخي فقام لمساعدته ثم اختفى ـ ونجد سيدي امعمر يقف إلى جانب الذين يريـدون خدمة أرضهم فيعجزهم الواد الذي امتلأت ضفتاه والطلبة والمجاهدون يقفـون فـي وجه الحملات الأسبانية في السواحل الشمالية " تنس" وعند عودتهم يستقبلهم سـيدي امحمد بن على يخرج لهم قصعة الزاوية فيأكلون ويشربون كلهم وما يـنقص منهـا شيء، وشكا إليه القوم حاجتهم الماسة للماء، فيقول لأحد طلبته اضرب ثلاثا بالعصا فينبع الماء عذبا ويحتار الناس ما الذي يزرعونه بعد أن أكلوا الحب وانتهى فيتجهون بأزمتهم هذه إلى سيدي يحي فيقول لهم ازرعوا التـبن، واسـتعينوا بـالله وقولـوا ـالحرث حرثنا والسبولة والرزق على ربنا ـ فالتبن من أصل الحب المفقود، زرع التبن والدعاء، النتيجة حصول خير وفير، والطلبة يجوعون ولا يجدون ما يقتاتون به فيتوجهون إلى الشيخ ويرفعون انشغالهم، فيهز أشجار العليق بعصاه فيتناثر منها حب التوت ويشبع الجميع من فاكهه غنية.

كل الأزمات الاجتماعية والاقتصادية نجد لها الحل والتفريج عنـد الـولي، البحـر مصدر رزق الكثيرين لكن يشح فيندر أو ينعدم عطاؤه فيرمي الولي برنوسـه فـي الماء فيتحرك ويمتلئ سمكا، فللبرنوس وظائف شتى، فهو لا يقي صاحبه من الحـر والقر فحسب، بل يخفي بين ثناياه المفقود الضائع، فهو كائن حي يشي بدلالات تجل عن العد. "يعيش الصوفي في مجتمع له مشاكله وحاجاته فكـان يكسـب ليتصـدق ويتحرك لينقذ وكلا الفعلين يقوم بهما ليجازى عند ربه الجزاء الأوفى"[333]. فالولي لا يعيش لذاته بل هو الضمير الجمعي والأنا الكلي للمجتمع والأمة.

ومن كل ما سبق ذكره يتبين أن الكرامة تمجد العمل وتذم التواكل وتقف ضد أساليب الاحتيال والمكر وانتهاك حقوق الغير، بطرق لا يقرها الشرع وهي تبحث عن الأمان والاستقرار، توفر الماء والطعام وتبني علاقات المجتمع على أساس المنفعة العامـة والأخذ والعطاء بين الأفراد فلا اتكال ولا تواكل.

---

[333] محمد مفتاح – دينامية النص – ص137

الخرق: ـ إن أهم ما يميز هذه الأخبار التي تحكي تصرفات الصوفي ومواقفه هـو ذلك الجو الخوارقي، وخلافا للأخبار الصحيحة المرويه بالسند الموثق به، بـرزت الكرامة قولا وفعلا خارقة لكل نواميس الطبيعة تلغي المكـان والزمـان، فاعتبرهـا الصوفي هبة من اللّه له لدرجة بلوغه المراتب السماوية ومحاكاة للأنبياء والرسل في معجزاتهم "وبدت بصفتها الخرقية كالأسطورة أو الخرافة التي يقوم فيهـا الصـوفي نفسه بطلا جاهزا مشمولا بالمعرفة التي تمكنه من التـأثير فـي الواقـع والإنسـان [...]"[334]. ويظل الخارق لدى الصوفي سلوكا مميزا يعبر من ظلاله عن تحقيق رغبة في كسب الأتباع والمريدين، يتجسد الخارق صفة تطبع الحكايـات. سـيدي معيـزة وسيدي امعمر يتحولان إلى طائرين ويتحول معهما سيدي امحمد بن على إلى نسـر يلاحقهما، هذه الصفة معروفة لدى البطل الصوفي طيران الحلاج، الصوفي يستغني عن وسائل وأسباب الطيران المذكورة في التراث أبطالها يطيرون فوق حصان ولبس الريش وما إلى ذلك من عوامل مساعدة، فالوسـائل والأدوات تلغـى وتـدمج عـن الصوفي، ويحلق بدونها في الفضاء ـ وهكذا نستطيع أن "نميز بين العادي والخارق بمدى حيرتنا ودهشتنا للذي لا نستطيع أن نفسره تفسيرا طبيعيا"[335]، ولكن الخـارق يختلف في الرؤية والحكم والموقف من شخص لآخر، فكلما جهلنا سر الشـيء زاد استغرابنا له، وكلما عرفنا العلاقات العلية التي تؤدي إلى ذلك الفعل نقصت دهشـتنا وبدا لنا الأمر طبيعيا، " فتعاون الخارق للعادة والممكن لبناء حكايـات تهـدف إلـى الأمثولة لمقاومة صعوبات حياة مليئة بالخوف "[336] ولـذا طبعـت هـذه الحكايـات واتسمت في مجملها بصفة الخرق وهو ما يكسب أبطالها خصوصية، فيكثر أتبـاعهم ويعظمون في أعين الناس فيجلونهم ويقدسونهم." فالخارقة ميثاق بين الصوفي وأتباعه وسدى ولحمة تضامنهم"[337]. إن هموم الناس والأزمات التي يصـطدمون بهـا فـي حياتهم هي التي جعلتهم يستأنسون بالولي ويجدون لديه المراد والتفريج في خوارقه.

---

334 أمينة بلعلة – تحليل الخطاب الصوفي– ص198

335 محمد مفتاح – دينامية النص – ص 136

336 محمد مفتاح –دينامية النص- ص138

337 نقلا عن المرجع نفسه

أزمة الجوع تحل بالقوم كان البحر وجهتهم يمدهم ويعطيهم فشح وامتنع فيخرق برنوس الصوفي كساد الحياة وروتينها الذي يكاد يقضي على القوم ويتحول إلى وظيفة إنقاذ يتحرك في الماء ويمتلئ سمكا. وتتحول القاعدة من المنع والندرة إلى العطاء والوفرة، إن المتصوف بفعله هذا يقلد وظائف الساحر وينافسه في القدرة على التحويل والخلق كأن يحرك الأشياء بالتميمة، وقد يطير أو يمشي على الماء، ولا يجد لما يفعله تفسيرا، سوى كونه هبة من اللّه جزاء إخلاصه. وبهذه الصفات تميز عن غيره فلا أحد استطاع أن يكلم البحر، فأجابه وأعطاه ولهذا اكتسب سلوك الولي صفة مميزة، فخرج عن العادي والمألوف إلى الخارق والفوق طبيعي، ويظل الخارق عند الصوفي فعلا معبرا يحقق من خلاله رغبة في كسب الأتباع. "ولا يثبت الصوفي جدارته وصلاحه إلا إذا أتى بخوارق تميزه عن الناس العاديين والخارق يتجسد في كراماته"[338].

إن رغبة الصوفي هو الوصول إلى تحقيق مبتغى و آمال قومه، وقد تعترضه أزمات وعوائق ولكنه ينتصر عليها ويتفوق دائما. وتمثل حكاية الرجل الذي جاء يدعو الولي فيلبي دعوته ويصل قبله إلى المكان، طبيعة طي المسافة والخروج عن العادي زمانا ومكانا. " فالكرامة خرق للعادي والمألوف والسلوك الاجتماعي، تتعدى ما هو فيزيائي ومادي وعلى هذا يأتي الولي بطلا تخترق إرادته كل شيء"[339]. ويبدو الخارق في تعامل الولي مع النبات والجماد والحيوان. الشجرة تخرق نواميس الحياة والطبيعة وتخرج عن المألوف وتتكلم وتخاطب " الشبلي" قائلة -لا تأكل مني- وشجر العليق الذي يضرب بالعصا فيثمر. إنه النبات العجيب الذي يبعث الحياة في الناس، ويمد جسور الحوار، وتشكيل العلاقات مع الجنس البشري الشجرة المقدسة التي تسقط منها ورقة واحدة كل خريف. إنها ورقة التوحيد مكتوب عليها بقلم القدرة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ورقه يشفى بها المرض ويهتدي بها الكفار إلى دين الله. إن صفة الخرق صفة تكتسح القصص الشعبي وتمد الأبطال بصفات تجعل

---

338 نقلا عن المرجع نفسه

339 علي زيعور – الكرامة ولأسطورة والحلم – ص 91

المتتبع لسيرتهم يقيم صلة وثيقة مع البطل فيتبعه ويلاحق خطواته فـي كـل مكـان "الملك سيف بن ذي يزن يفك طلسم البستان ويدخل جزيـرة الكلبيـين"[340]. ويبـرز الخارق في قصه السارق الذي اطلع الولي على نواياه والمكان الذي كان يخفي فيـه البرنوس المسروق، وعرف لونه وطبيعته و فيها الخارق فتتسع مساحته فيتنبأ الولي بنهاية سنوات القحط والجفاف، وسيأتي بعد ذلك عام فيه خير كثير، يبرز العجيب من صورة معنوية مجردة، فهي تروى قدرة الولي على كشف المجهول، ومعرفة الغيب وكلها خوارق، فقد اطلع على مكان السر المخبأ فيه، مع تنبئـه لمـا سـيكون فـي المستقبل، فيتجلى الخارق بأبعاده ومناحيه في أن الولي على إطـلاع ومعرفـة لمـا يختلج في النفوس وتكنه وتكنزه الصدور، وهنا تتجسد الكرامة فـي الكشـف عـن المجهول وانتهاء زمن الغبن بالتفريج إلى صور مادية وحقـائق محسوسـة تـدرك بالحواس، وهذا كله يتحقق بصدق تنبؤات الولي الصالح، كما أن الخـارق لا يأخـذ صفة محددة وقانونا يسري تطبيقه على جميع النماذج، إن اكتشاف الجوانب الخارقة أمر نسبي يختلف من شخص لأخر بسبب المعطيات والمعارف المكتسبة "[... ففهـم الخارق إذن متطور ونسبي ولا يمكن وضعه في قوالب جاهزة "[341]، و يأخذ الخارق طبيعة التغيير والتحول من الشخص نفسه من حالة إلى أخرى في حكاية "الرجل الذي يزعق فيكون له لحية عظيمة سوداء، ويزعق ثانية فتكون اللحية بيضـاء، ويزعـق ثالثة فإذا هو بلا لحية"[342]. والمرأة تقصد الولي سيدي امعمر ليدعو لها كي تحمـل قصدته وبطنها فارغة وترجع فتمتلئ في الطريق وتحمل وتصـبح حبلـى ويجيئهـا المخاض وتضع، التحول والانتقال عبر مراحل عديدة في وقت واحد.

خلاصة القول هو أن الخارق يطبع بيئة ومحيط الولي فيه يجد نفسه وينزع بذاته نحو المدينة الفاضلة يعيش فيها في جو خوارقي يميزه عن غيره مـن النـاس العـاديين وخوارقه كراماته التي تنوعت في مضامينها لحاجات المجتمع ورغباتـه المختلفـة، فكانت الورقة الجماد حاملة رسالة للواد كي يبعد عن الزاوية فلا يصـيبها بسـوء،

[340] سعيد يقطين – ذخيرة العجائب– ص 46
[341] محمد مفتاح – دينامية النص – ص 141
[342] حمادي المسعودي – الحكايات العجيبة - ص 67

وتظهر في الرؤية التي أنكرت بها المرأة عرف الولي سيدي امعمر فأصبحت ابنتها تحمل شعر الماعز، كما يظهر الخارق في التبن الذي جمعه القوم وزرعوه بدل الحب المفقود ويحصل من ذلك خير كثير، فالكرامة الصوفية يكتنفها الخارق من كل جانب، وعنصر الخارق هو الذي يطبعها بعنصر العجيب والغريب، ويجعل منها حكاية تملأ المكان والزمان وتلغيهما في الوقت ذاته، والخارق هو الذي يطبع شخصـية الـولي بالشحنة الربانية والقدرة الإلهية فيستطيع أن يحول بها الأشـياء ويحـل الأزمـات ويحضر الغائب ويغيب الحاضر، ذاك هو الخارق بتجلياته وتمظهراته في المتن.

الضياع: ـ لا شك أن المتن يبرز صفة مشتركة في الحكايات ألا وهي الضائع الذي تبنى عليه أحداثها ولعل العنصر البارز المفقود المبحوث عنه هو الماء وقد جـاءت الكثير من الكرامات تحدث بالأخبار عن وجوده، ندرته، وعدم وجوده. يـأتي القـوم وهم في فاقة وأزمة يسألون الولي الصالح حاجاتهم للماء فيكلف أحد أبنائـه ويقـول اضرب بالعصا في ثلاث مواضع فيخرج منها الماء عذبا، وولي آخر يجـد غنمـه أصابها العطش وبلغ منها ما بلغ فيغرز عصاه في الأرض ويدعو الله، فتتفجر ينابيع الماء، تتعلق هاتين الكرامتين بعنصر مهم وبعدم وجوده تنعدم الحياة، الماء عنصـر ضروري، ومنه كل شيء حي لا حياة بلا ماء، جملة شرطية تحمل تحقـق الثانيـة على وجود الأول، والماء انشغال الإنسان منذ أمد بعيد، فمن الطبيعـي أن الإنسـان الأول اهتم بالدرجة الأولى بحاجاته الضرورية في الحياة الطعـام والمـاء، تتجسـد صورة الجفاف بقوة في سفر الملك"سيف" مع صاحبه " القيـاس" حتـى يصـلا واد الجنيات حيث لا ماء فيه ولا عشب ولا نبات، يتابع الملك "سيف" الطيور التي تدلـه على وجود الماء ببركه مطلسمة فكها وشـرب منهـا[...]"[343]. واحتبـاس المطـر والجفاف هاجس ومصدر خوف وقلق فأنّى وجد الماء وجدت الحياة، ونقل التـراث قصصا ونماذج عن علاقة الإنسان مع بني جنسه حين تحل بهم الأزمات والكـوارث ويصيبهم الجفاف والقحط فقد ذكر أن السماء بخلت واحتبس المطر وقلت المياه فأمر أبو الوكيل القوم أن يستقوا من الحفرة التي أعدها لماء المطر، ولما نضب ماؤها دعا

[343] سعيد يقطين – ذخيرة العجائب– ص 28

الله الغيث، فنشأ السحاب ونزل المطر[344]. فالحكاية التي تضمنت البحث عن الماء. موضوعها البحث عن شيء ثمين، بدون الحصول عليه يختل التوازن، وقد لا يكون الحصول عليه بسهولة حواجز وعقبات كؤود تحول دون ذلك، ليس كل من يضرب الأرض يجد الماء، آبار وأنفاق في أعماق الأرض ولا تنبئ بندى. تبين الحكاية الثانية -سيدي امحمد بن على- حاجة الناس الماسة للماء، تبدأ الحكاية وتؤسس على الفعل جاءوا واشتكوا، حددت الجملة الفعلية طبيعة المجيء والاتجاه والنحو، فالولي يؤتى إليه ولا يذهب إلى الناس، صاحب الحاجة هو الأولى بالبحث عن مصدر وجودها، وفعل الشكوى ينم عن ضرر أصاب القوم، وفيه إلحاح مستمر ولا يصل الأمر نهايته إلا ببلوغ المراد ـ مسافة البحث غير محددة أفقيا بالانتقال من مكان لأخر ولا عموديا بمقدار العمق هنا بين حالين ووضعين الأولى توتر وقلق وشكوى والثانية استقرار واطمئنان و أمان، الوضع الأول قبل وجود الماء والحصول عليه الناس، الحيوانات النبات، الجماد كل شيء، في حاجة ماسة للماء العنصر الذي به تستمر الحياة، ندرة الماء، الجفاف، العطش الشديد يؤدي إلى الهلاك. فالكل هنا يتجه نحو النهاية "الموت" نظرا لفقدان عنصر الحياة فالأمل يتناقص.في الوضع الثاني بعد الحصول على الماء تتفجر الأرض ينابيع عذبة الكل في حال استقرار وأمان، التعلق أكثر بالحياة الأمل يتزايد العنصر المفقود المبحوث عنه لضرورة الحياة به أصبح موجودا. إن مغزى الكرامة هو الرغبة في الماء لندرته في تلك المنطقة فعبرت عن حالة نفسية وأشبعتها. بفعل الولي حصل انتقال الماء الثمين إلى القوم العاجزين الذين لم يستطيعوا فعل الشيء، وقد خرج الماء من الأرض بعد أن أمر الولي أحد أبنائه بضرب الأرض في ثلاثة مواضع والرقم ثلاثة حاضر في الأثر والسلوك، السنة في الكثير من نصوصها تؤكد على العدد ثلاثة في أحاديث كثيرة ـ لا عداوة بعد ثلاث، وشرب الماء ثلاث جرعات والاستئذان ثلاث وأخذ العدد ثلاثة ثقة المسلمين في التفاؤل به، فالرغبة في الحياة والخوف من الموت هو أساس الحكايتين، فالولي هنا حاجز بين الناس والمهالك، فهو يؤمن حياتهم بعلاقته مع الله بتقواه وورعه يجد

---

[344] محمد مفتاح – دينامية النص – ص 144

للناس ما فقدوه، فتطمئن النفوس، ويزداد الولي عظمة وقيمة فـي النفـوس وتثبـت الحجة والبرهان للمتشككين، ويزداد له الأتباع.
إن بعض الحكايات يتبين فيها الضياع انطلاقا من تشكل أزمة مثل فقد الأم لابنها ثـم يرده الولي، وينتهي البنزين في الطريق، المسافر لم يصل مراده وتتعطل المصـالح لتعطل الأداة، عن أداء الوظيفة السيارة مركبة تنقل الناس إلى هدفهم ووجهتهم تتوقف لعدم وجود الطاقة التي تدفعها. هنا الكرامة لا تنتهي بوجود المبحوث عنه مثل بقيـة الحكايات بل يحل الماء محل البنزين ويؤدي وظيفته، إن الكرامة تقلب المعطيـات، ويصبح كل سائل لدى الولي يؤدي الخدمة، البنزين سائل والماء سائل، الأول مفقـود ضائع والثاني موجود حاضر فحل الثاني محل الأول وصار يؤدي الخدمـة فألغـاه وأنهى وجوده وقضى على الأزمة. إن الولي يتجاوز العقبات بأشياء مقلوبة، فتصبح الأمور لديه كأي إنسان تقابله الحواجز و الأزمات في طريقه لكـن الـولي ينتصـر عليها، يملك قدرات وطاقات كامنة يتحول عبر كراماته إلى القفـر علـى الـروتين العادي الذي يطبع حياة البشر، فيتحول العدو لديه ويصبح صديقا وتصبح مواد الحياة وعناصرها تحت تصرفه يفعل بها ما يشاء. فهنا الماء بقى يؤدي وظيفـة الطبيعـة وعند الولي أصبح يؤدي وظائف أخرى لتحقيق رغبتـه، وتعبيـرا عـن كراماتـه الخارقة. وهناك نوع آخر من الضائع المفقود المبحوث عنه، إذا اعتبرنا أن الضـائع هو الذي كنا نملكه ثم ضاع منا مثل الصبي الذي ضاع من يد أمه والبنزين الذي كان موجودا يؤدي وظيفته ثم انتهى وبانتهائه تنعدم الوظيفة، هذا الضائع كان في الأصل موجودا. لكن هناك في بعض الحكايات ضائع مفقود ومبحوث عنه لكنـه لـم يكـن موجودا أصلا، فالمرأة التي ذهبت إلى سيدي امعمر تسأله الدعاء لها بالحمل، من لم يكن موجودا، لم تحمل من قبل. كما نجد تداخل الوظائف والبطولات تشترك وتتناسج من أجل الحصول على المفقود الضائع، فاعتماد الأولياء على بعضهم البعض وطلب المساعدة أمر طبيعي بينهم، هنا امرأة سيدي بوعبد الله يقول لها زوجها اذهبي إلـى سيدي امعمر واسأليه الحمل، وسيدي بن شرقي يأمر أحد أولاده بأن ينادي سيدي عبد

القادر الجيلالي ليرد قطيع الغنم الضائع لصاحبه إنها الوظيفة المساعدة، كما قد يعرف بعض الأولياء باختصاصات معينة، فهذا يعقد وذاك يفك، فالأولياء مجتمع ووثاق فيما بينهم، هذا يلجأ إلى ذاك، ويعتبر الدعاء من أهم الدعائم التي يلجأ إليها الصوفي ليبلغ ما يتوق إليه، يقع الشخص أسيرا في الحرب العالمية الأولى فيزداد شوق أبيه إليه، فشكا ما في نفسه لسيدي بن شرقي فيقول له : توجه بدعائك إلى الله وهو قادر على كن فيكون، فدعا الله فوجد ابنه بجانبه." فالخرق مرهون بالحدث اللفظي المقصود به الدعاء[...]"[345] والدعاء في العبادة وهو الرابطة المتصلة بين العبد وربه، وقد ذكرت بعض الأحاديث القدسية، (إذا عرفني عبدي في الرخاء عرفته في الشدة). وذكر في سبب نزول الآية:"ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب " نزلت في عبد الرحمان بن عوف لما أسر ابنه عند الكفار فذهب يسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له اذهب أنت وأمه وادعوا الله واكثروا من ذكر لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الصباح عاد الولد ومعه خير كثير فقال له رسول الله ابشر لقد انزل الله في شأنك قرأنا يتلى إلى يوم القيامة.

فانخرا ق العادات يكون بإجابة الدعوات، كما نجد الضياع في حكاية أخرى يطبع بشكل آخر الرجل في حاجة إلى المساعدة فينادي شيخه لينقذه من هذه الورطة ويسمع الشيخ النداء، ويظهر له ويساعده ثم يختفي فلا يجد له أثرا. الضائع هنا هو البحث عمن يساعده وبظهور شيخه واختفائه يتم الإنجاز فقد تم العمل وحصل الفعل،وفي حكاية أخرى يطلب سيدي معيزة من الحارس الذي كان لديه في الجنان فاكهة لضيوفه، فيأتيه سيدي امعمر برمان حامض، فرده عليه وقال له إتنا بآخر فجاء به حامض، فالضائع في هذه الحكاية هي العقدة واللغز الذي يكتنف وجوده ويتحصن في ثنايا السرد، الضائع "الرمان الطيب الحلو" ويأخذ منحى اكتشاف نموذج السلوك المميز لسيدي امعمر يؤدي وظيفة محدودة - الحراسة لا تعني الأكل - صاحب الأمانة لم يأذن له بذلك فقد استأجره على رعاية البستان وليس له أن يذوق و يأكل ويعرف الحلو الحامض من الجنان فذاك زيغ وانحراف عن معالم الوظيفة والأمانة

[345] أمينة بلعلى – تحليل الخطاب الصوفي – ص 200

الموكلة له، ويتجاوز البعد الديني عند هؤلاء الأشخاص الأسماء يشمل السلوك فإذا بنا أمام أنماط بشرية، يسعون بكل ما أوتوا من قوة من أجل كسب الآخرة عن طريـق التقوى والورع والعبادة يديمونها حتى تخاص أنفسهم لله لا يشـغلهم عـن ذلـك أي شاغل "فبدوا بذلك مثاليين في تصرفاتهم فإذا بعضهم يعـين خادمـا لحراسـة أحـد البساتين فيلفت انتباه صاحب البستان لأمانته[...]"[346].

ونجد الضائع في حكاية السارق الذي اتهم بسرقة البرنوس الأسود ويذهب ليقسم أمام سيدي بن شرقي بحضور الجماعة واشترط عليه جملة القسم قول: حق هـذا العـام لكحل اللي راه جاي بعدو عام ليقيس قصعة يدي فحل، يالبرنوس لكحل ما هو فـي الرحل ". المتهم بالسرقة يبدو معلقا بين هاويتين، اليقين بما يعلم من نفسه وقد علم به الولي وعرفه، صيغة القسم في صدرها تكشف السر. هذا من ناحية ثم أله أن يستمر في الإنكار و قد كشف له الولي المكان الذي يعتقد انه سيظل دفين صدره ومسـتودع سره ، فتجلى من السر نصف وبقى ونصف، ويبقى البحث عن الضائع المفقود يأخذ طبيعة البحث في السراديب المظلمة، فالسرد هنا يعلق الضائع بين لحظتين يسـميها فريد الزاهي لحظة السر ولحظة الانكشاف فأما الأولى فيكون النص فيهـا غامضـا ملفوفا في الذاكرة يعيش خفاءه وانغلاقه، وأما الثانية فتمنح للنص المحكـي إمكانيـة الانتقال من حالة بالقوة إلى حالة بالفعل ومن الكمون إلى الوجود الظاهر"[347]

وتأخذ طبيعة السرد في البحث عن الضائع طريقه التدرج والانكشاف بطبيعة الحلقات والمراحل كالشمس لا تشرق مرة واحدة ولا تغيب كليا، فكل فعل يترك أثرا، فتقلـب المواقع بحثا عن الضائع، تأخذ صورة مقارعة المتهم بالحجة والبيان حتى يـدحض باطله فلا يكون له بد من الاعتراف والتسليم ويصبح المكنون المخبـأ فـي صـدره ظاهرا واضحا ويخرج للوجود. إن طريقه الولي في اسـتدراج المـتهم للاعتـراف وتطعيم صيغة القسم بمثل يتركب فيه الكلام من مقاطع تخرق أفق انتظـار المـتهم، فهو اللغز المتضمن للحل فيه. " فالمثل في جوهره صورة بلاغية لا تنطق بمعنى إلا

---

[346] حمادي المسعودي – الحكايات العجيبة – ص 137

[347] فريد الزاهي – الحكاية والمتخيل– ص 72

وأوحت بآخر هو " بتعبير الجرجاني والمثل كالشعر في تحديد "فاليري" "لغة داخل اللغة" [...]"[348] وتجمع الحكاية في مسارها بين الوظيفة التعليمية والتربوية، فالصوفي يريد تبليغ رسالة للمتهم مفادها أنه لا يعيش وحده في هذا العالم إن الذي صنعه المتهم، أنبأ به الله الخاصة من عباده، فهم يبصرون ما لا يبصره غيرهم، يملكون من علم الغيب ما لا يعرفه أحد، ولهم طبيعة التنبؤ بالمستقبل وقدرة عجيبة على المكاشفة، وفك الأرصاد وحل الألغاز، " كأنها طريقة تربوية ترنو لاستدعاء العامة أو المريد أو المتشكك إلى عالمها، تخلق توترا نفسانيا، وتخل بالاستقرار الانفعالي عندما ترمي في حقل المستمع إشارة أو لطيفة أو رمزا بذلك تبدو وكأنها تدعوه، تثير اهتمامه، تجذب نظره، وتشده إليها"[349]، وهكذا نجد هذه الحكايات يبدأ فيها السرد، انطلاقا من البحث عن عنصر كان موجودا، ثم قل وجوده أو انعدم مثل الطعام والماء أو الغنم التي ضاعت لصاحبها أو الصبي الغريق والابن الأسير، فهي هنا شملت الإنسان والحيوان والجماد، كما قد نجد الضائع صفة معنوية مثل الكشف عن طبيعة السلوك (الرمان الحامض) أو البحث عن العمل، وتنحوا حكايات أخرى إلى البحث عن المفقود الضائع (الأمن و الاستقرار) حيوان ضاري يهاجم القوم ويأكل حيواناتهم، والذئاب التي جاءت فاجتمعت تهاجم كل من صادق طريقها والعفريت الذي كان يقض مضاجع سكان جزيرة ذيبة المهل إنها بعض من نماذج البحث عن الضائع في بعض الحكايات حاولنا الكشف عن مضامينها وتسير الحكاية بالتدرج ينسج فواعلها الحدث ويشاركون في تطوره يبدأ اللغز بالتشكل ثم التكثف ثم ينجلي الأمر. وخلاصة مبحثنا هذا أن هذه الحكايات تحمل صفتين متناقضين لكنهما منسجمتان حيث تفتح الحكاية بتحضير أفق المتلقي لإدخاله في عالم الدهشة والاستغراب، ومن أول وهلة ينبت فيه عنصر المتعة والتشويق عن طريق تضييع شيء، ولا بد للمتلقي أن يشترك مع الراوي في البحث عنه، فالراوي والمتلقي يشتركان في وظيفة واحدة، غايتها الإبقاء على الحكاية والمحافظة عليها من الزوال،

[348] بكار توفيق – قصصيات عربية- ص 11
[349] علي زيعور – الكرامة والأسطورة والحلم– ص 177

والمتلقي يصبح راو لها فيما بعد. " إن المكافأة اللازمة التي يدخرها الراوي البطـل للمروي له البطل، فالسرد مقايضة، لابد للراوي أن يفاجئ المروى له بما لا يعـرف ولا بد للمروى له أن يستمع وأن يجني ثمار استماعه لما لا يعـرف "[350]، وطبيعـة السرد تشترط لكل راو متلق يحتضن حكايته ويتلقاها ثم بها يصبح يمارس وظيفة من تلقاها عنه. وطبيعة السرد " تفرض تضحية الطرفين، على الراوي أن يروي، وعلى المستمع أن يصغي، وكلاهما يكب في الآخر، الراوي ينقل تجربته والمروي له يتمتع ويستفيد و يعتبر[351]. فالطابع العام للحكايات هو جمعها بين البداية والنهاية للبـاطن والظاهر، والغيب و الحقيقة، والخفاء والكشف.

إن توظيف المثل في بعضها في البحث عن الضائع المفقود له ميـزة خاصـة فـي الحكاية، فالمثل " يوظف قيمته الإنشائية لأداء وظيفتين متناقضتين لكنهما متكاملتـان وهو الكشف والحجب والبوح والسرد، لأن الرمز لا يشي إلا بقدر ما يكتم فهو فـي الوقت نفسه كثافة وشفافية باب ينغلق وينفتح"[352].إن صفة الخفاء والكشف، والضياع والحصول على الشيء سمة بارزة في طبيعة الكتابة " إن الكاتب يخفي فـي السـرد كنزا"[353]. وعلى القارئ أن يبحث عنه، وكل قارئ له كنزه الذي يصل إليه من فعل قراءته، وفهم النص والوصول إلى معانيه يختلف من قارئ لآخر." فكل قراءة هـي نتيجة تواصل وتفاعل بين مقروء وقارئ أو نص وتأويل له"[354]. وتنتهي الحكايـات كلها بصفة الحل الذي يؤدي إلى الاطمئنان، وراحة النفس، فكل الأسئلة والتساؤلات، جاءت في صدر الحديث تجد لها جوابا في آخره. وكل مقفل يحل، وكـل مسـتحيل صعب، يصبح ممكنا سهلا،" فالكرامة حل لمشكلة، طالما أقلقت الصوفي أو فسـرت معضلة، أو تكوين تصويرا لمبدأ سلوكي، أو ردا بليغا يوضح فكرة صوفيه [...]"[355] فالصوفي بتقديم الحل والتفريج يحقق رغبة ذاتية ويؤكد لولايته، فيتحول الخصم إلى مناصر ومريد فالحكاية " تبدأ كما تنتهي لتعود حالـة السـكون والرضـا وتطمـين

---

[350] سعيد غانمي – الكنز والتأويل – ص 51
[351] مرجع سبق ذكره ص 46
[352] بكار توفيق – قصصيات عربية– ص 12
[353] سعيد غانمي – الكنز والتأويل – ص 5
[354] نقلا عن المرجع نفسه
[355] علي زيعور – الكرامة والأسطورة والحلم – ص 28

الحاجات والسعادة الدائمة"[356]. إن الشعور الذي ينتاب السامع في البداية قلق وتـوتر وتطلع إلى الأفق، استنطاق الغيب، تطور الأحداث وتنميه عنصر المتعة والتشـويق والبحث عن الحل وعدم الاستقرار اللاتوازن كلّها تلك صفات وعناصر تشد السـامع في البداية ثم تؤول في الأخير إلى استقرار وتصير القضايا المستعصية ميسرة يتمكن الولي من الإمساك بها، والتحكم فيها فيعود الأمان وتعود النفس من ذلك السفر مـع الحكاية إلى التفريج وحل الأزمات، والحصول على مبتغى النفس وحاجاتها التـي لا غنى لها عنها في الحياة. ويكبر في أعين الناس فيقدسونه ويسبغون عليـه صـفات أخرى ويحيطونه بهاله من القداسة والفخر والاعتزاز فينسبون إليه ويتنافسـون فـي خدمته، ويستأنسون به من الوحشة، ويأمنون به من الخوف، ويسـتغيثون بـه فـي الأوقات الحالكة، فيجدونه ويجدوا عنده كل ما طلبوه ورغبوا في الحصول عليه.

تحليل نماذج من حكايات الكرامات:

لفهم الحكاية نود تحليلها بتفكيكها إلى عناصرها الأساسية، ومن ثم تحليل كـل عنصر بمفرده ومحاولة معرفة علاقته مع غيره من العناصر. إن الفعل القصصـي يتشكل بصفة تدريجية من خلال علاقته ببقية عناصر الحكاية. لـذا سنسـعى إلـى الكشف عن العلاقات البانية في الحكاية، وما يجعلها متسقة فيما بينها ومتطورة، مـا يتفق منها وما يختلف، إنها رؤية أخرى نقف بها على دراسة الحكاية بالاعتماد على الجداول التي استعان بها الباحث محمد ولد احظانا في دراسته للحكاية الشعبية. [357]، واعتمدها باحثون أخرون لدراسة الحكايات الشعبية ومنهم الباحثين الأستاذ بورايو[358] وميلود حكيم [359]

يمكننا الجدول من معرفة تطور الفعل عبر مسار الحكاية من المبدأ إلـى المنتهـى، ورصد ملامح وسمات تشكل الحدث وتطوره وتحديد الشخصيات الفاعلة فيه،وتحديد علاقاتها التراتبية وحين ذاك نكون قدمنا مقاربة تطبيقة للوقـوف علـى المكونـات

---

[356] ناهضة ستار – بنية السرد القصصي – ص 172

[357] محمد ولد أحظانا – باحث في الثقافة الشعبية – جامعة نواقشط موريطانيا، المجلة العربية للثقافة-المنظمة العربية للتربية 1981 تونس، ص 250

[358] محمد ولد أحظانا – باحث في الثقافة الشعبية – جامعة نواقشط موريطانيا، المجلة العربية للثقافة-المنظمة العربية للتربية 1981 تونس، ص 250

[359] اعتمد الأستاذ حكيم ميلود نماذج من الحكايات الشعبية وفق جداول محمد ولد أحظانا في الكرامة الصوفية في تلمسان- مذكرة ماجستير ص 181

الأساسية لهذه الحكايات . تشكل حكاية الكرامة الصوفية جنسـا أدبيـا يقـوم علـى خصائص نوعية، ويتصف ببنية داخلية سردية تجعل منه نتاجا ثقافيا ذا خصوصـية موضوعاتية وشكلية . يسمح لنا هذا التحليل بتتبع حركـة الفعـل القصصـي فـي الحكايات المدروسة وبيان خصائصه المتعلقة بوظيفته وطبيعة من يقوم بـه. سـيتم تحديد المكونات القصصية وفق مبدئي التقابل والتشابه كالآتي:

1) جدول العلاقات البانية وتشكل الفعل القصصي

الحكاية / العلاقات	توافقية	تضادية	فعل تهييء	فعل تأزيم	فعل تشكيل	فعل حل
الأولى	الولي والناس	الإنسـان والطبيعة	فيضان الواد	وصول المـاء إلى الزاوية	إلقـاء البيـت الشـعري فـي الماء	انخفـاض مستوى المـاء فـي حـدود مجراه الأصلي
الثانية	الولي والناس	الإنسان والسلطة السياسـية الأجنبية	مشاركة الابـن فـي الحـرب العالمية	الوقـوع فـي الأسر	دعاء الأب	رجوع الابـن إلى أهله
الثالثة	الولي والناس	الإنسـان والطبيعة	القحط	انتهاء المخزون	زرع التبن	محصول وفير
الرابعة	الولي والسـلوك القويم	الولي والحرام	تقـديم الفاكهـة للضيوف	جلب الحـارس للرمان الحامض	جلب الحـارس للرمان الحامض للمرة الثانية	اكتشاف صـفة الولاية

يمكننا الجدول الأول من تحديد العلاقات في الحكايتين وبقراءة متأنيـة نقـف علـى المعاني المتضمنة، في الحكاية الأولى تنطلق الأحداث من أزمـة تصـيب القـوم، فالإنسان يرغب في التناغم مع الطبيعة، فلما لا تلبي له كل حاجاته ورغباته يلجأ إلى الدين حتى يجد مبتغاه، " إن الدين مظهر من مظاهر احتياجات الجماعات البشـرية وأن المرء لا يقدم على عمل إلا لحاجة في نفسه."[360] بانتهاء المخزون يجد النـاس أنفهم في أزمة حقيقية ولا ملجأ ولا ملاذ لهم إلا الرجوع إلى الولي، فهو الذي يمثـل لديهم الدين والسلطة الربانية التي تفرج كربتهم وتؤمنهم من خوف وتطعمهـم مـن

[360] شلحت يوسف –نحو نظرية جديدة – ص 150

جوع (....) " إن المتصوف يمنح الإنسانية أزاهير باسقة، ومواعيد خلابة، هي نتيجة سمو أفكاره ونزاهة مقاصده. ولا وجود لهذه العوالم إلا في مخيلة المتصـوف."[361] إنه لم يبق للقوم من الحب إلا أثره، التبن من مخلفات الحب بعد عملية الدرس، الولي يأمر الناس بالحرث وزرع التبن والدعاء بصيغة القول "الحـرث حرثنـا والسـبولة والرزق على ربنا" حل الأزمة يبدأ من أصل ملامحها ومخلفاتها، انتهى الحب ومـا بقي إلا التبن يزرع التبن بالتوكل الكامل والمعان على الله وبهذا "فالحكايـة تسـاعد سامعها أو متلقيها على فهم نظام بنائها، لأن حلولها متضمنة فيها"[362] يسمع النـاس لوليهم ويخلصون له وعن ذلك نتج خير كثير وبهذا نجد الراوي ينتقل بالحكاية ويقف بها على النقيضين عالم الخيال في مبدأها وعالم الواقع في منتهاها، اللاواقع والواقع، أي كأنه " ينقلها من عالم من الافتراض والإمكان إلى عالم الفعـل والحقيقـة."[363] وبالمثل تعبر الحكاية من هذه الضفة إلى الضفة الأخرى، من أنفاق اللاأمن والقلـق والتوتر إلى شاطئ الأمان، والمثل يحدد صيغة الدعاء بالقول والفعل، لا حيلة للقوم، يأخذون بالعلل والأسباب حرث الأرض رمز لطلب الرزق، والمثل صورة بلاغية لا تنطق بمعنى إلا أوحت بآخر، دعاء الولي رسالة ضمنها، لحل أزمة القوم، فـدعاؤه مستجاب، يتحول اللاممكن إلى الممكن، ومن زراعة التبن تكون السـنابل ويحصـل الحب، وكأن الأمر انقلب من الضد إلى الضد، زراعة الحب تعطي الحب والتبن هو مصدر الرزق والعطاء يحمل المثل في طرفه الأول إقرارا بفعل الإنسان في حـدود إمكانه وإقرارا بالعجز في طرفه الثاني فوكله إلى الله وهو بفعله هذا ربـط الأرض بالسماء، صيغة الدعاء تحمل في صدرها ملامح فعل البشر في اتصال مباشـر مـع الله، فهو الرزاق من غير حساب. في الحكاية الثانية الفيضان يصل إلى حد الزاوية، الولي يقف أمام الحدث وجها لوجه " الطبيعة صديقة البطل (الصوفي) مطيعة لـه تتداخل فيها العوالم الحيوانية والنباتية والبشرية والغيبية، وكل عالم فيها منفتح علـى

---

361 مرجع سبق ذكره ص 103
362 سعيد غانمي –الكنز والتأويل – ص 26
363 نقلا عن المرجع السابق ص 83

الآخر، ومساعد له وبذلك تلغى السببية وقوانين الطبيعة."[364] تُلخص كرامة الـولي هنا في رسالة ضمنها بيتا شعريا في شكل دعاء، وقد عرف الشعر حضورا قويا لدى المتصوفين فيما يذهب محمد مفتاح إلى تأكيد ذلك:" وارتباط الشعر بالدين والسـحر والكهانة والموسيقى ظاهرة عامة لدى الشعوب."[365] وإلقاء البيت الشعري في الماء يؤمن للولي سرية الكرامة ويعيد مستوى ماء الواد إلى حدود مجراه الأصلي، ويمكن تقسيم هذه الحكاية وفق طبيعة الفعل كالآتي :

<u>فعل التهييء</u> : الماء عنصر ضروري للحياة، يزيد عن الحـد فيتحـول إلـى فيضان، بمعنى أنه يغرق أو يهدد بالغرق، الفيضان وضع غير طبيعي، الماء يحـي ويميت ، يبعث الحياة، فيضان نوح عليه السلام حمل معه صفة الهلاك والتطهيـر، أهلك القوم الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد وطهر الأرض مـن الأرجـاس والأنجاس.

<u>فعل التأزيم</u> : الماء يكتسح الأرض، وبوصوله إلى الزاويـة يقطـع اتصـالها بالعالم الخارجي، فتصبح معزولة وتجمد وظيفتها، الذي بداخلها لن يستطيع الخروج منها ولا الوصول إلى من هو خارج عنها صلة الولي تنقطع عن المجتمع، الولي لا يعيش لذاته بل لتلبية رغبات وحاجات مجتمعه ويتجسد ذلك في كراماته وخوارقـه. "فالبطل الصوفي ليس موجودا في المطلق، في الغيب، خارج التاريخ، وليس هو قائما فيما بعد التاريخ وما بعد الطبيعة."[366] (...) فهو ابن المجتمع وواحد مـنهم لكنـه يتميز عنهم بأفعاله وتجاربه فيصبح حاملا بينهم الصفة الربانية، وقد تعترضه حواجز كثيرة ولكنه لا ينهزم أمامها، فهو يجتاز الكوارث لا تقفّ أمامه الحـواجز، بإلقـاء البيت في الماء الشعري، رسالة تبلغ المرسل إليه تتصل به وتلامسه، تـنغمس فيـه وتثبت بذلك الحجة والبرهان، فيأخذ الماء في جزر بعد ما مد حباله ووصل الزاوية.

---

[364] علي زيعور –قطاع البطولة والنرجسية – ص 40
[365] محمد مفتاح –دينامية النص – ص 134
[366] علي زيعور – قطاع البطولة والنرجسية – ص 25

فعل الحل : يعود مجرى الواد إلى أصله فتطمئن النفوس بعدما انتابها الخوف واللاأمن، عاد الوصل والاتصال مع الولي بعدما كاد ينقطع وينفصم، الوصول إلى الزاوية صار ميسرا، فهي ترتبط بالمجتمع ارتباطا وثيقا.

نستخلص من الحكايتين بناء على تحديد عناصرها وفق جدول العلاقات المبين ارتقاء الولي بتجربته التي تبلور دوره البارز المميز سواء في علاقته بذاته، أو المجتمع الذي يعيش فيه، وبهذه الصفة يصبح الإنسان الرباني الذي يقصده الناس للأمن والاطمئنان، تتسم علاقة الإنسان بالطبيعة، بالخوف. الفيضان من الأخطار التي تهدد حياة الإنسان في مواجهته لمثل هذه الظواهر، لكن الولي بقوته المطلقة وقدراته الفوق طبيعية يتحكم فيها ويسخرها لخدمته، ويبرز عنصر الحدس الذي يمكن الولي من التفوق فيما يقوم به من أعمال والتي تشبه إلى حد ما معجزات الأنبياء والرسل، وبالحدس يضطلع على ما تحمله الأنف من أسرار وما يخبأ في الصدور من نوايا، وبهذا يثبت الصوفي جدارته وصلاحه ويتميز عن غيره ويعظم في الأعين وتتوثق صلته مع الأتباع. ويظهر الدعاء ركيزة يتدعم بها الولي في إنجاز أفعاله، فقوته مستمدة من الله، حصول الكرامات يكون بإجابة الدعوات ويصبح الزمن مقدسا، وتحطم مفاهيمه المتعارف عليها، وفي صورة الصوفي ذي الطابع الإلهي يخلص ويفرج وينقذ ويحضر الغائب "ويكون فعله تجسيدا للقدسي وانتصارا للأبدي على الزمني (...)"[367]

مظاهر التشاكل والتناظر في الحكايتين:

تتخذ الحكايتان من عنصر المفقود والحصول عليه موضوعا لها، فتشيد كل منهما بقيمة ودور الولي في تطور الأحداث، وتبرز موقعه المركزي والمحوري في شد واتصال عناصر الحكاية من البداية إلى النهاية، فالولي هنا حلقة وصل بين سكونين، فيضان يصل بالأرواح السكون والموت الذي لا رجوع بعده. عودة مجرى الواد إلى أصله يؤسس لسكون الحياة في استقرارها وهدوئها، وأسر الابن هو سكون بين القيود والقضبان وبرجوعه يسكن شوق الأب المتلهف لعودة ابنه. الحكايتان

---

[367] ميلود حكيم – الكرامة الصوفية في تلمسان– ص 184

تجسدان صفة قدرة الولي على إحضار الغائب، يلجأ الولي إلى نصيحة الأب واعتماد الدعاء المستجاب في حينه، تبدو الوظيفة الاجتماعية بارزة معالمها في الحكـايتين، ينقل الراوي حاجة المجتمع الماسة إلى الولي حينما يقع أفراده في الأزمات، فيكـون ملاذهم الأخير وأملهم بعد أن فقدوا كل الأمل، فالولي لا يعيش لوحده إنمـا تتجسـد كراماته وخوارقه في إشباع حاجات ومتطلبات مجتمعه، ينطوي النص على وظيفـة تربوية، إجابة النداء والتفريج لمن هو حائر مصاب بأزمة، هي كلها من أجل القـيم التي ينادي بها الإسلام. الولي تكتمل فيه صورة الدين، هو الممثل لقيمه وروحه، به تصفو سريرته فيرتقي ويتفوق على الآخرين فيكون سلوكه نمطيا نموذجيـا، وبهـذا "يمكن اعتبار النص سلسلة من الوظائف" [368]، بمعنى أن الأفعال المتماثلة في الحكاية يمكن أن يكون لها دلالات مختلفة. تتسم القصتان بميزة التأزم والانغـلاق واليـأس والتحسر في البداية، ثم الحل والانفتاح والاطمئنان وراحة النفس في النهايـة، وكـل مستحيل يصير ممكننا، نجد أنفسنا" أمام نص ينهض بكامله على بناء التضاد، يبـدأ بالخفاء لينفتح على الكشف." [369] يبدأ الراوي في سرد الحدث مباشرة دون تقديم لـه وكأني به يريد تبرئة نفسه من تبعات الزيادة والنقصان فتفقد الحكاية عنصرا مهمـا هو المقدمة والاستهلال، والتي من ميزتها في الحكاية الصوفية " أنها تمتـاز بثـراء الكلمة والصورة ، فالنص ليس جملا متراصفة يقولها راو أو متكلم، إنما هو نسـيج مرتبط بالبداية بخيوط ممتدة مشدود إليها، فالاستهلال فن البـدايات." [370] إن التقـديم للحكاية يحضر المتلقي ويدخله في جوها وهذا فحوى ما تذهب إليه الباحثة ناهضـة ستار" المقدمة تهيئ ذهنية المتلقي للوظائف الأساسية التي يستنهض بمهامها البطـل، فالتقديم في الحكاية أرضية تحضر لينبت فيها عنصر التشويق." [371] كما أن حكايـة فيضان ماء الواد ووصوله إلى الزاوية حكاية تضمنت حكـايتين الأولـى حصـول الفيضان والثانية بلوغه الزاوية التي هي رمز ومرجعية المجتمع وكيف السبيل لـرد

---

[368] فلادمير بروب – مرفولوجية الحكاية ترجمة وتقديم ابراهيم الخطيب– ص 57

[369] فريد الزاهي – الحكاية والمتخيل – ص 75

[370] ناهضه ستار – بنية السرد – ص 86

[371] ناهضه ستار– بنية السرد القصصي – ص 126

الخطر، "فالحكاية تركيب متين يشد وحدات السرد على طول المسافات توجب بعضها بعضا بالضرورة، لكل علة عاقبة ، ولكل لاحق سابق شبكة وثيقة الخيوط (...)."[372]

تنتمي القصتان لشكل أدبي واحد، وهو قصص كرامات الأولياء، كلتاهما لسيدي بـن شرقي تبدو الوشائج التي تربط بينهما قوية باعتبار أنهما نتاج نفس البيئـة وبطبيعـة مضمونهما تؤسسان لسلطة الولي وتبرز مركزه في المجتمع . اعتمـدت الحكايتـان أسلوب الحوار لبلوغ هدفهما وهي خاصية تقوم على التقابل بين الفواعل المشـتركة في الحكاية لتصل بها إلى الحقائق، فتزول الشكوك والأوهام، ولا يـتم بلـوغ هـذه المدارك إلا عبر استفهامات واشارات يستدل بها .

يتوجه الأب السائل عن ابنه إلى الولي وهو لا يعلم المستقبل طبيعة الحوار تفضـي إلى اعتماد الدعاء وسيلة للحل والتفريج، الحكاية ملفوفة بكنز تخفيه في ثنايا السـرد طبيعة جواب الولي تنمي عنصر التشويق. نلاحظ الراوي في مثل هـذه الحكايـات يعتمد التقديم لها بضمير الغائب وذلك لرغبته في تعليق الحكايـة نصـا ومضـمونا وصيغة على كاهل غيره من الرواة فغايته " هو تحقيق وظيفة التعليق والتمويه." [373]

في الحكايتين يمر الصوفي بالمراحل الثلاث الاختبار والتهييء والاختبـار الحاسـم، وحصول التشويق بالكرامة. كلاهمـا تنتهـي بـالمتلقي إلـى مضـاعفة الدهشـة والاستغراب، فعل الحل يجعل المتلقي يستيقظ من سبات المتعة، الغوص في أعمـاق الحكاية، فيخرق الراوي أفق انتظاره الابن يعود والواد يعود إلـى مجـراه. تـدخلنا الحكاية من حيث نهايتها في " دهشة مضاعفة لا تكتفي بإعلان الوهم بل تكسبه طابع الواقع وتخرق بذلك أفق انتظارنا." [374]

يمكننا جدول العلاقات في حكاية سيدي معمر من اكتشاف السلوك القويم الذي اتصف به الولي طيلة وجوده محافظا على الأمانة، فسلوكه لا يتفق مع الكـذب والخيانـة، الرمان الحامض يأتي به سيدي معمر لضيوف الشيخ دون قصد فهو لا يعرف أطيب

---

[372] بكار توفيق – قصصيات عربية – ص 13

[373] سعيد غانمي–الكنز والتأويل – ص 51

[374] فريد الزاهي – الحكاية والمتخيل – ص 127

الفاكهة إن مغزى الكرامة هو معرفة السلوك المثالي لهؤلاء النـاس مـع اكتشـاف الولاية، يمكننا تقسيم مفاصل الحكاية انطلاقا من طبيعة الفعل كالآتي:

فعل التهييء : تبنى الأحداث بنزول الضيوف عند الشيخ ومن الطبيعة إكرامهم وخير الكرم أن يكون من أشهى وألذ فواكه الموسم، يطلب الشيخ من سيدي معمـر (حارس الجنان) إكرام الضيوف بفاكهة الرمان.

فعل التأزيم : يقدم خادم الجنان رماناً حامضاً بعد أن ذاقـه الضـيوف ردوه، الشيخ سيدي معيزة يستغرب الأمر ويطلب من الحارس رماناً آخر ثانيا وثالثا ورابعا ولم يتغير الأمر.

فعل الحل : يسأل الشيخ الخادم عن طبيعة جهله للرمان الحلو فيرد عليه بأنه لم يذق هذه الفاكهة لأنها أمانة في يده، وهو يخاف الله (اكتشاف ولاية سيدي معمر)

تكشف هذه الحكاية عن طبيعة أشخاص يتمازون بسلوك خارق، وكما يقـول عـنهم حمادي المسعودي ويبدوا بذلك مثاليين في تصرفاتهم فإذا بعضهم يعين خادما لحراسة أحد البساتين فيثير إعجاب صاحبه في سلوكه وأخلاقه حينما يجيبه.(إنما اسـتأجرتني على الحراسة لا على الأكل) [375] الولي يكابد ويجاهـد نفسـه ولا يسـمع لشـهواته ونداءات نفسه كما يقول عنه علي زيعور يكابد ويصارع بجهد ومشقة ليصـل إلـى المدينة الخيالية الفاضلة في الرقي الأعلى في السماء وأخذ الذات والروح للغوص بها بعيدا في أعماق اللاوعي بالانتصار على الصعاب وعـدم السـماع للجسـد ونـداء الأرض والتراب، وهناك يحدث الاطمئنان للنفس والشعور بالأمن والأمان في عـالم المثل والرقي والطهر والنقاء(...)[376] إن مثل هؤلاء النماذج ليسوا ملكا لذواتهم فهـم أسمى من أن يكونوا عبيدا لأجسادهم فقد روضوا الـنفس علـى الطاعـة والـورع والخضوع الكامل لله، فالمتصوف عابد زاهد، أي كائن منغلق على ذاتـه منصـرف تماما عن الدنيا إلى الله ، كل مايريده أن يصون نفسه عن مغريات العالم، لكي يفـد على الله بريئا من الذنوب خالصا من الخطايا[377] فالبطل الصوفي، الإنسان الربـاني

---

[375] حمادي المسعودي – الحكايات العجيبة – ص 288
[376] علي زيعور – الكرامة والأسطورة والحلم – ص 49
[377] سعيد غانمي – الكنز والتأويل – ص 64

يختلف عن البشر العاديين فهو " البطل النمطي الأقرب إلى الطبيعـة الإلهيـة مـن الطبيعة البشرية، هنا نجد البطل الصوفي مثلا أعلى لكل مثالية في الأخلاق والمعاملة والمصاحبة." [378]

2) جدول الشخصيات المسند إليها الفعل القصصي

الشخصيات / الحكاية	البطل	المساعد	الخصم	المكمل(1)	المكمل(2)	المكمل(3)
الأولى	سيدي بن شرقي	معرفة السر	الطبيعة	الأم	الصبي	الزوج
الثانية	سيدي بن شرقي	الدعاء	الحرب	الأب	الابن	-
الثالثة	سيدي يحي	البغلة	الذئاب	الطلبة	-	-
الرابعة	سيدي مروان	اسم الله	النار	الصبي	الأهل	الناس

ويتبين لنا من الجدول دور الشخصيات الفاعلة في الحدث وتوزيـع الأدوار، تبـرز شخصية سيدي بن شرقي في الحكاية الأولى مركزية محوريـة، تكشـف الأسـرار وتتنبئ بها وإن أخفاها أصحابها احتراما وتقديرا للولي، فيضان الواد يهـدد النـاس بالهلاك والخطر، الماء بقوته يجرف كل شيء، لا يبقي ولا يذر، الأم تكون قد زارت الولي وهي في أمس الحاجة إلى الإنجاب ولأن الله رزقها بما تقر عينهـا فصـحبت الصبي إلى الولي حتى يقيه الله ببركة ودعاء سيدي بن شرقي من كـل أذى فتسـند ظهرها عليه، وتحسن عاقبتها، الزوج شخصية مرافقة ينصح زوجته بأن تكتم أمرها فالآخذ هو المعطي، فلا سبيل لإبلاغ الأحياء بمن لا سبيل برجوعه، يأس ويقين بأن الصبي لا رجوع له بعد الضياع، الولي يتصف بالحدس تدخل عليـه الأم مكسـورة الخاطر وأول ما يسألها بعد سلامها عليه (وين رفيقكم) تحاول الأم إنكار هذا الأمـر وعدم إشغال سيدي بن شرقي بمصابها، يخرج الولد من البرنوس حيا ويسـلمه لهـا فتعود الحياة إليهما من جديد. إنه لا يمكن فصل الأشخاص عن عالم الحكاية، فهـي كل متكامل إنسان، حيوان، نبات، الذئاب حيوانات ضـارية تجـوع عـدوها الأول الإنسان، تجتمع لتقوى، تهاجمه لتفتك به، يتأزم الوضع الولي ملاذ الناس يرجعـون

---

[378] علي زيعور – قطاع البطولة والنرجسية – ص 122

إليه يسألونه الأمن، يخرج لاقتفاء أثرها، يركب بغلته ويتبع مسارها، تهاجمه مجموعة وتكاد تقضي عليه، يوخز بغلته فتنطلق شرارة النار من حافرها ، فتصعق وتموت. الناس لا منقذ لهم من أزماتهم ولا من يحميهم ويأمنهم من المخاطر غير وليهم، في الحكاية الثانية تشب النار في البيت فيهرب الأهل ويبقى الصبي عرضة للهلاك وسط لهيب النار، ما استطاع أحد إخراجه ، الولي يذكر اسم الله الذي "يقوم في الحكاية بوظائف كل طلسم "2 يخترق النار المتأججة وينقذ الصبي دون أن تصيبه النار بشيء."فالكرامة خرق للعادة والمألوف والسلوك الإجتماعي تتعدى ما هو فيزيائي وعادي، وعلى هذا يأتي الولي بطلا تخترق إرادته كل شيء (...)"[379] وبفعل الصوفي يلتئم شمل الأسرة فيكبر في الأعين ويزداد له الأتباع، ويسود الاطمئنان والأمان وخلاصة ما سبق أن قراءة الحكاية في علاقاتها وشخصياتها عبر هذه الجداول يمكننا من فهمها أكثر وتحديد مستوياتها المختلفة المعبرة عن تطور الحدث ومعرفة الشخصيات المختلفة بطبيعة أدوارها، والعلاقة فيما بينها من حيث مساهمتها في الفعل القصصي ، وبهذا تعرض الحكاية نفسها أمامنا مجزأة في علاقاتها وأدوار فاعليها فيها، فنقرأ الحكاية بوضوح فتتجلى معانيها للأفهام.

3)الجدول المتعلق بالوسط الذي يجري فيه الفعل القصصي

---

[379] علي زيعور – الكرامة والأسطورة والحلم – ص 91

الحكاية / طبيعة الوسط	المحيط الجغرافي	المحـــيط الطبيعي	المحـــــيط الاجتماعي	المحـــيط الحيواني	المحـــيط الثقافي
الأولى	مجاجة/تنس	الريف/المدينة	الأهل/المجاهدون	الخيول	زاوية مجاجة
الثانية	العطاف/رزيو (وهران)	الريف/المدينة	الأهـل/مجتمـع المدينة	-	زاوية العطاف

يمكننا هذا الجدول من قراءة الحكاية من حيث تحديد الفضاء المكاني الذي عاشت في حدوده والمحيط الطبيعي الذي احتضنها والمجتمع الذي ساهم في دفع وتطور أحداثها والحيوانات ومختلف عناصر الحياة التي شاركت فيها. في الحكاية الأولـى تكشـف طبيعة المكان عن منطقة ذاع صيتها قصدها الولي واستقر بها، قريـة تبعـد عـن المدينة، فالأولياء بطبيعتهم يحبون الأماكن الخالية البعيدة عن الحركة والضوضـاء، ذكرت في الحكاية مدينة تنس الساحلية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط، منطقـة جلبت إليها السكان الذين جعلو البحر مصدر رزقهم الأساسي وهي مرفـأ للسـفن، منطقة ذات نشاط اقتصادي، لذلك كانت أطماع الكثير من الاسـتعماريين متوجهـة نحوها ومنهم الإسبان، وقد عرف سيدي امحمد بن علي بإرساله الطلبة للدفاع عـن ثغورها وسواحلها من هجمات الغزاة[380] كما أن الخيول عرفت بدورها الفعال فـي السلم والحرب، وهي الحيوانات القريبة والمألوفة والمحبوبة لدى الإنسان وقـد قـال فيها عليه الصلاة والسلام : " الخيل معقود بناصيتها الخير ". يبرز دور الزاوية التي أسسها سيدي امحمد بن علي وأصبحت معلما يشع بالعلم ومقصد الطلبة من كل حدب وصوب، وقد عرف عنها أنها لم تكن تقتصر على تحفيظ القرآن الكريم فحسب بـل كانت تدعو للجهاد ، في الوقت الذي نجد فيه بعض أمراء بني زيان يتسابقون إلـى الاتصال بالأسبان، يعرضون عليهم خدمات الولاء، ومنهم أمير تنس يحـي الثـابتي الزياني، فقد قدم لهم طاعته عن بعد دون مقاومة، فكان طلبة الزاوية يفـدون علـى سواحل تنس ويشكلون جيشا للدفاع عن ثغور الوطن من حملات الصليبيين[381] هكـذا نجد الأهمية البالغة لهذه الزاوية تمثلت في وظيفتين الأولى جاب الطلبة الوافدين إليها

[380] أبو القاسم سعد الله – تاريخ الجزائر الثقافي – ج198/1
[381] مخطوط يملكه الشيخ بلعالية– مفتش متقاعد الشلف –

لينهلوا من علومها ومعارفها، والثانية دورها الحركي في مسايرة الأحداث آنذاك فلم تستكن ولم تخضع فقاومت وجاهدت بكل ما تملك. في الحكاية الثانية تمثـل قريـة العطاف الواقعة في الوسط المتجهة نحو الشرق، ومدينة وهران الواقعة في الغـرب قطبي الرحى اللذين يتشكل منهما الحدث، الولي يستقر بالزاوية يقصده طلبـة العلـم ويصبح مقصد المتشككين لاختبار قدراته قصد إثبات ولايته، وقد ذكر أن " الطلبـة الذين أقاموا بها كان قد بلغ عددهم الثمانين وتارة التسعين، وتخرج من تلك المدرسة تلامذة عظام، واشتهرت وفاقت كل المدارس "[382] وقد عرف للشيخ أتبـاع كثيـرون يحملون رسالته، "وكان رضي الله عنه وبعد أن أتقن القرآن الكريم بورش، شرع في قراء الفقه من متن الشيخ السيد خليل." مكنتنا هذه الجداول من تحديد محيط الحكايـة بآفاقه وأبعاده، فنعيد قراءتها وفق معطيات ترسم لنـا الملامـح وتصـنف داخلهـا المحيطات التي تشملها

4) جدول المراتب التي ينتمي إليها القائمون بالفعل

طبيعة المرتبة / الحكاية	المرتبة الدينية	المرتبة المعرفية	المرتبة العسكرية	المرتبـــة المتعلقـــة بالجنس	المرتبة الاجتماعية
الأولى	سيدي بن شرقي	-	الدرك الفورستي	رومي/ عربي	-
الثانية	سيدي بن شرقي سيدي أبو عبد الله	سيدي بن شرقي سيدي أبو عبد الله	-	-	-الفلاحة الحرف -التجارة

تبنى العلاقة التراتبية في الحكاية الأولى على التأسيس لوضع غير طبيعـي، وجـود السلطة الاستعمارية أو المخرب المدمر كما سماه مولود قاسم رحمه الله، مما يجعـل الشخصيات فيها والمراتب تبنى على النقيض. الأول صاحب أرض وحـق والثـاني آخذ لحق ببهتان وباطل " الولي لا يلتقي بالسلطة ولا يطلبها "[383] ولم يكن من عـادة

[382] الشيخ سيدي الجيلالي بن عبد الحكم– المرآت الجلية – مخطوط نسخ عام 1953م تلمسان ص 226
[383] علي الزيعور –قطاع البطولة والنرجسية– ص 122

الدرك الفرنسي زيارة سيدي بن شرقي، وربما قصدوه هذه المرة للدعاء بعد ضـياع السكين ويفاجأ صاحب السكين بما لم يكن يتوقعه، " فالولي على اطلاع ومعرفة لمـا يختلج في النفوس من نوايا، وهنا تتجسد الكرامة في الكشف عن المجهول"[384] فهـم يبصرون مالا يبصره عامة الناس يمتازون بالتنبؤ والمكاشفات، تفصح الحكاية عـن انقلاب بين حالين ووضعين قبل ضياع السكين لم يكن الدركي يأبه بقيمـة الـولي، يتحول إلى من يدعوا إلى إتباع الولي والأخذ بوصاياه، يتحول التابع إلـى متبـوع، صاحب السلطة ويقر بقوة الولي، فارجل السياسة سلطانه علـى الرعيـة، وللـولي سلطانه على العامة والخاصة وكل يمارس سلطته في وضعه الخاص[385]، وإذا كـان بعض المتشككين يطلبون من الولي الكرامة برهانا واثباتا لولايته فإن هذه الكرامـة اخترقت أفق الحاضرين فرأوا بأنفسهم مالا يدع مجالا للشك فانقلب العدو من لامبالاة بقيمة الولي إلى معترف بقدراته، مقرا لكراماته، يفكر له في الجزاء والثواب نظيـرا لما صنع يقول حمادي المسعودي :" الكرامة تغير العلاقة بين الولي وأعدائه ومناوئيه فينقلب لديه العدو صديقا." [386]

في الحكاية الثانية تبدو الوظيفة التعليمية في صدارة الأحداث وتبرز مرتبة سيدي بن شرقي الشيخ الفقيه العارف بالمسائل قبل أن ينطق بها أهلها، فهـو علـى اطـلاع ومعرفة لما تكنه الصدور، يؤسس الراوي فضاء الرواية في كنف العلم والمعرفـة، القاصد المريد الذي يضرب في الأرض ابتغاء الوصول إلى راحة النفس بـالجواب الذي يطمئن له السائل، تأخذ التراتبية في هذه الحكاية طابع الجدلية المعرفية قصـد العلم والتحصيل. سيدي أبو عبد الله يسافر مع رجلين قصـد الاختبـار والمعرفـة، والسفر رحلة من مكان إلى آ خر، ينطلق المسافر لغاية وهدف وكل سفر"هو قطعـة واتصال معا حين يسافر المرء ينقطع عن مكان ليتصل بآخر، والسفر إسفار وخفاء". جاء في اللسان: سمي السفر سفرا لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم، يظهـر

---

[384] حمادي المسعودي –الحكايات العجيبة– ص 124
[385] نقلا عن المرجع نفسه ص 142
[386] مرجع سبق ذكره ص 83

ما كان خافيا منها[387] فالعالم ينتقل إليه الناس ويرحلون قصد الحصول على المعارف وفك المسائل المستعصية، ولا يثني القاصد إلى الوصول العقبات والحواجز، وطول السفر ووعورة المسالك فكل ذلك تحدي لأجل بلوغ الشيخ يقول جان شـوفالي فـي كتابه التصوف والمتصوفة:" الشيخ هو القطب المرشد إلى البحث الروحـي، وهـو المحور الذي يدور عليه أمر السالك ويتطور في معارج صوفية حازونية." [388]

وقد يكون للشيخ الولي العارف شيخ يرجع إليه أو ليدل الآخرين على الطريق، سيدي أبو عبد الله دليل الرجلين إلى سيدي بن شرقي فهو نـور طـريقهم للـتعلم ورؤيـة البرهان وحين ذاك لا يبقى في القلب لا يبقى في القلب أثر للشـك والتـردد. يقـول بورايو "الشيخ الحقيقي هو من كان له مرشد مكنه ورسم له الطريق،(...)" [389] وبهذا فالحكاية تؤسس لعلاقة التراتبية بين فئات الناس عامة والشيخ العارف خاصة، فالسفر يسفر عن حقيقة الغايات، "فلكل أفراد المجتمع مرجعية مشتركة، حاجة المدنس إلـى المقدس، والعادي إلى الكائن اللامتناهي "[390] فالصوفي يمثل السـلطة التـي تمتلـك المعرفة وتقدمها للسائلين في حينها، إن الولي لا يخرج عن قومه ولا يتميـز عـنهم يزرع ويحصد ويمارس الحرف المختلفة، وتبرز المرتبة الاجتماعية تجذره في عمق المجتمع، وإطلاعه بانشغالات القوم ومعرفته لوسائل العيش مـن تجـارة وفلاحـة واقتصاد. يقول علي زيعور:" الشخص المستعلي شخص تاريخي منغرس في حقـل المجتمع وعاش كالآخرين وتنفس هواءهم وتغذى بغذائهم (...)[391] وينسج الـراوي علاقة وثيقة بين الولي وعامة الناس، فمن يقصده للتعلم أو الاستفسار والإفتـاء، أو يأتي وهو يضمر نية الإطلاع على كراماته حتى يطمئن قلبه، فيزداد ثقـة وتتوطـد صلته بالولي ويصبح من مريديه وأتباعه، وقد عرف أبو زيد الهزميـري بكراماتـه التي نسجت حول القضايا العلمية المستعصية." [392] تبرز تراتبيـة الحكايـة لطـابع المعرفة المستقبلية وكشف المكنون في سريرة الأنفس والإفصاح عن نوايا القاصدين

---

387 سعيد غانمي–الكنز والتأويل– ص 73
388 جان شوفالي–التصوف والمتصوفة ترجمة عبد القدر قنيني– ص 96
389 عبد الحميد بورايو مقال متضمن لتحليل نماذج من الحكايات الشعبية ودراستها وفق الجداول – ص 25
390 شلحت يوسف –نحو نظرية جديدة في علم الإجتماع– ص 16
391 علي الزيعور –قطاع البطولة والنرجسية– ص 24
392 محمد مفتاح –دينامية النص – ص 138

فهو فحوى ما يذهب إليه زيعور في قوله (بتلك الخاطرة والطوالع إشارة إلـى دور القلب رمز المعرفة الصوفية والكشف والإلهام، فالتصوير للقلب هنا قدرة لا تخطـئ وتكشف الأسرار وتتنبئ بالسرائر (...)[393] تكشف العلاقة التراتبية عن علاقة المريد والتابع وعامة الناس بالولي للسفر والإقدام والاختبار، ومن ثمـا يحصـل التشـويق بالكرامة فيعطي الولي السلطة الكاملة والسيطرة التامة فيتحكم في النفوس وتصـبح مجيبة له مطيعة لأمره.

---

[393] علي الزيعور –الكرامة والأسطورة والحلم– ص 193

الخاتمة

عملنا في هذا الموضوع على تقديم مفهوم الكرامة وتنوير محيطها لتكون طابعة له بوضوح وجلاء، ولبلوغ هذه الغاية، عمدنا إلى مقاربة اصطلاحية للكرامة مع المفاهيم والأجناس المجاورة لها، وفيما تلتقي وتختلف، وما هي وظائف كل جنس، إن نقاط التماس ضمن الزوايا والحدود في فضاء شاسع للكرامة مع غيرها من الأجناس يمكننا من محاصرة مفهومها قصد تحديد معناه بدقة، فالكرامة جنس مناقبي يحيا في المحيط المقدس ويعيش في كنف الولي كالهواء للحياة، وقد جمع الباحث لهذا الغرض من المفاهيم ما تيسر من المصادر والمراجع وما وصل إليه الدارسون والباحثون في مختلف الحقول، ما يجعلنا نقول بأن الكرامة لها علاقات عدة مع الأجناس الأخرى تشترك معها في القدسي والروحي.

من الغايات التي كنا نتوخاها في هذا البحث هو جمع هذا الشتات المهم لثقافتنا الشعبية والذي ينزع إلى خلفية تاريخية ومرجعية روحية تسمو به إلى علياء الأنفس التي تتوق إلى الفضاء العلوي والعالم الأسمى إن وضع المادة جاهزة مدونة تمكن الذين سيأتون بعدنا من قراءتها حكايات مجتمعة، فتحيلهم إلى حكايات أخرى وقد يصل بها إلى ما لم نتمكن بلوغه.

إن طبيعة الصعوبات التي واجهتنا تجعلنا ننظر إلى الأمر بأبعد مما يصل إليه نظرنا في حدود الأفق، إن امتناع الكثيرين بالإدلاء برأيهم في هذا الموضوع لنوايا وغايات شتى، يجعلنا نصر أكثر في التقدم إلى الأمام وحتى وإن كان الجهد كبيرا والمحصول نزرا يسيرا.

إن دراسة هذه الحكايات وفق نصوص كتب لها الخلود من أمثال وحكم وحكايات فاقت حدود الزمان والمكان، بمثل هذه الدراسة تبعث الحكاية لتحيا من جديد وتجد لها مساحة في حقل الإبداع فتكون في صدارة من يطلع عليها فيقرأها ويذهب بها بعيدا. هذا النوع من النصوص يحيا في السماء ويخلد في الملأ الأعلى خلود صاحبه بذاته، فإذا كانت النصوص الخالدة وجدت لها الحياة في الأرض

وامتدت عبر الزمان والمكان وألغتهما وتجاوزتهما، فإن حكايات الكرامات اتسـعت في المساحة دون أن تحدها حدود وارتقت أكثر فهي لا أفقيا ولا عموديا إنها خالـدة خلود الأبد والدهر بل بعدهما.

الولي لا يموت يظل حيا بين قومه يسألونه فيجيب وإن تأكدوا بـأنهم دفنـوه وغاب عنهم، تراهم يذهبون ويقفون على قبره ويشكون إليه الظلم ويسألونه التفـريج والحل، إنه يحيا بذاته في كراماته، يتلوها القوم ويرددونها ويقفون عند مسافة الدهشة والاستغراب يتأملون روح وليهم في نصوصه ويعيشون في أعماقها.

لا نعتقد أننا بلغنا الغاية، بل نظن أننا وضعنا لبنة يرتكز عليها الباحثون فـي هذا المجال، وإذ نظن أننا ولجنا الصعب لنصل إلى المكنون السري والخفي فلعـل بحثنا المتواضع يعطي الشجاعة والإقدام وكل الذين كانوا يتقدون أو مازالوا يظنـون بأن باب هذا الموضوع سيظل مغلقا، مقدسا، محرما لا يجوز الكلام فيه.

إن مجاجة وساحل تنس والعطاف كلها مناطق ذات تربة لها قداستها، قدمنا لها هذا الموضوع تنبها للغافل، آملين أن نظل أوفياء لمرجعيتنا من أجل إيجاد إجابـات لتساؤلاتنا، وكل سؤال لا يجد له الجواب يظل يملأ ساحة صاحبه للتردد والشك دون أن يستقر على حال.

نود أن نكون قد نقلنا هذه الحكايات من عالم الإفتراض إلى عالم الإمكان، ومن الوجود إلى اللاوجود ومن الخفاء إلى الكشف والظهور.

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم

❖ تفسير القرآن الكريم ـ الزمحشري أبو القاسم جار الله، دار المعرفة بيروت (ج2) د.ت

❖ ابـن كثير (الحافظ عماد الدين) تفسير القرآن العظـيم دار المعرفـة بيـروت 1982.

❖ القزويني (زكريا)

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات تحقيق، فاروق سـعد، دار الأفـاق الجديدة، بيروت لبنان (ط4) 1981م.

❖ الزمخشري (أبو القاسم محمود) أساس البلاغة -تحقيق عبد الرحيم محمـود دار المعرفة بيروت لبنان بدون تاريخ

❖ عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي-تفسير الكتاب العزيز-المحرر الوجيز – تحقيق عبد السلام الشافي محمد ط1-دار الكتب 1993.

❖ أبو حيان الأندلسي-تفسير البحر المحيط تحقيق عادل أحمد منشورات دار الكتـب 2001م

❖ محمد فؤاد عبد الباقي –معجم غريب القرآن دار المعرفة لبنان.ب.ت.

❖ وحيد السعفي- العجيب والغريب في التفسير- منشورات تبر الزمـان 2001م- تونس

❖ الكلاباذي (أبو بكر محمد) التعرف لمذهب أهل التصوف –تحقيق محمود أمين النواوي القاهرة مصر ط2 1980م

Abut-qasim ALLABIDI –MANÂqib Abou Ishaq AL-Jabanyani 2 Impremerie la Rapide –Tunis.

❖ أبو القاسم محمد ابن إبراهيم الغول

- تعريف الخلق برجال السلف، تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطـيخ، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة، تونس 1982م

❖ مفتاح محمد، دينامية النص-المركز الثقافي العربي،بيروت،دار البيضاء،المغرب لبنان ط1، 1990م
❖ سعد الله(أبو القاسم)تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب (ط2) 1985م
❖ فلاديمير بروب مورفولوجية الخرافة ترجمة وتقديم إبـراهيم الخطيـب مطبعـة النجاح الجديدة الدار البيضاء.
❖ الزاهي (فريد)

- الحكاية والمتخيل، دراسات في السرد الروائـي والقصصـي، مطبعة إفريقيا، الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 91

❖ زيعور (علي):

♦ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم دار الطليعة بيـروت لبنـان (ط1) 1979م
♦ قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية در الطليعة بيـروت لبنـان (ط1) 1982م

❖ القشيري (عبد الكريم) الرسالة القشيرية تحقيق عبد الحليم محمـود ومحمـد بـن شريف القاهرة مصر(ط1) 1966م
❖ السراج (أبو النصر) اللمع تحقيق عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة مصر 1960م
❖ يوسف شلحت نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني تحقيق وت خليل أحمـد خليل (ط1) دار الفارسي لبنان.
❖ جان شوفليي التصوف والمتصوفة ترجمة ع القادر فنيني إفريقيا الشـرف لبنـان 1999م
❖ دوني كوش مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ترج قاسم المقداد مطبعة اتحـاد الكتاب العرب دمشق 2002م
❖ سعيد الغانمي الكنز والتأويل (قراءات في الحكاية العربية) (ط1) 1994م

❖ شارل بلوندل المدخل إلى علم النفس الجماعي تعريب حكمة هاشم الطبعة الثانية دار المعارف بمصر 1962م

❖ سعيد يقطين

- قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية) (ط1) 1997م

- ذخيرة العجائب العربية(ط1)الناشر المركز الثقافي العربي 1994 الدار البيضاء.

❖ آمنة بلعلى تحليل الخطاب الصوفي الطبعة 2002/1500.

❖ عيسى لطفي أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ المطبع الموحدة مجموعة سيواس تونس 1993.

❖ توفيق فهد العجيب والغريب في إسلام العضو الوسيط ت عبد الجليل محمد الرازي ص91 (ط1) الملتقى الدار البيضاء 2002م

❖ وعزيز (الطاهر)

- بنيوية كلود لفي ستروس-دار الكلام-الدار البيضاء،المغرب،1990

❖ الجاحظ (عمرو بن بحر)

- البيان والتبين، تحقيق فوزي عطوي، مكتبة محمد حسين النوري، دمشق، مكتبة الطلاب. د.ت

❖ بورايو(عبد الحميد):

♦ القصص الشعبي في منطقة بسكرة المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986م

♦ البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب لشعبي ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1998م

❖ أبو القاسم محمد ابن إبراهيم الغول

- تعريف الخلق برجال السلف، تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطـيخ، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة، تونس 1982م

❖ مفتاح محمد، دينامية النص-المركز الثقافي العربي،بيروت،دار البيضاء،المغرب لبنان ط1، 1990م

❖ سعد الله(أبو القاسم)تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب (ط2) 1985م

❖ فلاديمير بروب مورفولوجية الخرافة ترجمة وتقديم إبـراهيم الخطيـب مطبعـة النجاح الجديدة الدار البيضاء.

❖ الزاهي (فريد)

- الحكاية والمتخيل، دراسات في السرد الروائـي والقصصـي، مطبعـة إفريقيا، الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 91

❖ زيعور (علي):

- ♦ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم دار الطليعة بيـروت لبنـان (ط1) 1979م
- ♦ قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية در الطليعة بيـروت لبنـان (ط1) 1982م

❖ القشيري (عبد الكريم) الرسالة القشيرية تحقيق عبد الحليم محمـود ومحمـد بـن شريف القاهرة مصر(ط1) 1966م

❖ السراج (أبو النصر) اللمع تحقيق عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة مصر 1960م

❖ يوسف شلحت نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني تحقيق وت خليل أحمـد خليل (ط1) دار الفارسي لبنان.

❖ جان شوفليي التصوف والمتصوفة ترجمة ع القادر فنيني إفريقيا الشـرف لبنـان 1999م

❖ دوني كوش مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ترج قاسم المقداد مطبعة اتحـاد الكتاب العرب دمشق 2002م

❖ سعيد الغانمي الكنز والتأويل (قراءات في الحكاية العربية) (ط1) 1994م

❖ شارل بلوندل المدخل إلى علم النفس الجماعي تعريب حكمة هاشم الطبعة الثانيـة دار المعارف بمصر 1962م

❖ سعيد يقطين

- قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية) (ط1) 1997م
- ذخيرة العجائب العربية(ط1)الناشر المركز الثقافي العربي 1994 الدار البيضاء.

❖ آمنة بلعلى تحليل الخطاب الصوفي الطبعة 2002/1500.

❖ عيسى لطفي أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتـاريخ المطبـع الموحـدة مجموعة سيواس تونس 1993.

❖ توفيق فهد العجيب والغريب في إسلام العضو الوسيط ت عبـد الجليـل محمـد الرازي ص91 (ط1) الملتقى الدار البيضاء 2002م

❖ وعزيز (الطاهر)

- بنيويـــة كلـــود لفـــي ســـتروس-دار الكـــلام-الـــدار البيضاء،المغرب،1990

❖ الجاحظ (عمرو بن بحر)

- البيان والتبين، تحقيق فوزي عطوي، مكتبة محمـد حسـين النـوري، دمشق، مكتبة الطلاب. د.ت

❖ بورايو(عبد الحميد):

♦ القصص الشعبي في منطقة بسكرة المؤسسة الوطنية للكتـاب الجزائـر 1986م

♦ البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب لشعبي ديوان
♦ المطبوعات الجامعية الجزائر 1998م
❖ القصص والتاريخ –نصوص جمعت تحت اشراف عبد الحميد بورايـو، سلسـلة جديدة، العدد الثاني، المركز الوطني للبحوث، وزارة الثقافة الجزائر 2005م

المخطوط

❖ المشرقي:
♦ ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف مخطوط مسجل.
♦ سيدي امحمد بن علي مولى مجاجة بـمكتبة الرباط.
❖ الجيلالي بن عبد الحكم (مدير مدرسة الفلاح بالأصـنام) –المـرآة الجليـة فـي التعريف بأولاد بن سيدي صفية،ط1 تلمسان 1953م
❖ الشهرستاني (محمد بن عبد الكري) ـ الملل والنحل دار المعرفة بيروت1983.
❖ ابن خلدون (عبد الرحمن) ـ ـ تـاريخ العلامةـ ـ ج 5، دار الكتـاب اللبنـاني بيروت1981 .
❖ ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين) لسان العرب دار المعارف القـاهرة مصـر 1979.
❖ التهانوي(محمد علي بن علي بن محمد)
❖
- كشاف اصطلاحات الفنون، وضع حواشيه أحمد حسن سبج، المجلد المجلد الثالث منشورات علي بيضـون، دار الكتـب العلمية.ط1، بيروت 1998م
❖ الجرجاني (علي بن علي)
- كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت 1978م
❖ العسكري (أبو هلال)

- الفروق في اللغة، تحقيق: لجنة إحيـاء التـراث العربـي، دار الآفـاق الجديدة، بيروت،لبنان، ط1980،4م

المذكرات

- حكيم ميلود ، الكرامة الصوفية في تلمسان:مذكرة ماجستير 98 تلمسان
- ليلى حوماني- تجليات العجيب في ألف ليلة وليلة 2004 تلمسان

المجلات والجرائد:

- دراسات عربية (ع1، 2) نوفمبر ديسمبر بيروت لبنان 1995.
- الفكر العربي بيروت لبنان (ع73) 1993.
- المساءلة، اتحاد الكتاب العدد 564 الجزائر 93
- لؤي خليل-مجلة التراث اتحاد كتاب العرب 2005 دمشق
- مجلة اللغة العربية –المجلس الأعلى للغة العربية- مجلة نصف سنوية تهتم بالقضـايا الثقافية والعلمية- عدد ممتاز شتاء 2005
- مجلة التراث النقدي –اتحاد الكتاب العرب 2002 دمشق- غليزان أحداث، نشرية إعلامية شهرية، العدد 20، جويلية 96
- السـجل الـذهبي لشـهداء ولايـة الشـلف 1954-1962-اللجنـة الولائيـة المكلفـة بتحضير احتفالات الذكرى الخمسون لاندلاع الثورة.
- كوكب افريقيا، جريدة أسبوعية سياسية أدبية علمية، 23 فيفري 1912م، الجزائر
- المجلة العربية للثقافة، نصـف سنوية، العدد 36،المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافـة، 1981، تونس.

- Petite histoire du département du chlef
- Petite Geographie du département du chlef
  Max Marchand, Chef service départemental de l'enseingement primaire d'orienville
  - Bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigenes dans le ouest de tell algerien.

  X A vien yacone edition LAROSE Paris

- Chlef huit siècles de présence .

الملحق

التوثيق المرجعي

سيدي امحمد بن علي

945 – 1008 هـ
1538 – 1600 م

محمد بن علي المجاجي المعروف بأبهلول بن أحمد بن عبد الله بن يـدر بـن محمد بن علي ينتهي نسبه إلى الحسين بن فاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام.1 وينبع أصله من الأشراف الحسينين بالأندلس ويذهب إلى ذلك كل الذين ترجموا لـه، ومنهم المشرفي والمؤرخ عبد الرحمان الجيلالي. نشأ في رعاية الله وطاعته مع أخيه أبو علي وورثا مقام أبيهما فاشتهرا وعلا قدرهما ، رحل سيدي امحمد بن علي إلـى

الصحراء وأقام بورقلة وأخذ العلم عن شيوخ كثر، وأسس بها زاوية انتهجت الطريقة الشاذلية والقادرية ثم عاد إلى مجاجة بالشاف وواصل التدريس ومن الطلبـة الـذين درسوا بزاويته "سيدي عمار الشريف" (برج ملاين) سيدي سعيد قدورة الذي صار فيما بعد مفتي ديار الجزائر ويدي سحنون بجبل تمدرارة ، والشيخ ابراهيم الغبريني (شرشال) وقد عرف عن الولي القطب سيدي امحمد بن علي العلم والورع ومعرفته البليغة بمسائل الفقه وعلم الكلام والأصول(...)1 تعتبر زاويته معلما ومقصدا لأهـل العلم من كل فج." وكانت من أهم ما أنجز في شرق مدينة شلف*2 وقـد اختصـت بمختاف العلوم، يذكر أبو القاسم سعد الله شهادة لسيدي سعيد قدورة حيث يقول عـن شيخه: " كان شديد الإعتناء بالعلوم والفنون المختلفة كالتفسير والحـديث والمنطـق والتوحيد ، وقد انتهى في التفسير الى سورة الإسراء."3 وكان الولي شـاعرا يسـأل عن الفتوى شعرا فيجيب عنها شعرا. سأله مفتي الجزائر الشيخ المطماطي عن حكم العبيد المسلمين.

بأي وجه ترى استخـــدام أعبـدنـا والخير بـدى مـنهم لـــــنا سـرج

كـــــيف التـملك و الرسول أخبرنا بعـد الشهـادة لا مــــلك ولا حـرج

فأجابه سيدي امحمد بن علي:

فـكيف يـقـــبل قول أو يـباح به مـلك جمـيع عـوام النـاس ذا سمـج

أسـعى سريعا لـسبق الـنصر مجتهدا في فـكهم مـن ربـاق الـرق ينـزعج*

وقد امتد اهتمامه بالعلوم إلى تأسيس مدرسة في بداية القرن الحادي عشـر هجـري بمنطقة مازونة 2 والتي ظلت تشع بالعطاء والعلم ومازالت إلى اليوم تواصل رسالة الأجداد .

قتل رحمه الله إثر الفتوى التي أوقعه فيها الباي التركي بمازونة حيث أرسـل إليـه يستفتيه في حكم زواجه بزوجة أبيه الذي مات ولم يدخل بها فأفتاه بحرمتهـا عليـه، فبعث إليه مجموعة الشباب، دخولا عليه ليلا فوجدوه قائما يصلي فطرحوه وذبحـوه وذكر أنه ظل حيا حتى الصباح يقول يا حليم يا كريم إلى أن سلم الروح إلى ربهـا وهو ينطق بالشهادتين ودفن بجوار أبيه في مقبرة النخلة بمجاجة وقد بلغ الخبر الداي التركي بالجزائر العاصمة وأخذ بثأره، وقتل الباي ومعاونيه في الجريمة الشنيعة . 1

وقد رثاه الكثيرون وذكروا آثاره ومناقبه ، وتظل زاويته إلـى اليـوم شـاهدة تمـد الوافدين والقاصدين بالعلوم والدعاء الصالح. بإلحاح من الإمام محمد الونوغي مفتي الأصنام قال عاشور بن محمد الملقب" كليب الهامل" قصيدة مدح فيها أشراف مجاجة وأظهر مناقبهم*2

الله أكبر كـل الـحسن في الـ ـ ـعرب وأكمل الحسـن فـي أشـ ـ ـ ـرافها الـ ـنجب

لـكن أكملهم حسنـ ـ ـ ـ ـنا ومـ ـنقبة أشــراف " مجاجــة " فــي هــذه الـ ـ ـحقب

مـ ـن أهل دائرة "الأصـ ـ ـ ـ ـ ـنام" آونة آل المعرف " بـ ـ ـالبهلول " فـي العرب

قـ ـطب العوالم مـ ـ ـولانـا الهمام "علي" وهل لشمس الضحى في الصحو من طلب

لاسيمـا دوحـ ـ ـ ـتاه الـمفتدى بهـما في سائر الأرض من جـ ـار و من جنب

بـــــحر الهدى و الـندى والعلم قاطبة "أبــــو علي" علي الـــــقدر و النسب

حلو الحلى في المـلا وفي الوفى ابن جلا لــــكنه في الــعلا در على ذهب

خــــليفة الأب والأخ الذي اجـتمعت علــيا هما فيه من فـضل ومن نشب

بـــل الولي الصفي" الـوارث العظما مـــن والـــد وأخ إلى أجـل نبي

فـــخر الـوجود أبو الأسود منه إلى هــذي العهود فزر و احزر و لا ترب

لـــو لم يكن منه إلا من عــرفتهما درايـــة و روايــــة عـن الـنقب

الليث مــعركة الـــطود معـرفة الــــبحر عارفة مـن كــــل مكتسب

الشيخ "هني " الــمهنا في ســـلالته بـــاالآل و الـمال أعقابا على عقب

و الـــــعالم الـــعامل ابنه بـاشرة أقضى القضـاة علـى "الأصـنام" و النـصب

سيف الــــمدارك ضرغام المعارك في كــــل المسالك من رعب و مـن رغب

" محمد " الـــغيث أن يحمد على طلب لـــكنه الـليث أن يحمد علـى غضب

والعـــــالم العامل الأربى من الأربـا "محمـد" بـن علـي أعـــــجب العــجب

قـــــطب المدار شهيد الدار مـحتسبا   لله فيمـــا بـــــه أفـــتى لمغتصب

كم من ولـــي و عـالم به بـــــلغوا   حـــــد الكمال و عظـم الصـيت والقرب

حـــدث بـــما شئت فيه عن مـناقبه   ومـــــــــاله مـن كـــرامات ومنعقب

والـــــعلم مـــيدان و الجـــود ديدانه   والحـــلم معـدنهم فـي السـلم و الغضب

جـــــــل الذي خـلق الإنسان في كبد   وأهـــــــــل "مجاجة" المـال و الطرب

ولاغـــرابة أن الـــقوم قـــاطبة   حتى الأصـــــاغر أهـل العـز والرتب

والله مجـــــــمع شمـــلهم فـــإنهم   مسك الــــــختام الذي من شـمه يطب

مـــــاقال قـــــائلهم فردا ومجتمعا   " الله أكبر كـــــــل الحسن فـي العرب



صورة مقام سيدي امحمد بن علي

الواقع في أعالي مجاجة ويتربع على مساحة نصف هكتار ماهوز مبني الآن 15400م^2 ولازالت إلى اليوم تمارس نشاطها التعليمي وحاليا خصصت لها الدولة مشروعا لتوسيعها وبعث الحركة العلمية فيها من جديد.



صورة القبرية في مقام سيدي امحمد بن علي

يزور الوافدون المقام في مختلف المناسبات وخاصة في الأعياد والعطل وتحرص النساء على دخول القبرية والتمسح بقطع القماش والدعاء

سيدي بن شرقي

1239 – 1341 هـ

ولي الله الحاج محمد بن السيد الحاج قدور يتصل نسبه بالولي سيدي احمد بن عبد الله دفين بطحاء شلف. بن يدر بن محمد بن علي بن محمد بن دريس بن سليمان بن محمد بن الهاشمي بن علي بن الطاهر ويصل نسبه إلى فاطمة بنت رسـول الله ، وقد ولدته أمه السيدة محجوبة بنت البركة بتاريخ 1239 هـ وقد توفيت وتركته يتيمـا ابن ستة سنوات فرباه أبوه وقدمه للكتاب فقرأ القرآن في بلدة العطاف بدوار " زدين " ونشأ على الأخلاق الحسنة وعبادة ربه ودأب يصوم النهار ويقيم الليل أخذ الطريقـة الشاذلية فصار يطعم الطعام ويواسي الفقراء وأمضى كل وقته في الإرشاد والعبـادة والتدريس إلى أن توفى رحمه الله سنة 1341 هـ"1

سيدي امعمر

أصله ونسبه: هاجر أخوان من بلاد الشام إلى الجزائر، استقر الأول بمنطقة لبيض سيدي الشيخ والثاني بمنطقة واد رهيو " غيليزان" وفيهـا اخـتلط بالأهـالي وتزوج منهم ورزق بابن سماه امعمر وكان هذا حوالي 1420 م أولاه والده رعايـة واهتماما وحفظه القرآن الكريم كما كانت عادة أغلب السكان وقتذاك، فنشأ في تربـة دينية صرفة، وأصبح شابا قويا وازدادت معارفه وعرف له تقوى وورع لـم يشـهد

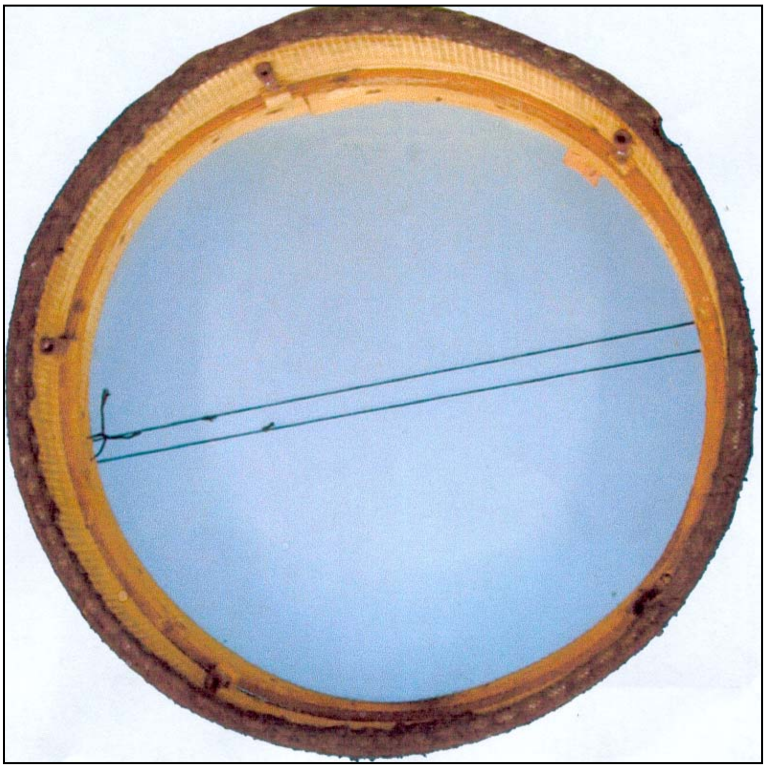
لغيره حتى أصبح مزارا يقصد للتبرك وقبول الدعاء وطلب الحاجة. وعـرف باسـم عمر ابن العالية 2 . تذكر بعض الروايات التي استقيناها من أهل منطقة لحـلاف (عمي موسى)* وهي الموطن الأصلي لقوم حميس حيث سيدي معمـر مـنهم ، أن سبب رحيله إلى منطقة تنس الساحلية يعود إلى أن قوم بني اوراغ جاؤوا بعـروس جميلة جدا في هودجها، ومن متاعب السفر ومشقة الطريق حق الرحالة للاسـتراحة عند حميس وباتو ليلة واحدة وعند الصباح عزمو على السفر فرفض ابن مضيفهم أن تخرج العروس وكان قد رآها فأعجبته ووقعت في قلبه وحاول بني وراغ حل الأزمة سلميا لكن أهل حميس تعاطفوا مع ابنهم وقالوا إن له ما أراد. فاشتعلت نـار الفتنـة ونشبت المعركة بينهما وانتصر بني وراغ على حميس انتصارا بائنا وأخرجوهم من منطقة لحلاف وقرروا رميهم في البحر، وكان سيدي معمر غائبا في زيارة شـيوخه وإخوانه في منطقة الغرب الجزائري، وعند رجوعه أبلغ بالأمر فلحق القـوم عنـد منطقة بوفيس وأوقف المعركة وحاور رئيس بني وراغ احمد بن يوسف وقال لـه: " حميس حميسي مقطوع مغراسي ما يقطعوا حتى فاس من غير فاسي." وبعد تفاوض من أجل الصلح، رفض بني وراغ رجوع حميس إلى منطقة لحلاف، فالتمس سـيدي امعمر منهم ثلاثة أيم في السنة لأهله حميس يقضونها بمنطقتهم فرفض بنـي وراغ هذا الطلب وبعد الحاح قبلو لهم قضاء يوم واحد في السنة يدخلون بعد شروق الشمس ويخرجون قبل المغيب ونظرا لبعد المسافة بين إقامة حميس الحالية في الساحل فهـم يجتمعون ويتفقون في مكان واحد ويرحلون قاصدين لحلاف يبيتون قريبا من حدود المنطقة وفي صباح الأربعاء يدخلون يوما كاملا في العراء ينصبون خيامهم يوقدون نارهم ولا يجوز لهم دخول بيوت بني وراغ وطعامهم وماؤهم محرم عليهم ومـازال العداء بينهم إلى اليوم فلا تجارة ولا تعامل ولا تناسب في الزواج فالقطيعة مسـتمرة قال أحدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وأصبحت العروس حليمة لوراغية مثل يضرب عندما تنشب الفتنة بين الرجال بسبب امرأة قولهم: " دارتهـا حليمـة ". درس سيدي امعمر في مدينة تنس بمسجد سيدي معيزة كما درس بزاوية مجاجة وقد

اشتهر بكراماته وعرف بواسطة " خيزرانة " (عصا قصب) التي تحولت في ما بعد إلى مكحلة (سيدي امعمر أبو مكحلة) عرف بتأسيسه تقاليد زواج خاصة تقوم على مهر رمزي لتخفيف الأعباء بين الزوجين حتى يتمكن جميع الشباب من إكمال نصف الدين تزف العروس وفق تقاليد خاصة فلا يرى منها الوجه تـربط بوجههـا مـرآة وتخرج حافية القدمين على جانبي رأسها شمعتان مشتعلتان .

هذه قصيدة مدح فيها الشيخ امحمد بن عثمان الغريسي الولي سيدي معمر

يـاإمـ ـام أهل اله يـ ـا سيدي معمر   جبتاك جاه الله ارضى عليـنا
اسـ ـمك معمر ومن يـ ـلـقاك يعمر   يستفالوا بسمك الـ ـمومنينـا
جـ ـود بـرضاك علي كاليمام لخضر   شاع في الأولين والآخرينـا
من بحورك اروى حتى اضحى مخمر   من كيوسك شرب شربةبنينـا
شـاف في اللوح بعينين القلب و انظر   ما في الفوق واسفل سافلينـا
كـ ـون من عند الله اعطاه علم فاخر   فاز بيه على الناس السابقينـا
بحر علم فـايض فـيضان نيل مصر   عذب زاخر ما ركبته سفينـا
صـ ـار من أحبة المصطفى الـطاهر   خاتم الأنبياء والـمرسلينـ ـا
لا تـ ـخيب ظن اللي راه فيك يشكر   افقير يطلب سائل ماالسئلينـا
أنت ونـيس الغربة و رفيق كل خاطر   يا مدبب قفول الـراحلينـ ـا
من يطيعك يـربح و من عصاك يخسر   من بخيته يضحى ماالساعدينا
يـ ـا مغلي شان اللي هو رخيس باير   يا مشبب وجوه الناحـ ـسينا
يـ ـا موسع الضيق و مسهـل الواعر   يا مقرب لوطان الـ ـباعدينا
يـ ـا مساك الـلي محـبوس والميسر   يا مساك خبال الحاصلينـ ـا
يـ ـا مبين من هو تـ ـاف و مـودر   يا مسهل الأمور الصاعبينـا
يـ ـا مغيث اللي هم في الحشى تكدر   يا مفرج كروب الشانـ ـقينا
واك ربـي جـ ـعلك إمام كل محضر   بيك عمرت الناس الفايزينـا
بان نجمك واطلع في السمـ ـا مـنور   بدر في ثالث عشر كاملينـا

امحمد بـن عـثـمـان اللي فـيك يشكر بجاه أحمد بن يمينـا



البنــدير: هــي آلــة موسيقية إيقاعية عـرف منـذ القدم وعرف عند العرب باسم الدف يصنع من قاعدة شـجر الصفصاف، من لوحة خشـبية دائرية قطرها 38 سم يغلـف بجلد الماعز بعد تحضره ودبغه حيث يوضع فيه الملح ويترك إلى أن يجف ويتصلب، يمدده أصحاب الصنعة ويحولونه إلى جلد طائع يتقلص في الشتاء مما يجب تسخينه على النار في كل مرة يتوسطه خيطان يسميان "المصارن" والتي تؤخذ من أمعاء التيس بعد تجفيفها وتحضيرها تمدد ويعلق بها صدفتين لها دور في تحسين الصوت.

الفهرس:

✓ الفصل الثاني: خصـــائص حكايات الـــكرامات

❖ المجتمع الشعبي في الشاف:

❖ الفضاء الزماني والمكاني :

❖ الكرامة وعلاقتها بالحيوان والنبات والجماد: